قصر الصبّار

قصر الصبّار (رواية)

زهير كريم (كاتب عراقي)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)
alaan.publish@gmail.com،
alaanpublishers.com

المراجعة اللغوية: هبة شريقي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-498-6

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2035/ 4 /2022)

813.03

كريم، زهير جايش

قصر الصبار/ زهير جايش كريم / عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(192) ص

ر. إ: 2035/ 4/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

زهير كريم

قصر الصبّار

رواية

إلى فاطمة، نور، عشتار

كلماتي الباقية عندما تذهب الريح بكل شيء

تقول أسطورة قديمة: «إذا ظهرت نبتة صبّار في بيت، لن يستقر فيه ساكن، لأنّ الشيطان بصق عليها لتكون شريكته في خلق العواصف».

من كتاب الأساطير والخرافات الشرقية

حتى في لحظة انغماسنا في ما نظنّه عظيم الأهميّة، لا بدّ أن نتأمل -وقتًا وجيزاً على الأقلّ- مشهد الغيوم العابرة، أن نراقبها ونصمت -في الوقت نفسه- كي نستمع إلى الموسيقى المبهجة التي تتردّد في دواخلنا، الصوت الذي لا نعرف متى يغادر، تاركًا الأثر الذي يذكّرنا دائمًا بأنّ لا شيء ينجو من التلاشي. أمّا أولئك الذين انشغلوا إلى حدّ الغفلة، بالقدر الذي لم يسمعوا فيه أصواتهم الداخليّة، سوف يقومون في ما بعد بالشيء الوحيد الذي يمكن فعله، النظر بعينين ساكنتين إلى الحقول المحترقة، الخيول النافقة والجداول الجافة، سيفتقدون بكثير من الأسى وبقلوب متصدِّعة الدروبَ الخضراء والمساءات المشحونة بالمسرات، وحين يضعون رؤوسهم على الوسائد الخشنة في غرفهم المعتمة، سيرددون بأسى: «كلّ شيء يعبر في النهاية، كلّ شيء يعبر أو يذوب مثل الغيوم».

زهير كريم

قبل الدخول إلى القصر

تقول نرجس في صفحة من دفتر يوميّاتها أو خواطرها التي تشبه عمليّة نفث الدخان من الصدر:

«نحب في الأفلام البطل المجرم، نحبه لأنّه يمثّل الشيطان، الجزء المخفيّ منّا، الجزء الأهم -في الحقيقة- الذي نحاول أن نضع في الصورة بدلاً منه أخاه الملاك كي نظهر في عيون الآخرين من الأخيار، شخصيًّا لا أحب الملائكة ولا أحب -في الوقت نفسه- الشياطين، في النهاية هما أَخوان يضحكان علينا، يعيشان معًا في البيت نفسه، في دواخلنا نحن البشر، ويتعاونان معًا لكتابة هذه المهزلة، حياتنا!».

كانت هذه الفقرة الباب الذي دخلت منه إلى أعماق «نرجس»، الشخصيّة الرئيسيّة في العمل الروائيّ الذي أنوي كتابته. لقد أدركت أنّها لم تكن سوى زهرة مُرة، لكنّ الرجال الذين مروا بها كانوا ينجذبون إليها على الرغم من أنّهم يدركون صورتها التنكريّة، لكنّ هذه الصورة تثيرهم لأنّها تطابق رومانسيّة الطبيعة وسحر جمالها.

وعندما أنهيت قراءة ما دوّنَتْه من هذيانات واعترافات في دفترها، عرفتها بشكل أفضل، حينها فقط شعرت بالامتنان للصدفة، لهذا الشيء الذي ينغلق على عمقه السحريّ، الغامض والمفارق الذي ينطوي أحيانًا

على التشكيك في أنّ ما يحدث واقعٌ فعلاً، أو أنّه يجيء من منطقة الخيال وحسب، أو ربّما نسيج من هذين الخيطين.

رتّبت الصدفة لقائي برجل فتح لي بوابة الدخول إلى عوالم وأسرار المنزل الذي يسمّونه «القصر»، رجل منحني أعطيَّتَه الثمينة، وعلى النحو الذي يحصل فيه شخصٌ ما على شيء، يقرأ قصة -مثلاً- عن صيّاد يصوّب في اتجاه طير يقف على غصن، وعند الفقرة التي يصور فيها الكاتب لحظة إطلاق الرصاصة، يسقط طير بين يدَي القارئ، من أين جاء هذا الطير! من المؤكد أنّه من المنطقة التي يختلط فيها الواقع بالخيال. بهذه الطريقة تقريباً عرفت الرجل ثمّ «نرجس»، الشخصيّة المحيِّرة، المحايدة واللامبالية، التي لا يظهر لها موقف محدَّد إلّا من رغبتها في أن تعيش حتى لو تطلّب الأمر موت العالم كلّه. إنّها تشبه -من زاوية ما- «مارسلوت» الشخصيّة الرئيسيّة في رواية «الغريب» لـ«ألبيرت كامو»: **«ماتت أمي اليوم. ربّما كان ذلك بالأمس، لست أدري، فقد تلقّيت برقيّة من دار المسنين تقول: ماتت الأم والدفن غداً، تحيات طيبة. وهذا لا يعني شيئاً، فربّما كان ذلك بالأمس»**.

لم تكن حكاية نرجس -في بداية اطلاعي عليها- تستحق المغامرة حقاً، تخلو من التحريض على قبول المشقة التي نتحمّلها عادة عند كتابة الرواية، ولست -من جانب آخر- الطفلَ الذي تدهشه الحكايات الخالية من الفيضان، أقصد الحدث الذي يخترق العاديّ ويمحو صورة النهر الثابتة في الذاكرة باعتباره خطّاً. حسناً، أعتقد أنّ الحكاية الجديدة لا بدّ

أن تنطوي على فيضان يمسح الخطّ، لكنّني في نقطة ما من سيرتها المختصرة، شعرت بأنّني أمسك بالسرّ، الشيء الذي يجعل الدمية العاديّة الصامتة مثيرةً، أن تصدر صوتاً عندما ينقر الطفل بأصبعه على موضع منها، هكذا قلت لنفسي وأنا أتخيل صوت الدمية الذي يشبه لحناً طويلاً مضطرباً، نحتاج لكي نفهمه إلى الإصغاء الجيد. في النهاية قلت لنفسي إنّ الأشياء كلّها تنطوي على قصد ما، مخفيّ ربّما، لكنّه يلمع في اللحظة التي نزيل فيها ما يشبه طبقة الغبار عن سطحه، نصقله بالمحاليل ليظهر جوهره، تتنفس الروح المتوقدة داخله فتضيء.

كانت بداية المغامرة في عام 2004، عندما كلّفتني المؤسسة الصحفيّة التي أعمل فيها بالكتابة عن المباني التراثيّة في بغداد، المدينة التي تعيش وضعاً جديداً، إذ يسيطر عليها اضطراب سياسيّ ومناخ غائم لا يمنح فرصة لمعرفة ما يمكن أن يحدث حتى بعد يوم واحد، قوات احتلال وبركان طائفيّ على وشك الانفجار، هكذا تشير العلامات في الشارع وفي الأحاديث الخاصة، بل داخل مكاتب المؤسَّسات التي لم تعد تحمل معنى واضحاً لكلمة «مؤسَّسة».

على الرغم من ذلك تحمست للفكرة جداً، فأنا شغوف بتلك الفضاءات التي تنبعث منها روائح التاريخ، الإنجازات العمرانيّة التي ترقد تحت غبار جدرانها الأحداث الجميلة أو القاسية. وخلال البحث كنت قد أعددتُ قائمة بالمنازل التي أنوي الكتابة عنها، لا أعرف لماذا اخترت في

بداية رحلتي هذا المنزل، البناء الذي سيكون فضاءً لمشروع آخر لا علاقة له بالتكليف الصحافيّ.

لقد كتبت تقريراً عن تاريخ هذا البناء استعنت على إنجازه بعدد من المصادر الرسميّة، أرشيف الدائرة التراثيّة ومطبوعات قديمة قبل أن أبدأ بالخطوة التالية: زيارة المكان نفسه، تصويره من الداخل والكتابة عن جماليّات المعمار الداخليّ، ما حدث أنّني لم ألتقط صوراً ولم أكتب عن جماليّات القصر من الداخل، فقد انحرف المشروع كلّه إلى منطقة أخرى، مغامرة سرديّة تعاضد الخيال والحقيقة لنسج مبناها.

وفي ذلك اليوم كنت قد وصلت إلى الشارع الذي يقع فيه المنزل، لم أكن أعرف أنّه قد تحوّل إلى مقرٍّ للقوات الأميركيّة. لم أستطع -بالطبع- تجاوز القواطع الكونكريتيّة التي وُضعت في أول الشارع؛ انتظرت بعض الوقت بعد أن فشلتْ محاولاتي في إقناع الجنود الأميركيّين بمهمتي. كانت عيونهم مليئة بالريبة والعنجهيّة: «لا يمكن!» قالها أحدهم وكررها بنبرة جادة غير قابلة للتخفيف. انتظرت بعض الوقت على أمل أن يغيّروا رأيهم. اقترح زميلي المصوِّر أن يلتقط صوراً للمكان من بعيد، أن يلتقط صوراً للواجهة وأكتفي بالتقرير الذي أعددته، وأن أضيف في نهاية تقريري أنّ المنزل تحوّل إلى مقرٍّ لقوات الاحتلال. أثناء نقاشنا خرج رجل من منزله المجاور للمبنى الذي جئنا من أجله، عبر الحواجز، بعد أن أظهر ورقةً بمثابة تصريح كما أظنّ، هويّة تسمح له بالدخول والخروج كونه من سكّان الشارع. حينها لمعت في رأسي فكرة أن آخذ منه شهادة مختصرة -

على الأقل- حول ما يعرفه عن جيرانه، عن الذين شغلوا المكان قبل الاحتلال، شرحت له مهمتي وأظهرت له هويّتي الصحافيّة، كان شخصاً متفهِّماً، بل ملهماً في الحقيقة، حكى لي كلّ شيء، ليس هذا وحسب، بل وعدني بما هو أهم، الشيء الذي جعل رحلة إعداد تقرير صحفيّ تتحوّل إلى عمل إبداعيّ.

التقينا في مقهى في أوّل الكرادة، قال:

«في بداية عام 2003، قبل الحرب بفترة قصيرة، وفي واحدة من الأمسيات العاديّة، الحفلات التي كان يشهدها المنزل الذي تشغله سيدة عرفتُ في ما بعد أنّ اسمها «نرجس»، جرت حادثة لم يكن سهلاً معرفة تفاصيلها، حادثة غامضة أدّتْ إلى هجره عدّة أشهر قبل أن يحتله الأميركان. في الحقيقة أنا رجل لا علاقة لي بما يحيط بي، عشت في منزلي سنوات عديدة كنت فيها وحيداً بعد وفاة زوجتي، لم أكن مستعدّاً للتفريط ببيتي والانتقال إلى مكان آخر، وكما رأيت، الحي هادئ، يصلح للقراءة والراحة، حي مثاليّ للابتعاد عن المشاكل، ما عدا بعض الإزعاج بسبب الحفلات خلال السنتين الأخيرتين، أو القلق الذي ظهر أخيراً بعد أن صار مقرّاً للأميركان. لقد تقاعدت من عملي أستاذاً لمادّة التاريخ، ولا أخرج كثيراً من البيت، لا رغبة لي في فعل ذلك إلّا للتسوق أو زيارة أحد الأقرباء. العزلة في هذا الوقت أفضل ما يقوم به المرء، إنّها تجنبنا الوقوع في منطقة سوء الفهم وسوء النوايا، وما ينتج عن ذلك من ردود أفعال عادةً ما تقلب الموازين أثناء التحولات الكبيرة».

وقد بنيتُ -أنا الكاتب- هذه الحكاية التي يختلط فيها بعض الخيال بالحقيقة، بنيتُها على تلك اللحظة التي حصلت فيها الحادثة، عندما سمعت القصة الذي سردها الرجل الملهم الذي قدّم لي خدمة كبيرة، قدّم دفاتر متنوِّعة منها يوميّات مكتوبة بخطّ اليد، دفتر فيه أرقام تليفونات وعناوين الموظفين الذين كانوا يعملون في المنزل، دفتر آخر فيه حسابات وأرقام، ملايين دون تفاصيل، ودفتر فيه عناوين بيوت ومحلات وأسماء منها عبارة عن حروف وحسب، قال:

«قبل أن تشغله القوات الأميركيّة بأيام، جاء عمّال ترافقهم الشرطة، أخرجوا الأثاث كلّه ووضعوه في سيارتين كبيرتين، لكنّهم تركوا حاوية صغيرة فيها أشياء متنوِّعة ورحلوا، ثمّ عادوا إليها في ما بعد. خرجتُ صباح اليوم التالي لأمر يخصني، كان الشارع فارغًا من الناس، هو هكذا دائمًا قبل مجيء الأميركان. ألقيت نظرة على الحاوية التي كانت ممتلئة بما لا قيمة له على ما يبدو، حتى إنّ بعض ما فيها سقط على الأرض ولم يهتم به أحد، لكنّني لمحتُ بعض الكتب المتناثرة، هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أقوم بفعلٍ لم أقم بفعله من قبل، خطوت في اتجاه الحاوية، قلّبت الكتب، لم تكن كثيرة على أيّ حال، ولم يكن فيها -كذلك- ما هو مهم، لكنّني وجدت دفاتر، يوميّات وأشياء أخرى؛ فاحتفظت بها، فضول لا أكثر ولا أقلّ، خاصة أنّ لا تواصل من أيّ نوع كان قد حدث بيني وبين جيراني، بل إنّ الغموض أحاط بوجودهم طوال تلك السنوات، لا أعرف عنهم شيئًا سوى تلك الحفلات الدائمة التي يقيمونها، والسيارات التي

أسمع صوت عجلاتها -أحيانـًا- وهي تمرّ من الشارع مساءً. لا أدري إذا كانت هذه الدفاتر تصلح مادّةً مضافةً عندما يتعلّق الأمر بكتابة التقرير الذي تنوي كتابته، لقد قرأتها، ويمكن لك أن تطّلع عليها أيضـًا لو أحببت، ولا أعتقد أنّك ستحتاج إلى ذكر الأسماء الحقيقيّة، يمكنك أن تكتفي بالأحرف الأولى. على كلّ حال، أطنان من الوثائق المهمة صارت في يد الجميع بعد الاحتلال، وثائق المؤسَّسات الأمنيّة وغيرها، سياسيّة وثقافيّة ومشاريع!».

وحين قررت كتابة هذه الرواية، كان في مقدوري -حسب التصوُّر الذي وضعته للمبنى السرديّ- أن أعتمد على المدوّنات الشخصيّة التي تضمّنتها الدفاتر، لكنّني وظّفتُ مخيّلتي في بعض المناطق البسيطة من أجل استكمال دائرة الحكاية. إنّها -في النهاية- عمل أدبيّ لا أريد منه أن يقول شيئـًا يتعلّق بترميم ما تهدّم من العالم، كتابة ليست عن المهزلة أو المأساة، بل عن تلك المسافة الغامضة التي نحيا فيها ولا نعرف مصائرنا، فالمنزل الذي جرت فيه الوقائع والشخصيّات التي ستشغل مساحة السرد كلّها خليطٌ من سِيَر الأبطال الشخصيّة والقليل من خيالي -أنا الكاتب-، إلّا أنّ الخيال -حتى الخيال- مهما تورّط في خلق عوالم غرائبيّة، يبقى مشدوداً إلى خيط الواقع. وما هو مهم في هذه الدفاتر أيضـًا، أحدها الذي يحوي عناوين العاملين في القصر أثناء الواقعة، وكان البحث عنهم مغريـًا بالنسبة إليّ. لقد استغرق الأمر وقتـًا وإكراهاتٍ كثيرة، لكنّني أقنعت نفسي بأنّ ما أقوم به يستحق الجهد، هكذا وصلتُ إلى الحارس، حارس القصر،

شرحت له رغبتي في كتابة رواية، قلت إنّ اسمه لن يكون صريحاً فيها بالطبع، ولا اسم أيّ أحد من الموظفين الآخرين، وإنّني لن أشير إلى موقع القصر حتى، ولن يستطيع القارئ في النهاية تحديد مكانه لأنّ المباني والقصور التي احتلّتْها القوات الأميركيّة كثيرة. لقد كان صعباً جداً، وافق بعد محاولات عديدة رافقها الكثير من التطمين، لكنّني اكتشفت أنّ الرجل كان يحتاج فعلاً إلى أن يحكي، ليطرد ما يشبه الألم من قلبه دون أن يكون هو نفسه، تفهّمت مقاصده، إذ نرغب في أن يحكي الآخرون عن حياتنا، عن رغباتتا المحبوسة خلف حجاب وعن أسرارنا، حتى لو ظهر بعضها مخزياً، لكنّنا نريد له ظهوراً آمناً، نريد أن نكون خارج الحلبة، في موضع المتفرِّج تحديداً. وهذه الرغبة لا تتحقق إلّا إذا تحوّلنا إلى شخصيّات في القصص، لا يُسَلَّط علينا الضوءُ فيها عند عرض حياتنا المخفيّة، في النهاية سوف نحصل على نسخة أخرى منّا، منفصلة عنّا ومتصلة بنا في الوقت نفسه، كأنّها مرآة نرى في عمقها ما جرى لنا من وقائع، الأشياء التي لم نستطع الحديث عنها، لهذا السبب ربّما، يعلّق الكثير منّا أهميّة كبيرة على أن يكتبَ شخصٌ حكايتنا الشخصيّة، لتكون مرآة نرى فيها وجوهنا، إنّها رغبة في التخلص من الأقنعة. حدثني عن كلّ شيء فجعل مهمتي أسهل، خاصة بعد أن قرأت دفتر يوميّات «نرجس» سيدة القصر، والطباخة، مستكملاً دائرة الحكاية بنسيج من خيوط المخيِّلة، لكنّه اقترح عليّ الذهاب إلى بيت «سعيد» والتحدّث مع أمه، وحسب رأي «جبار» إنّ الأمر يستحقّ التعب والمحاولة، إذ إنّ لـ«سعيد»

دوراً كبيراً في الحادثة التي جرت ليلتها، لكنّ الصعوبة -بالنسبة إليّ- ظهرت عندما أردت إعداد تقرير عن «الحاجّ رافع» زوج «نرجس». لقد كلّفني الأمر جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، ساعدني الكثير من الأصدقاء منهم صحفيّون بذلوا جهداً في نبش أرشيف الصحف على مدى عقود، أرسلوا لي صوراً، وثائق متنوِّعة ورسائل قصيرة لا أعرف مصادرها، لكنّ المعلومات المهمة والعاديّة، الصغيرة والكبيرة وصلتني تباعاً، حتى قلت لنفسي في أحد الأيام إنّ المادة التي توفرت لديّ الآن كافية، لا سيّما التفاصيل المتعلِّقة بمعمار المنزل الداخليّ، إذ وردت تفاصيل كثيرة في مدوّنتَي «نرجس» و«سونا» بخصوص ذلك، ويبدو أنّ تغييرات حدثت خلال عشرات السنين باختلاف سكان المنزل، ديكورات ذات طبيعة لها علاقة بالمزاج الإنجليزيّ، ثمّ تعبيرات معماريّة لها علاقة بالعمارة العربيّة الإسلاميّة، وأجزاء أخرى ظهرت فيها الحداثة، لكنّ زوايا أخرى -كما ظهر في الوصف- لم تكن تخلو من الفوضى وانعدام الذوق، وفي النهاية صغت ما حصلتُ عليه، على النحو الذي لا أخرج فيه عن مضمون المدوّنات، ما عدا -بالطبع- بعض الأشياء منها، مثلاً شخصيّة «عباس» التي احتجت لتقديمها إلى توظيف جرعة بسيطة من المخيِّلة.

تقرير عن القصر

تقدِّم لنا النظرة إلى الوراء مشهداً واسعًا، مساحةً تنتشر فيها صور الوقائع، السيّئ منها والجميل، صور غيوم الدخان أو أضواء الاحتفالات المتلألئة، الأراضي البور التي هجرها المزارعون أو البساتين التي تتدلّى الثمار من أغصان أشجارها، وجوه الأوغاد، الأبطال أو الضحايا. في النظرة إلى الوراء نرى الحروب التي أكلت في أحد الأيّام الأخضر واليابس ومحت أثر السلام. هذه النظرة هي التاريخ، النظرة المتواطئة لاستعادة رائحة العابر الذي لا يمكن استعادته إلّا من خلال توثيقه، وهذا المنزل الذي يصفونه بـ«القصر» هو ابن هذه النظرة. لقد بدأ بناؤه عام 1921، واستُكمِل بعد سنوات، وكانت قد ظهرت في حديقته -قبل كلّ شيء- نبتة صبّار صغيرة، يقال إنّها موجودة أصلاً قبل التشييد، لكنّها اختفت بعض الوقت فظهرت ثانيةً. على أيّ حال، لم يهتمّ بها ساكنُ المنزلِ الأول، الرجل البريطانيّ الذي كان يعمل في التنقيب عن الآثار، أو ربّما كان ضابط استخبارات كما ظهرت -في ما بعد- بعض الإشاعات بخصوص سيرته، أو ربّما كان مؤلِّف كتب، رغم أنّ لا أحد قرأ له كتابًا، أو طبيبًا من أوائل مَن عملوا في المستشفى الذي كان قد افتُتِح في منتصف العشرينيّات، أو مهندسًا بعد أن شاهده الكثيرون وهو يشرف مباشرة على مراحل البناء. مهما كان عمله فسيرة هذا الرجل لا تخلو من الريبة، فقد

حصلتُ على أثرٍ لأقاويل تتعلَّق بتعاونه مع آخرين لتهريب الآثار إلى أوروبا. وكانت في حوزته وثائق مهمة، وفي رأسه تكدّست معلومات ظلّت أسراراً مدفونةً في خزانة لا أحد يعرف أين مفتاحها. عاش هذا الرجل عشرين عاماً تقريباً في بغداد، احتفظ خلالها بعلاقات قويّة منها قربُه من الـ«مس بيل» والحاكم العسكريّ، ثمّ رجالات الدولة العراقيّة من مثقّفين، موسيقيّين، شعراء، شيوخ عشائر وحتى راقصات، وربّما عاهرات محلّيّات أو من خارج البلاد ولصوص، منهم شخص عُرِف في ما بعد أنّه المسؤول عن سرقة أموال التبرّعات التي جُمِعَت لتخليد ذكرى رئيس الوزراء المنتحر، الحادثة التي أحاطت بها الشبهات. ظهر اسم هذا الرجل في ما بعد في وثائق بريطانيّة لا تخلو من الإثارة. على كلّ حال، كبر الرجل وساءت صحته، ولم يعد وجوده مرغوباً من قِبَل أطراف عديدة. واجه كراهية من جهات كانت تربطه بهم مصالح مشتركة، ففضّل الرحيل لكي يموت في إنجلترا، ويُدفن في مقابر العائلة اتّقاءً لمعاناة نقل جثمانه إلى لندن، خاصة أنّ الحرب الثانية كانت مشتعلة، لهذا السبب تحديداً، أو ربّما لأسباب أخرى، ترك المنزل وغادر عام 1941. بعد سنة من هذا التاريخ نشر مقالاً مطوَّلاً في مجلة مختصّة بالعمارة والأنثروبولوجيا والتاريخ، تحدّث فيه عن مراحل البناء والديكور الداخليّ الذي استُلهِمَ تصميمه من روح العمارة في البيت الإنجليزيّ، كما تحدّث عن الصعوبات التي واجهت مراحل التشييد، عن المكتبة الكبيرة التي تمّ نقل ثلاثة أرباعها إلى بيت القنصل البريطانيّ في بغداد، والمتحف الذي شُيِّدَت

بنايته قرب القصر، عن علاقاته المتشعِّبة بشيوخ عشائر وعسكريّين وحتى رجال قبائل بدويّة وموظَّفين كبار. وفي فصل آخر من المقال الطويل تحدّث عن بعض الشخصيّات التي كان يستقبلها في القصر دون ذِكر شخصيّات أخرى ظهرت إشارات تدلّ على أسمائهم في وثائق بريطانيّة رسميّة، أفرج عنها في ما بعد، تؤكّد هذه الوثائق أنّهم كانوا يتردّدون بالفعل إلى المنزل. رجال كان لهم تأثير في صناعة الأحداث الأساسيّة في العراق وحتى في الدول المجاورة. عسكر وجواسيس، فنّانون وأدباء، وقبل موته بشهرين تقريباً كتب مقالين آخرَين لم ينشرا لأنّهما -حسب توصيف رئيس تحرير المجلة- ينطويان على معلومات سرّيّة جداً وخطيرة، لكنّ ابنته -بعد أربعين سنة- جمعتهما في كتاب صدر عن دار نشر صغيرة. يتحدّث في المقال الأول عن ملابسات موت «الملك غازي»، وفيه شهادات مثيرة تخالف ما ذكرته المدوَّنة الرسميّة عن الحادث، أشياء تتعلّق برغبة «غازي» في التخلص من الإنجليز أو شيء من هذا القبيل، وليس لأنّ الملك كان مدمناً على الخمر، والحادث كان بسبب ثمالته وقتها. وفي المقال الثاني كتب تفاصيل عن الأشهر الأخيرة له في بغداد، عن الاضطرابات السياسيّة وعن مرافقته مجموعة من المراسلين الحربيّين، كشف فيه أسراراً تتعلّق بأحداث شباط عام 1941، عندما بدأت المواجهات بين ضباط من الجيش، قال إنّها مسنودة من الألمان، وبين الحكومة، المواجهات التي استمرت حتى الثاني من أيار والتي أعقبها تشكيل حكومة «الكيلاني» قبل أن تسيطر القوات البريطانيّة على

الموقف من خلال قصفها بغداد وبعض القواعد بالطائرات. سرد في المقال أيضاً كيف أحاطت قطعات عسكريّة القصر الملكيّ، كيف أُجبِرَ رئيس الوزراء على الاستقالة وكيف بسط العديد من ضباط الجيش نفوذهم على بغداد عندما هرب خصومهم إلى الأردن، ومنهم رئيس الوزراء «نوري السعيد». تحدّث عن خطة هروب الأمير «عبد الإله» إلى البصرة قبل أن تقوم الإدارة الملكيّة البريطانيّة بتهريبه إلى الأردن بواسطة سفينة حربيّة (مدمّرة)، وما هو مهم في هذا الكتاب تأكيد أنّ الكثير من العراقيّين كانوا يكرهون الوجود البريطانيّ، على الرغم من وجود آخرين ممّن لديهم الحماسة لأن يكون البلد مرتبطاً سياسيّاً وثقافيّاً واقتصاديّاً باسم الإمبراطوريّة التي لا تغيب الشمس عن مستعمراتها.

سكن القصر -فترةً قصيرةً- ضابط من الضباط الذين حاربوا البريطانيّين، قبل أن يشغله شخص آخر بعد عودة الملك. يتحدّث الفصل الأخير من الكتاب عن فشل الانقلاب وانهيار حكومة الدفاع الوطنيّ إثر سيطرة القوات البريطانيّة، وعن لجوء أعضاء الحكومة إلى إيران ثمّ القبض عليهم من قِبَل البريطانيّين ونقلهم إلى بغداد مخفورين مكبَّلي الأرجل والأيدي، إذ حُكِم بالإعدام على «الكيلاني» وأربعة من الضباط.

انتقلتْ ملكيّة المنزل إلى شخصٍ تربطه علاقات وثيقة بالقصر الملكيّ، من عائلة أرستقراطيّة درس العديد من أفرادها في فرنسا وإنجلترا، لكنّهم عادوا قبل الحرب. رجل كان قريباً من الوصي الأمير «عبد الإله»، ويقال إنّه لم يخصّص البيتَ للعائلة عندما قرّر السكن فيه،

بل خصّصه للسهر، المتعة، الغناء وبعض النشاطات الثقافيّة والسياسيّة ربّما، من أمسيات شعر ومحاضرات واجتماعات وغيرها، وقد أشيع أنّه كان يستقبل فيه بين فترة وأخرى مغنّين عرب وموسيقيّين إنجليز وأتراك وإيرانيّين، خاصّة بعد انتهاء الحرب، لكنّه بعد سنوات، إثر مقتل ابنه في مظاهرات عام 1948، مرّ الرجل بأزمة نفسيّة كبيرة وتبدّلت مواقفه، حتى إنّه انضم في آخر أيامه إلى تنظيمات الحزب الشيوعيّ العراقيّ، ثمّ هجر السياسة بعد فترة قصيرة وترك البيت عدّة سنوات حتى نمت الأعشاب على عتباته وارتفعت لتصل أعلى المقابض الذهبيّة، وارتفعت في الداخل حتى لم يعد أحد يشاهد نوافذ الطابق الأول، وكان ابن هذا الرجل قد ترك دراسة الهندسة في إنجلترا وعاد إلى بغداد لينخرط في العمل السياسيّ، وكان له مواقف راديكاليّة ضدّ البريطانيّين. كانت الأحداث مشتعلة وقتها بسبب محاولة الملك والحكومة العراقيّة تجديد اتفاقيّة عام 1930، التي رفضها الكثير من العراقيّين كما هو واضح من خلال انطلاق المظاهرات. تراكمت أحداث كثيرة منها إعدامات واعتقالات قبل هذا، خاصّة إعدام أمين الحزب الشيوعيّ، لكنّ شرارة المظاهرات انطلقت عندما نشرت الصحف نصوص معاهدة «بورتسموث» التي جاء في مضمونها أنّ العراق يسمح للجيوش البريطانيّة بدخول أراضيه كلّما اشتبكت في حرب في الشرق الأوسط، وأن يمدّ العراق هذه الجيوش بالتسهيلات والمساعدات كلّها في أراضيه ومياهه وأجوائه.

وقبل الإطاحة بالملكيّة كانت التجمّعات العشوائيّة قد أحاطت القصر، فقد أسّس الفلاحون المهاجرون من أرياف الجنوب ومناطق الفرات الأوسط لهم أحياء شُيِّدَت بيوتها من القصب والطين وحتى الزنك في الجهتين الشرقيّة والغربيّة، قبل أن توزَّع عليهم الأراضي لبناء منازل لهم في أطراف المدينة. وقتها اشترى القصرَ رجلٌ إقطاعيّ من سلالة شيوخ أثرياء، له نشاط سياسيّ وعلاقات في البرلمان وأسكنَ فيه زوجته البغداديّة التي رفضت الذهاب معه إلى منزله الكبير هناك، ويبدو أنّ الأمر يتعلّق بخطة للاستيلاء على القصر، فالنظرة الطبقيّة استكثرت على رجل ريفيّ أن يشغله، على الرغم من كونه ثريّـًا وشيخـًا. كانت زوجة هذا الإقطاعيّ الثريّ أرملةَ رجل من أصفهان، رحل إلى إيران ومات -كما قيل- حسرةً، إذ خسر أمواله وتجارته وعقاراته في ظروف غامضة، هذا ما وصلني رغم أنّ المعلومات لا تبدو دقيقة. المهم أنّ عائلتها أيضـًا، لم يبق من ثرائها شيء سوى السمعة. قالت للشيخ إنّها لا تفضل العيش مع نساء أخريات -زوجاته الثلاثة، والحقيقة أنّها فضلت أن لا تكون بعيدة عن أهلها وحياتها التي كانت تتسم بكونها ذات طبيعة أرستقراطيّة منفتحة، هكذا وصلتني المعلومات، وقد كتب الشيخ القصر باسمها حسب الشرط بينهما، بالإضافة إلى أنّه أعطى أباها مالاً ومساحةً من أرض زراعيّة. كانت صفقة في الواقع وليس زواجـًا، لكنّ الشيخ كان مستعدّاً لدفع أكثر من ذلك، فقد شغف بها حبّـًا كما يقولون، رآها في حفلة حضرها بعض السياسيّين؛ فطلب يدها في اليوم نفسه عن طريق شخص آخر. على كلّ

حال، مات الشيخ بعد عامين من الزواج، ولم تخلُ تلك الفترة من المشاكل، حتى إنّه قضى آخر أيامه في الديوانيّة، ولم تعلم الزوجة بموته إلّا في ما بعد. حدث ذلك بعد الثورة على الملكيّة بمدّة، يقولون إنّه مات كمداً لأنّ امرأة ضحكت عليه، وكان قد سمع مثل هذا الكلام من مقرّبين له، بعض التفسيرات تقول إنّ ميتته لم تكن طبيعيّة على أيّ حال، هناك رائحة مؤامرة، سببها خيانة زوجيّة وأشياء أخرى لم يؤكِّدها أحد، منها إصابته بنوبة قلبيّة بعد إشاعات تقول إنّ رئيس الجمهوريّة سوف يصدر قانوناً للإصلاح الزراعيّ يتضمّن مصادرة الجزء الأكبر من أراضي الإقطاعيّين لصالح الفلاحين، والحقيقة أنّ هذا التفسير ينطوي على بعض الحقيقة، فالقرار صدر فعلاً بعد موت الشيخ بسنة ونصف السنة.

باعت الزوجة البغداديّة أحدَ ضباط الجيش -المقرّبين جداً من أول رئيس جمهوريّة- القصرَ. كان هذا الضابط متزوجاً، أو أنّه تزوج في ما بعد راقصةً مصريّة، يقولون إنّها جاسوسة في الحقيقة، تربطها علاقات بالعديد من قادة حركة الضباط الأحرار في مصر. قُتل الضابط بعد سنوات في أحداث سياسيّة على الأغلب، أثناء الصراع على السلطة بين القوميّين والبعثيّين والشيوعيّين، في ذلك الوقت الذي كان فيه النزال على الحلبة، وكان فيه من الغضب والحماسة ما أنتج عنفاً يصل إلى حدّ كسر عظم الخصم وطحنه حتى يتحوّل إلى غبار ينثرونه في الهواء. عادت الراقصة زوجة الضابط إلى بلدها ولم تهتمّ بالمنزل الذي ظلّ مهجوراً فترة، قبل أن تضع دائرة العقارات يدها عليه بقرار قطعيّ، اشتراه منها في ما بعد -بثمن

رمزيّ- رجلٌ قيل إنّه زوجُ أخت مدير الأمن في ذلك الوقت قبل نهاية الستينيّات، ثمّ اشتراه رجل كرديّ أو من أصول إيرانيّة، أو أنّه لا هذا ولا ذاك، بل مجرد إشاعات يقصد بها الاستيلاء على البيت، والدليل أنّ طبيعة هذه الإشاعات ظهرت في ما بعد، أي بعد سنوات، أثناء حملة التسفير التي طالت الكرد الفيلية والعراقيّين من أصول إيرانيّة قبل وقت قصير من اشتعال حرب السنوات الثمان، لكنّ الرجل -عندما كان يشغله- واصل استقبال ضيوف أجانب فيه، ولا أحد يعرف إن كان ضابط مخابرات أو جاسوساً أو تاجراً مستقلّاً، لكنّ الإشاعات انتشرت حول ضيوفه، واختفى الرجل في منتصف السبعينيّات بعد الاتفاق بين العراق وإيران على إنهاء حرب الشمال.

انتقلت ملكيّته إلى رجل من الحزب الحاكم، لكنّه أُعدِم بعد محاكَمة شهيرة تداول الناس تفاصيلها من خلال فيلم مسجَّل، ثمّ أراد أن يشتريه رجل دين شيعيّ، حدث ذلك بعد الثورة الإيرانيّة، لكنّه لم يسكنه لأنّه مات في السجن بعد اعتقاله بتهمة أنّه كان مسؤولاً كبيراً في حزب دينيّ يعارض السلطة، وكان الرجل قد شارك في مظاهرة ضدّ الحكومة بعد إعدام مرجع دين شيعيّ معروف. كان ذلك في مطلع الثمانينيّات، استولت الدولة عليه، ثمّ امتلكه قائد فيلق أيام الحرب العراقيّة الإيرانيّة، أُعدِم هو الآخر قبل نهاية الحرب بتهمة التخطيط لانقلاب عسكريّ. في عام 1992 تحوّل البيت إلى ما يشبه الملهى الخاصّ جداً، يديره رجل من كركوك، لكنّه أُقفِل أثناء الحملة الإيمانيّة التي دعا إليها رئيس الجمهوريّة، ظلّ

كذلك فترة قبل أن يشغله شيخ فرقة صوفيّة كانت تقيم فيه الأذكار، وهذا غير مؤكَّد، بل قيل أيضاً إنّه مركز اجتماعات لجماعة من السلفيّين الوهابيّين المدعومين من جهات خارجيّة، هذه بالطبع مفارقة! تباين في نقل الخبر، فالفرقتان عبارة عن خطين متوازيين بينهما مسافة، فكيف تم استدعاء القرائن لنسج إشاعاتين متضاربتَين؟ ربّما تناوب الشخصان المسؤولان عن الفرقتين السكن فيه.

لم يحدث في القصر تغيير كبير من الداخل باستثناء لمسات بسيطة غير مؤثِّرة في جوهر معماره وديكوره، إشارات تعبّر عن طبيعة كلّ ساكن جديد، لكنّ الواجهة كانت قد تعرّضت لعمليّات تغيير عديدة، ترميم وصباغة على وجه التحديد، فالقصر في كلّ مرة يظهر بلون حسب تصوّر المالك وذائقته، حتى اشتراه الحاج رافع أخيراً، وهو شخص سوف أبحث عن معلومات بخصوص هويّته الحقيقيّة أو طبيعة عمله، ما أعرفه أنّه قريبُ الرئيس. وكان القصر قد تعرّض للتهديد المباشر بالحرق في عام 1991، كان المهاجمون على وشك الوصول وقتل الحاج ومن معه لأسباب كثيرة، انتقاميّة وثأريّة، يتعلّق معظمها بوظيفة «الحاج رافع»، إذ كان رجل سلطة مهمّاً، ولا بدّ أنّه فعل كثير من الأشياء التي تستوجب الانتقام، لكنّ حرسه أحاطوا بالحيّ، شكّلوا سوراً فمنعوا تسلُّلَ أيٍّ من المهاجمين، استطاع المهاجمون اختراق الحزام الأمنيّ، لكنّ العمليّة انتهت ببعض الأضرار الماديّة التي اقتصرت على الأسوار. كانت هذه الحادثة مفصليّة في تاريخ القصر، قُتِل الكثير من المهاجمين وقتها، اعتُقِل

العديد منهم وهرب آخرون. على كلّ حال، أسكنَ «الحاج رافع» زوجتَه القصرَ في ما بعد، المرأة التي تعرّف عليها، أحبها، تزوجها وسافر معها إلى بيروت قبل أن يعودا ويسكنا القصر معاً. عاشا فترة، أشهر قليلة قبل أن يهجرها مضطرّاً على ما يبدو، ويتحوّل البيت إلى موضع مضاء بشكل احتفاليّ في المساء، لكنّه غامض رغم ذلك. فيه حارس، طبّاخة، منظِّفة، سائق خاصّ وحدائقيّ يأتي يومين في الأسبوع ليهتمّ بالنباتات والأشجار والأزهار، الرجل الذي لم يستطع منع نفسه من النظر طويلاً إلى نبتة الصبّار الكبيرة متشابكة الفروع، النبتة التي لا تحتاج إلى رعاية، كما لو أنّها كائن مكتفٍ بذاته، شيطان أو ملاك، لم يحاول أيٌّ من سكان القصر منذ تشييده أن يقترب منها، يعترض على وجودها أو يهتم بها على الأقل، كما لو أنّ الجميع اتفقوا على تركها شاهداً على العواصف التي مرت من هنا. على كلّ حال، حدثت في ليلة جريمة بمستوى فضيحة في القصر، كان ذلك قبل فترة وجيزة من دخول الدبابات الأميركيّة إلى بغداد، ظلّ مهجوراً فترةً حتى صار مقرّاً رسميّاً للمارينز، اتخذوه لإدارة العمليّات العسكريّة لقوات الاحتلال، قبل أن يُهجر مرة أخرى عام 2005، أعقب ذلك صدور قرار من المحكمة بتسليمه امرأة ادّعت أنّ القصر ملك لها قبل أن يحتلّه الأميركان، وقد قدّمت لإثبات ذلك وثائق رسميّة أقنعت القاضي.

الخزانة المفتوحة

في أحد الأيام، قرأت كتاباً لا أعرف كيف وصل إليّ، كان عنوانه «بغداد كما عرفتها» لكاتب اسمه «أمين المميز»، في الكتاب الكثير من قصص (بنات الهوى) -كما يسمّيهنّ الكاتب. مررتُ على صفحاته واحدة بعد أخرى، لكنّني لم أجد فيه حكاية واحدة تشبه حكايتي، لم أرَ شبهاً لي في أشكال أو طباع أيٍّ من النساء المذكورات، راقصات ومغنّيات ملاهٍ وقحاب، لم أجد أيّ رابط بيني وبينهنّ. قرأت كتاباً آخر كان في يد شاب من رواد أحد المنازل التي عشت فيها، دار «سميرة البصراويّة» بالتحديد، وكان الشاب طالباً جامعيّاً كما أظنّ، نسيه ربّما، أو تركه لي لسبب لا أعرفه، كتاب صغير عنوانه «منازل الفتنة في بغداد»، لم أجد نفسي فيه أيضاً، كأنّني نوع نبات فريد لا علاقة له بأيّ نوع آخر. قرأت كتب متنوِّعة خلال حياتي، ليست كثيرة على أيّ حال، لكن لم يترك أيّ كتاب أثراً في نفسي، قرأت لـ«منفلوطي»، «خليل جبران»، «ميخائيل نعيمة» وشاعر اسمه «حسين مردان» أظنّ من كلامه أنّه عاشر القحاب كثيراً، لكنّ كاتباً واحداً أثّر فيّ، نسيتُ اسمه، تبدأ القصة عندما تموت أمه، يرسلون إليه برقيّة من دار العجزة حتى يحضر الدفن، أعجبني كثيراً لأنّه لم يبكِ، بل قرأ البرقيّة ببرود وهو يغيّر ملابسه، ركب الباص المتّجه إلى المدينة التي ماتت فيها، أكل في منتصف الطريق كأنّه قرأ خبر وفاتها في جريدة قديمة، خبر لا معنى له، وبعد يومين من الدفن سهر مع بنت ونسي أمه كأنّه لم تمرّ يوماً بحياته. أعجبني لأنّه يشبهني قليلاً، هل أنا شخصيّة غريبة إلى هذا الحد!

فكرت في أحد الأيّام أن أكتب بعض الأشياء، لا أدري، مجرّد رغبة لا أكثر ولا أقلّ، لكنّني بعد أن كتبت ثلاث أو أربع صفحات، شعرت بأنّ الكتابة تسحبني إلى مناطق لم أفكر فيها، كانت الحوادث التي مرت بحياتي تتزاحم في رأسي كأنّني لم أكن أراها بوضوح طوال حياتي، بدأت أكتشف نفسي مع كلّ صفحة أكتبها. كنت في العديد من الليالي أحبس نفْسي داخل غرفتي من أول الليل حتى الفجر، كلّما واصلت الكتابة كانت صورتي تتّضح أكثر كأنّني أرسمها ببطء وكانت الملامح تظهر من خلف الضباب. لم أكتشف في الكتابة نفسي فقط، بل اكتشفت أيضًا العالم الذي يحيط بي، الحوادث القديمة والبشر الذين مروا بي. وفي الصفحات التي كتبتها، وهي كثيرة على ما أظنّ، كانت تظهر أسئلة صعبة، وأخرى صارت الإجابة عنها سهلة جداً، لقد شعرت في لحظة بأنّني يجب أن أتوقف، وأنّ رغبتي في الكتابة نوع من العبث، بل الخطر بشكل أصحّ، لأنّني وجدت نفسي في متاهة. ما جعلني أستمرّ -رغم ذلك- رغبتي في أن أفهم، أفهم كلّ شيء، فما كتبته كلّه في هذا الدفتر، وما سأكتبه طريقةٌ جديدة اكتشفتها للفهم!

عندما غادرت بغداد في ذلك النهار، كنت أشعر بالخوف والضياع كأنّني في متاهة، لكنّني حين وصلت إلى البصرة، وحين دخلت بعد أيام عالم المتعة، اقتنعت بأنّني -كي أعيش- يجب أن لا أهتمّ لشيء وأن لا أخاف، بل يجب أن أبحث عمّا يحميني. سخرت كثيراً من الناس الذين يتصرّفون حيال المشاكل بعصبيّة وحزن. بعد زمن ليس طويلاً على كلّ حال، تحوّلتُ إلى ذئبة! كيف حدث لي ذلك؟ كيف اكتشفت أنّني تحوّلت! لقد كان قلبي فارغًا من أيّ

شيء كأنّه صحراء لا شجرة فيها ولا بئر ولا أثر لأقدام بشر على رمالها، بل كنت أسمع فيه صوت الفراغ، الفراغ الموحش، لكنّني لا أنكر أنّني -في بعض الأوقات- أحسست بشيء يفسد هذا الفراغ، ولم أتردّد في طرده، إنه شعور بالحزن، الحنين أو لا أعرف ما هو على وجه التحديد، ربّما شعور الضائع الذي وجد في ضياعه الطمأنينة، وأيّ إشارة للعودة تشكل خطراً على حياته.

هل أبدو غريبة! نعم، أبدو كذلك، فالرجال الذين مروا بحياتي خلال خمسة وعشرين عاماً أو أكثر أتذكرهم كلّهم، هذا ليس مستحيلاً حتى لو كان عددهم بالمئات، أتذكّرهم لأنّهم كلّهم رجل واحد، حشرة مع اختلاف قليل في الأوصاف. نعم، لم يكن هناك اختلاف بينهم، اختلطوا ببعضهم وأصبحوا كتلة من الطين تشبه كتلة الطين التي يصنعون منها التماثيل، إنّهم تمثال واحد قبيح في الحقيقة، لكن بنسخ كثيرة لا ذوق فيها ولا روح. تعوّدت على روائحهم الكريهة بمرور الوقت. كانت أجسادهم تلتصق بي تماماً كما تلتصق الحشرة المقزّزة بالجلد، يريدون امتصاص ما يطفئ شراهتهم المكبوتة، يتوهّمون أنّهم يفعلونها بفخر ثمّ ينتهون منها برضا، لكنّني لم أمنح أيّاً منهم شيئاً، هذا لأنّني لا أملك شيئاً لأمنحه لهم. لقد مرّوا عليّ كما تمرّ الأشباح، يدفعون أيورتهم بكلّ حماسة وجديّة، يرهزون بشكل مضحك كاشفين مؤخراتهم الكبيرة المترهلة للذباب، يرهزون ويلهثون كأنّهم يقومون بعمل عظيم (الله يطيح حظهم). في النهاية يقذفون سوائلهم في حفرتي الباردة ثمّ يدفعون ويمضون. المرة الوحيدة كانت مع سعد، سعد الخنزير الذي مضغني بسرعة كما لو أنّني ثمرة نارنج، ثقبها، امتصّ السائل ثمّ رماها في الطريق، تقيّأني في الحقيقة وغاب.

منذ ذلك اليوم صارت رائحة القيء -بالنسبة إليّ- رائحة الرجال نفسها، ورائحة الحب نفسها. حتى «الحاج رافع» التصق بي فترة، كان حشرة أخرى كبيرة من سلالة منتفخة، حشرة عاشقة هههه، تخيّلوا حشرة عاشقة! كم هو مضحك هذا الوصف! في النهاية ترك لي هذا البيت التحفة، عاد إلى خيمة الشرف أو ربّما ذهب ليلتصق بقحبة أخرى. «سالم» أيضًا كان حشرة مقزّزة، كان يتيمًا له أربعة أخوة، ماتوا كلّهم ولم يبق منهم سوى أخ واحد اسمه «عباس»، حاول في أحد الأيام اغتصابي، كنت وقتها أعيش مع «سالم» في بيت استأجره بعد زواجنا غير الرسميّ، أقصد زواجنا الذي سمّاه «شرعيًّا». صحيح أنا قحبة، لكنّني لا أقبل أن يغتصبني أحد، خاصّةً عندما يكون هذا (الأحد) أخًا سافلاً لزوجي الذي لا يختلف عنه في الحقيقة. يومها ضربت «عباس» بتحفة أعتز بها، أفعى من الحديد؛ فهرب من البيت، كان دمه يسيل حتى غطى وجهه، لم أخبر «سالم» بمحاولة أخيه الحقير، لقد نزلت عليّ الرحمة يومها فلم أحب أن يكون بينهم كراهية إلى الأبد، أو عراك يدخل أحدهما بسببه السجن ويموت الآخر ربما. المهم أنّ سالم بكى تحت قدميّ، قبّل حتى نعليّ حتى أكون له وحده، وأعده بأن لا أسمح لباقي الحشرات أن تقترب منّي، أن أطردها عن محيطي، وأحاول نسيان تاريخي قبل اليوم الذي نتزوّج فيه. وافقت ولا أعرف صدقًا لماذا وافقت، ربّما لأنّني أردت أن آخذ استراحة من روائح الحشرات الكثيرة الخانقة، استراحة محارب كما يقولون، أن أجرب حياتي خارج بيوت القحاب، لكنّه بعد موافقتي أراد أن يلفّني بعباءة سوداء فلا أظهر إلّا لوجهه القبيح، طلب منّي أن أتحجّب، أصلي وأصوم. عرف الحقير الدِّين

في الحلم، السكّير الحرامي، فزّ فوجد نفسه مؤمنًا كأنّ الملائكة هبطت عليه وأخبرته أنّ الله موجود، عنده جنة ونار، والجنة أجر المؤمنين! وحين رفضتُ أن يضع كفّيه على رقبتي تحوّل إلى ضبع ينهش جسدي ويسمّم بكلامه مزاجي. أمّا ضابط الأمن الذي قيل إنّه قتل «سالم»، كان مجنونًا يتخيّل أنّه يستطيع الحصول على كلّ شيء يريده ما دام لديه مسدَّس، وتحميه من أفعاله الدنيئة دولة متعفّنة مثله، هو لا يختلف بالطبع عن الآخرين، حشرة أخرى شبعت بسرعة. اختفى تاركًا خلفه ورقة زواج شرعيّ رميتها في المراحيض وبلتُ عليها، أمّا جثّة «سالم» فلم يستطع أهله الثأر لها من القاتل. يعتقد «عباس» أنّني تعاونت مع الضابط في قتل أخيه، أقلقني فترةً هذا الأمر، لكنّني - من خلال علاقاتي مع ضباط في الأمن - عرفت أخباره كلّها وتحرّكاته وحتى كلامه. كانت المعلومات تصل إليّ بين فترة وأخرى خلال السنوات التي مضت، أسجلها هنا، فصارت له حكاية كاملة عندي، لكنّني في الفترة الأخيرة لم أعد أهتمّ به، لقد مضى وقت طويل على الحادثة ولم يعد يقلقني أنّه يتّهمني بقتل أخيه، على الرغم من معرفتي أنّه -طوال تلك السنوات- لم يتوقّف عن البحث. جاء الضابط بعد سنوات إلى هنا، سألته عمّا إذا كان هو القاتل فعلاً، لم يجبني، قال إنّه اشتاق إليّ، ويقصد بالطبع اشتياقه إلى ما بين فخذَيّ، وردة الجوري كما وصفه، قلت له: «اطلب أيّ ثقب آخر وسأجلبه لك!». الحقيقة أنّ الحياة لدى هؤلاء البشر عبارة عن خرطوم وثقب، لم يكن هذا الحقير يعنيني، إلى درجة أنّني تخيّلته يخرج من ذاكرتي وهو ينفض عن صورته الغبار، كأنّه لم يمر بشريط حياتي، مجرّد زائر غير مرغوب فيه، يزور بيت دعارة أديره

وأستقبل فيه طالبي المتعة من أصحاب المقامات العالية ههههه! مقامات عالية! المهمّ أنّه ألحّ في تلك المرة على أن ينام معي، قلت له: «سأتصل بفلان» كي أردعه، فجأةً صار وجهه أصفر، تحوّل مباشرة من ضبع إلى جرذ، هرب ولم يعد مثل باقي الجرذان.

كان معظم طالبي المتعة الذين يدخلون إلى هذا البيت أصحاب رتب ومناصب عالية، أحدهم -بمقام عادي مقارنة بغيره- كان برتبة عقيد ركن، عندما يأتي يبقى وقتًا طويلاً، يرقص ساعات، يتذلّل ويقبّل حتى أقدامي. نسي مرة حتى أنواط الشجاعة على الطاولة، الأوسمة التي منحها له الرئيس، تركها ولم يعد. الحقيقة أنّ النوم مع الرجال بحدّ ذاته لا يعنيني، لا شرعًا عن طريق الزواج، ولا في بيوت الدعارة. أقصد أنّني لا أشعر بشيء سوى بالملل، وأحيانًا بالسخرية من حركة الرجال، تضحكني مؤخّراتهم، الشعر في ثقوبهم، لهاثهم، تحوّلهم من بشر لهم سطوة رهيبة على البشر خارج غرفتي، إلى حيوانات بائسة مثيرة للشفقة! أنا إنسانة أعيش وحدي في هذا العالم، نعم وحدي، هذا ما أشعر به. لست منزعجة من هذا الشيء أبدًا، كلّ ما في الأمر أنّني أريد أن أعيش بعيدة عن خزي الحب. الحب، ذلك الخطأ الذي لا يمكن إصلاحه، وهو رائحة القيء نفسها. أمّا الذكريات التي تتعفن في الداخل فهي عارنا الذي أقفلنا عليه. أحكي الآن حتى أطرد رائحة العفن، الأسرار التي يسميها الناس كنوزاً، ويحافظون عليها، وما هي إلّا جثث حشرات في قوقعة، الشيء الذي أشكر الله عليه، إذا كان هناك شيء اسمه «الله»، هو أنّني عاقر. لا أريد أن يخرج من بطني بشر يضطرّون إلى أن يختاروا أن يكونوا شياطينَ أو

ملائكة ويحتارون بين هذين الخيارين. أعتقد أنّه من المناسب لي جداً أن أموت مقطوعةً من شجرة كما يقولون. ما فائدة أن يكون لك أهل بعد موتك؟ في النهاية كلّ واحد منهم يعيش حياته وينساك، ولماذا يتذكرك أصلاً؟ لا أريد أن أظهر من خلال هذا الكلام فيلسوفةً وفاهمة وأنّني اكتشفت الحياة، لا يعجبني أن أوزع النصائح، أنا أحكي لكي أجعل الدود الذي في قلبي يهدأ ويكفّ عن إزعاجي، أو يجد له طريقًا لكي يغادر. صحيح أنّني في بداية عمري كنت أحب القراءة، قرأت كثيراً من الكتب، ليس هذا فقط، كنت أكتب (شخابيط)، أشياء رومانسيّة، يوميّات، ولم أكن أريد أن أحكي عن الخير والشر، ما الخير وما الشر، ما الجيد وما السّيء! سمعت أشياء كثيرة من خلال حديثي مع ناس مختلفين في مستوياتهم الثقافيّة والاجتماعيّة، ضباط وسياسيّين، وحتى مَن هم في مقام وزير، وزير سابق هههه، عرفت في حياتي أشكالاً وألوانًا من البشر. المهمّ أنّني سمعت أنّ في داخل الإنسان عدوانيّة، مشاعر ممكن أن تدمّر كلّ شيء، الحرب مثلاً، الحرب مو تدمير؟

اليوم تحديداً شهيّتي مفتوحة على الكتابة. على كلّ حال، كنت دائمًا أسمع وأنسى، لا أحب أن أحكي، عن ماذا أحكي أصلاً؟ القصص التي تمر بي كلّها متشابهة، ومقابل كلّ حياة مستمرة توجد حياة ثانية مدمّرة. كلّ يوم نأكل اللحم، لحم بقر ولحم خراف ودجاج وسمك، أليست هذه أرواح؟ لست سكرانة ولا حتى مكتئبة، ولا أنا من أولئك الذين يسمّونهم «نباتيّين»، لكنّها الحقيقة. البشر أسوأ المخلوقات، والله حتى الضبع أفضل من البشر. طبعًا أنا أثرثر، لكنّها أشياء تخصني في النهاية مهما حكيت عن آخرين. أكتب لأنّني أشعر بحموضة

في المعدة أحاول تخفيفها. أحيانًا نتفرّج على فيلم، نستمتع عندما يهرب بطل الفيلم من الشرطة ولا يستطيع أحد القبض عليه. المحقق مثلاً، عندما لا يستطيع إثبات التهمة على المجرم نشمت به ونسخر منه. البطل في الحقيقة مجرم، قاتل، لكنّه بطل! يعجبنا لأنّه ذكيّ وقويّ، نتحمّس لهروبه، نكره الشرطة ونحبّ البطل، نحبّ البطل المجرم لأنّه الجزء الحقيقيّ منّا، الجزء الشرير، لكنّه الأهمّ الذي نحاول أن نخفيه كي نظهر متحضّرين في عيون الآخرين وإنسانيّين نحترم القانون وأشياء أخرى، وفي بعض الأحوال التي يكون فيها الطموح كبيراً نحاول أن نظهر ملائكة. أنا شخصيًّا لا أحب الملائكة، لكنّني أيضًا لا أحب الشياطين. يعجبني مشهد أن يجلس الملاك والشيطان معًا حول طاولة ويشربا البيرة، يضحكا ويعترفا بأنّهما من عائلة واحدة ويعيشان في بيت واحد هو «نحن»! عندما نتعرض للخطر، ليس أمامنا إلّا أن نفتح للشرّ القفص لينطلق، ربّما استطعنا إعادته وربّما تركناه حرًّا إلى الأبد. فعلت ذلك في يوم من الأيام، فتحت القفص لذاتي المحبوسة التي وجدت من الضروريّ أن أطلقها، فهذا هو الوقت المناسب، حينها قلت لنفسي: «إمّا حياتي أو حياة الآخر، حتى لو كان الآخر هو أمّي»، لكنّني في وقتٍ ما، كنت على وشك السقوط في الحب، انكمش الشر في داخلي وصار مثل الفأرة. نعم، الحب، إنّه سير على حبل مثلما يفعل المهرِّجون، تفرّجوا على اللحظة التي يحدث فيها فقدان توازن -طبيبيبب! مهرِّجو الحب كلّهم فاشلون، يسقطون في النهاية. أحيانًا أتخيل الحب شخصًا يسقط من مكان عالٍ في بحيرة صغيرة مليئة بالحيّات، أو حفرة عميقة مظلمة، «جبار» الحارس

مثلاً، مسكين فعلاً، أرى الرغبة دائمًا في عينيه، ليس الحب لا، إنّه شيء يشبه الجوع، وهذا الشعور الذي يصيب العينين بالحوَل. كان من الممكن أن أجعله يفعل بي ما يريد، لن تضيف ولن تنقص منّي عدة رهزات قبل أن يقذف السم الذي يتعب قلبه ويعمي عينيه، في النهاية عاملته بصرامة، وضعته عند الخط الذي لن يتسطيع تجاوزه، ولم أمنحه فرصة أن يضع قضيبه المتحفّز دائمًا في حفرتي، أتعرفون لماذا؟ لأنّه حشرة أخرى، مللت من رائحة الحشرات! لكنّني لست محصّنة تمامًا من السقوط رغم حذري، لقد حدث هذا مع شاب دخل مرة بيت الدعارة الذي كنت أديره في البصرة بعد أن ترفّعتُ إلى مستوى قوّادة، كان يرافقه آخر أعرف أباه جيداً، سألته عنه وتحدّثنا قليلاً. كان أبوه ضابط شرطة سابقًا قبل أن يصدأ (سلاحه) ولم يعد صالحًا، كان زبونًا دائمًا عندي، وهو رجل تافه يحب البنات النحيفات الصغيرات، كلّهم في الحقيقة يحبون الصغيرات ولا تفسير عندي في خصوصهم سوى أنّهم مرضى وشواذ. ابن ضابط الشرطة القديم، اختار إحدى البنات، جرّته من قميصه ودخلا إلى إحدى الغرف. الشاب الآخر ظلّ خمس دقائق ينظر إليّ، استعجلته: «يلّه فضنا». قلت له: «يجب أن تختار بسرعة، فلستَ في صالة سينما أو في حديقة حيوانات»، وأفهمته بنبرة جادة أنّني لست قرداً، وأنّ عليه اختيار واحدة من البنات، ويدفع أوّلاً ثمّ يذهب لكي يرهز، يقذف ويمسح، قلت له إنّ المناديل الورقيّة متوفّرة في الغرفة، وإنّ الحمام هناك في الزاوية، فلا بدّ أن يتبوّل الخارج من غرفة العرس، قبل أن يخرج، وإنّ هذا المكان ليس فندقًا، حذّرته من القيام بالحركات الصبيانيّة. يوجد شخص لا بدّ أنّه رآه في الخارج عند الباب، وعليه

في هذه الحالة أن يختار بين تحطيم عظامه أو أن يكون عاقلاً. قال إنّه جاء من أجلي، من أجلي فقط وليس من أجل الجنس، جاء لكي يتمتّع بسحر وجهي، وإنّه رآني يومًا في السوق مع بنت صغيرة، سأل عنّي وأخبره صديقه -هذا الذي دخل الآن- أنّه يعرفني، قلت له إنّني بعيدة عن هذه الرومانسيّات، تركت مشاهدة الأفلام إلّا في حالات خاصّة وترقّيت إلى رتبة أعلى.

عاد مرة ثانية بعد أيام، جاء ولم يختر بتتًا أيضًا. في داخلي شعرت بالرضا، لا أدري لماذا! كان شابًّا وسيمًا ومهذّبًا، وكان جسده حلواً وصوته عذبًا. بالصدفة رأيته في العشار بعد أسبوعين من اللقاء الثاني، ابتسم وبادلته الابتسامة، وقفنا وتكلمنا دقائق، التقينا بعدها مرتين، تمشينا فيهما على الشاطئ وأكلنا سندويشات فلافل. في اللقاء الثالث قال إنّه ذاهب لحضور مسرحيّة في مبنى الجامعة، بالنسبة إليّ، طوال عمري لم أذهب لحضور مسرحيّة، شاهدت بعض المسرحيّات على التلفاز، أحب الضحك، أحب المسرح بشكل عام، لكنّني لم أشاهد ممثلين وجهًا لوجه على الخشبة. دخلنا، وكان الممثلون -كما قال لي- طلاب جامعة، والمسرحيّة -كما شرح لي- سياسيّة، ولا أدري من أين جاءت الجرأة لأولئك الطلاب أن يمثلوها! فيها كلام عن المقاومة السريّة وعن الثورة على الظلم، هكذا سمعت وسألته عندما خرجنا عن المغنّي، الممثل الذي كان يرفع صوته في الشارع -أقصد ديكور الشارع على المسرح- وهو يقول: «الدم يطهّر النفوس، يغسل العار». في الفصل الأخير كانت المدينة تتعرّض للقصف، يخرج الفقراء ويهجمون على المحلات الغالية، محلّات ملابس، أحذية، حلويات، طعام، أثاث وحتى محلّات

الملابس الداخليّة! الشعب يتمرد. القتال يصير في الشوارع، تمامًا كما حدث عام 1991. المهمّ ليس هذا الموضوع، لقد أعجبني الشابّ وشعرت بشيء داخل قلبي وفي جسدي لم أجربه منذ زمن طويل، كان شابًّا مثقّفًا وخفت عليه، قلت له: «أنا أكبر منك بكثير، ومهنتي تعرفها جيداً، لكنّني مقتنعة بحياتي التي تسير بهدوء دون عواصف. أنت طالب وشابّ وسيم، المستقبل أمامك وأعتقد أنّه من الأفضل لك ولي أيضًا أن لا تراني ولا أراك». بصراحة كان بيني وبين الحفرة شعرة! ما أنقذني هو الوشم الذي على زندي الأيمن والحيّة التي على الأيسر. نحن البشر –نساءً ورجالاً– مهما شعرنا بالقوة، نحتاج إلى أن نسقط على كتف، هذا صحيح وعاديّ، لكن على كتف تتحمّل سقوطنا، لأنّ أجسادنا ستكون ثقيلة من شدة التعب، وكتف ذلك الشابّ كانت ضعيفة. دعوني أعترف بأنّني خفت عليه، فلو وضعت رأسي على كتفه حينها لسقطَ وسقطت معه. بعدها لم أجد كتفًا أو أنّني لم أبحث، لم أهتم. الحقيقة أنّني لا أجد الرغبة في شيء سوى في وضع رأسي على وسادتي والنوم بعمق دون أحلام، أريد أن أموت دون أن أترك خلفي أثراً لحلم متعفِّن، أموت واقفة لأنّني أعتقد أنّ سقوطنا على أيّ كتف دليل على ضعفنا. لا أريد أن أضعف، حتى إنّني أشعر أحيانًا بروح عزرائيل تتحرك في داخلي. يقولون إنّ الله خلقه برجلين على الأرض ورأس في السماء، وله أعوان بعدد مَن يموتون، أنا واحدة من أعوان عزرائيل، نعم أنا التي قتلتها، فصلت روحها عن بدنها. صحيح أنّ زمنًا طويلاً مرّ على ذلك، لكنّني أراها، أفزّ في الكثير من الليالي فأراها كأنّها لم تمت، أرى مريم بوجهها القديم نفسه واقفة في وسط الغرفة فأرتجف من

منظرها القاسي لأنّها تظهر كأنّها خرجت للتوّ من القبر. وقتها لا أعرف هل أصابني جنون أم أنّني في كابوس؟ هل في صحو ما أراه أم في نوم؟ لكنّني أرى السكين في يدها، طويلة تلمع في ضوء الفجر، وفي عينيها ضغينة وغضب، عيناها كبيرتان لكنّها مثل حفرتين من تلك التي تخلّفها الصواريخ في الأرض عند سقوطها، تنظر إليّ ويسيل من فمها دم أسود، لسانها أسود طويل جداً يتدلّى خارج فمها وأسنانها سوداء، تقول: «انهضي أيّتها القحبة، انهضي، جاء يوم الحساب». وفي الضوء القليل الداخل من شبّاك الغرفة، أقول لنفسي إنّه الوقت المناسب للهرب قبل أن تبزغ الشمس، ولكن أين سأهرب؟ كيف يهرب الناس من الموت؟ كيف سأهرب من وجهها المرعب وجسدي مخدَّر من الخوف؟ من السكين التي تكاثرت فصارت عشر سكاكين وعشرين ومئة سكين؟ صارت الغرفة كلّها مكوّنة من معدن يلمع بوجهي، أسمع صوت حيّة يهزّ قلبي، صوت حيّة أو صوت مريم، يشغلني في أثناء ذلك شيء واحد: أن أهرب، أريد أن أتلاشى، أغيب عن وجهها الملطَّخ بالدم، عن شعرها المنكوش المخيف، فلا أسمع صوت الحيّة الذي يخرج من عمق حنجرتها، من كلماتها التي تضرب صدري: «قومي، قومي يا بنت الحرام، يا عار، قومي، لقد جاء يوم الحساب!».

خفة الجسد

كان «سعيد» -السائق- في عطلة. طلبت «خلود» -الموظفة المسؤولة عن التنظيف- إجازة لأنّ حالة زوجها الصحيّة سيّئة، وكانت الطباخة اللبنانيّة «سونا» مصابة بالإنفلونزا ونائمة في غرفتها، قبل هذا كانت «نرجس» قد أخبرتني أنّ لا ضيوف مساء ذلك اليوم، وهذا يحدث خلال الأسبوع مرة أو مرتين، وأحيانـًا أربعة أيام دون ضيوف، وعندما يحصل ذلك تسترخي «نرجس» في الصالة، خاصة أول المساء، تسمع الأغاني، تشرب، تدخّن وتُجري بعض المكالمات. في ذلك المساء عزفتُ على الكمان بعض الوقت، ولم أكن قبلها قد أمسكت بآلتي مدّة شهر تقريبـًا. كنت أنظر إليها، أمسك القوس، أحاول أن ألمس به الأوتار، أعبث قليلاً بالمفاتيح كأنّني أضبطها بأصابعي الباردة استعداداً للعزف، لكنّ شيئـًا ما في داخلي يجعلني في النهاية زاهداً لا رغبة لي في تحرير حتى نغمة واحدة، تسيطر عليّ فكرة أنّ الحياة صارت شاحبة ووحشيّة، أقصد الحياة في الخارج، إنّها حياة بائسة بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة، لم تعد صالحة للموسيقى ولا للفنّ ولا حتى للمرح، بل لم تعد صالحة كي يتشبّث بها الإنسان. في السابق كنت أعزف في البيت، أستمتع كثيراً، إنّها متعتي الوحيدة، لم تقل لي زوجتي «هناء» يومـًا ما إنّ عزفي جميل، بل لم تستمع إليه أبداً، تبدو لي متبلّدة العاطفة. الكمان صديقي، لكنّني انقطعت منذ سنوات عن العزف، في القصر أعزف في بعض الأوقات التي تكون فيها «نرجس» خارج البيت، هي لا تعرف أنّني موسيقيّ. الحقيقة

أنّني لست موسيقيّاً، لكنّني أعزف بشكل جيد، ربّما أخبرتْها «سونا» أو «خلود»، لا أدري. لم تظهر منها في أيّ وقت أيُّ إشارة توحي بأنّها عرفت بذلك، ربّما سمعتني ولم تهتمّ أو لم يعجبها عزفي. أكرّر مرة أخرى أنّني لست موسيقيّاً بهذا المعنى المهنيّ والفنيّ، لكنّني -بشهادة أصدقاء- أعزف بشكل مقبول. أحلامي كبيرة، أقصد أنّها كانت كبيرة، فقد حلمتُ بأن أكون عازفاً مشهوراً، ثمّ أخذتني الحرب العراقيّة الإيرانيّة، كلّنا لدينا أحلام مشتعلة، لم نحسب حساباً للزمن، لضغوط الحياة والزواج في ما بعد والأطفال، في النهاية تتحوّل الأحلام إلى رماد! تتحوّل الأحلام فعلاً إلى رماد! أخو «هناء» -مثلاً- مهندس جيد، كانت لديه أحلام وأفكار في فنّ العمارة، يتحدّث دائماً عن الأبنية العالميّة، عن الجمال والفنّ، ولا أفهم الكثير من المصطلحات -أو «الفلسفة» كما تسمّيها «هناء»- في حديثه، لكنّه في النهاية لم يصمّم أو ينفّذ بناية غير عاديّة، بل صمّم منازل بسيطة، ثمّ تورّط بأعمال غشّ، إذ سقطت البناية التي نفّذ تصاميمها وأشرف عليها بعد مضي شهرين على سكن الناس في شققها الثمان، مات بعض السكان، سُجِن مدة شهر واحد، ساءت حالته العقليّة قبل المحاكمة، أصبح مجنوناً بشكل كامل. تحوّل مهندس خلال شهر واحد إلى مجنون! لقد تورّط، هذا ما تقوله «هناء»، أغروه بالمال. على كلّ حال، تتحوّل الأحلام في العراق إلى تفاحة متعفّنة بين يوم وليلة. يمكن أن يصحو تاجر في يوم فلا يجد ثمن السجائر التي يدخّنها. قصص كثيرة مثل هذه لأنّ كلّ شيء هنا يسير دون تنظيم، لأنّ لا أمان في أيّ مكان ولأنّ الجوّ الضبابيّ يمنع رؤية المستقبل. بالنسبة إلى

العزف، تعلّمته دون دراسة أكاديميّة، علّمني صديقي العزف على الكمان وقال إنّ لي أذنـًا موسيقيّة. يسمّيني العديد من الأقرباء «جبار عرنيطة»، الجيران أيضـًا عندما يشاهدون الكمان في يدي وأنا خارج لسهرة مع أصدقاء. هل تعرف ما معنى ذلك؟ إنّهم يصفون الموسيقى بأنّها شيء يشبه الطنين، كلّهم يسمعون الأغاني ما دام الموسيقيّون والمغنّين لا يقربونهم، لكنّهم يسمّون الآلة «عرنيطة» كما يلقبونني «جبار عرنيطة». شيء مزعج أن يتخيّل المرء نفسه ذبابة، المحيط الذي عشت داخله ينظر إلى الفن على أنّه شيء فارغ، ليس الموسيقى فقط، بل الرسم والنحت والمسرح والغناء، هذه الأشياء كلّها فارغة في نظرهم، لكنّني لم أكن أهتمّ كثيراً. عندما قلت لأبي في أحد الأيّام قبل امتحانات الثالث المتوسط: «أريد أن أدخل معهد الفنون الجميلة»، نظر إليّ، ضحك وقال: «هل تريد أن يقول الناس إنّ ابني مائع أو مخنّث؟ لا تُعِدْ هذا الكلام، تريد تصير طبّال!». أتفهّم ردّاً مثل هذا، فنحن من أصول ريفيّة، أقصد من المهاجرين الذين سكنوا بغداد قبل الجمهوريّة بسنوات. لم يتغيّر شيء، العقليّة نفسها، وأبي يعتقد أنّ العزف لعب مثل لعب الأطفال، وفي أحسن الأحوال يعدّه شيئـًا يرافق قتل الوقت، سهرة فيها ناس تعزف وناس تجيء لقتل الملل، على الرغم من أنّه يحب سماع المغنّين الريفيّين، يغنّي أحيانـًا العديد من الأغاني البغداديّة، لكنّه -عندما أصبح الأمر يخصّني- رفض بشكل قاطع أن أكون عازفـًا أو مغنّيـًا، شيء غريب! وعندما بدأت أعزف استعدت الأغاني التي كنت أسمعها، شعرت بأنّني لم أكن أسمع الأغاني، لا، أسمع كلمات، لكن مع الكمان كانت الكلمات تغيب وتتحوّل

إلى كائنات تتجوّل حولي. اكتشفت أنّ بيني وبين الموسيقى حديثًا، بالضبط مثلما لو كنت تحكي أسرارك لصديق. تيقّنت أنّ الإنسان دون موسيقى ينقصه شيء مهمّ في حياته الناقصة أصلاً، أو ربّما يكون أكثر استعداداً ليكون شريراً قاسيًا. يستطيع العازف أن يحكي كلّ شيء، الموسيقى لغة، لغة عظيمة، بالنسبة إليّ أعتقد أنّك لو وجدت إنسانًا يحبك وآلة موسيقيّة تعزف عليها ستكون سعيداً، هما السعادة، تحتمي بهما من الخوف، الموسيقى تحمي من الخوف.

على كلّ حال، غابت الشمس ذلك اليوم عند السادسة، أنرتُ الإضاءة الخارجيّة التي تشمل مصابيح الحديقة وبعض مصابيح الواجهة والكراجات ومصابيح البوابة الأماميّة والخلفيّة. غمر الهدوء القصر، لا يسمع فيه صوت سوى صوت موسيقى لأغنية رومانسيّة تنبعث من الداخل، لكنّ الجو العام لم يكن عاديًّا، بل كان سحريًّا فعلاً. في تلك اللحظات شعرت كما لو أنّني داخل فيلم رومانسيّ أجنبيّ، كأنّ الحديقة ليست الحديقة نفسها، بل غابة، والموسيقى التي أسمعها كأنّني أسمعها أول مرة لأنّها -كما تلقّيتها- كانت تأتي من فوق، أو من مكان بعيد، حتى السماء كأنّها ليست تلك المليئة دائمًا بحبّات الغبار، ليست السماء التي تعبرها العواصف الترابيّة. تركت الكرسيّ المستقرّ دائمًا أمام باب غرفتي، وحين تحرّكتُ كنت أسأل نفسي: أين وضعت بندقيتي؟ أول مرة لم أهتمّ بحملها، ولم تكن لي رغبة في البحث عنها، كنت مدركًا في داخلي أنّ هذا المكان مكاني، ثمّ بدأت جولتي العاديّة حول القصر من الداخل طبعًا، فلم أكن أخرج قطّ إلّا لفتح الأبواب،

فمسؤوليّتي داخل الأسوار، لكنّ شيئًا غريبًا حدث لي ذلك اليوم، شعرت بخفّة في جسمي كأنّني لا أمشي على الأرض، بل أطير فعلاً، لكن على ارتفاع واطئ، لقد جرّبت هذا الشعور في الأحلام مرات عديدة، لكنّني في تلك الليلة شعرت بخفّة تشبه ما يمرّ به النائم. وفي اللحظة التي صرت فيها في موازاة صالة الجلوس الرئيسيّة التي كانت ستائر شباكها مسدلة كالعادة، شاهدتها، شاهدت «نرجس» وكانت تبتسم، تبتسم لي، أو لا أعرف بالضبط، لكنّها تبتسم، رأيت أسنانها تتوهّج تحت الضوء مثل حبات من اللؤلؤ تحت الشمس. قلت لنفسي إنّ مزاجها رائق اليوم بشكل غريب، لم تكن «نرجس» نفسها، بل أميرة من العصور القديمة بوجه «نرجس»، أقصد أميرة مثل الأميرات اللاتي نشاهدهنّ في الأفلام الأجنبيّة التاريخيّة. لقد شاهدت الكثير من الأفلام في التلفاز، خاصّة يوم الأربعاء، كان فيلم السهرة فيلمًا أجنبيًّا. على كلّ حال، بسبب عدم الانتباه، أو ربّما التظاهر بعدم الانتباه، تُركت فتحة بمساحة عشر سنتميترات تقريبًا، جعلتْ جزءاً من الصالة مكشوفًا، مساحة توفّر لي فرصةَ أن أرى التفاصيل التي تحيطها حين ألقي نظرة. كانت تجلس على كرسيّ تمسك بيدها الـ(ريموت كونترول)، هذا الشيء الذي يتحكّم باختراع اسمه الـ(ستلايت)، يقولون إنّه يجلب قنوات كثيرة، مئات القنوات من كلّ مكان في العالم، ومنها قنوات تعرض الأفلام والمسلسلات والأغاني، وأيضًا تعرض أفلامًا خلاعيّة، ظننت أنّها الآن تتفرج على فيلم من هذا النوع فاشتعل جسدي رغبةً. في الواقع لم تكن لديّ أدنى فكرة عن طبيعة هذا الاختراع، ولم أسمع أحداً من الذين أعرفهم يتحدّث عنه، لكنّني

كنت حاضراً في اليوم الذي حضر فيه المهندس وثبّت الصحن الأسود الكبير على سطح المنزل، لم أسأل، فلا يجب أن أكون فضوليّاً، هذا شرط من شروط العمل، لكنّني عندما تخيّلتها وهي تتفرج على فيلم خلاعيّ، شعرتُ بأنّني أطير أكثر حتى إنّني لم أعد أشعر بصلابة الأرض وأنا أستكمل جولتي حول القصر. تسللت إلى جسدي إثارة عظيمة، مثل الإثارة التي مررت بها في عمر المراهقة والشباب، في ذلك الوقت تفرجت على بعض الأفلام، كان في بيت صديقي جهاز فيديو، دعاني واثنين آخرين للمشاهدة. في الحقيقة هناك شيء مخزٍ بخصوص هذا الأمر، لقد كنّا نمارس العادة السريّة بشكل جماعيّ! على كلّ حال، كانت نظراتنا -أنا ونرجس- قد التقت جزءاً من الثانية من خلال الفتحة التي في الستارة، النظرة التي أشعلت جسدي وجعلتني أشعر بالخفّة بشكل مضاعف، لكنّني بعد لحظات وبّخت نفسي على هذه الشهوانيّة التي تجلب المصائب، شعرت بالخوف والخزي ثمّ أكملت طريقي، لكن بجسد ثقيل إلى درجة أنّني كنت أسمع خطواتي على البلاط كأنّها أثقل من كلّ مرة. وجّهت انتقاداً قاسياً إلى نفسي، فليس من الجيد لشخص مثلي أن يقوم بحركة مثل هذه، أنا حارس ولا يجب أن أتلصّص، على الرغم من كون المنزل بيت دعارة، وعلى الرغم من كون صاحبة المنزل قوّادة، لكنّ القوانين معروفة منذ البداية، عليّ أن ألتزم بالقوانين، أن أجيد فن الصمت، فن نسيان ما أشاهده وفن تمرير ما أسمعه في الأذن اليسرى إلى اليمنى قبل أن يستقرّ في الرأس، قبل أن يبني له عشّاً، من العشّ تخرج الشياطين التي توسوس لي حتى ترميني في الجحيم.

مرّت عشر دقائق قبل أن أكمل جولتي وأعود إلى غرفتي المواجهة لبوّابة القصر الأماميّة التي تؤدي إلى شارع هادئ طوال الوقت، شارع فيه أربعة منازل فقط، كلّها لناس مهمّين في الدولة ربّما، أو أنّها لعوائل أرستقراطيّة من العهود السابقة، لا أدري! ثمّ سمعت الباب الداخليّ يُفتَح، أقصد باب الصالة؛ نهضت، ثمّ سمعت صوت الموسيقى، ليس موسيقى بالضبط، بل أغنية أعرفها جيداً، لكنّني لم أتذكرها في تلك اللحظة، والصوت نفسه لم يكن قادماً من الصالة، بل من مكان بعيد، يشبه عندما تكون في قرية مثلاً، وتسمع في الليل صوت أغنية يأتي من قرية بعيدة، يجلبه الهواء! على كلّ حال، وصلني صوتها خفيفاً مشبعاً بالدلال كأنّها تهمس في أذني: «جبار!»، ليس همساً بالضبط، لكن نغمة فيها رقّة عجيبة، والنبرة التي نطقت فيها الاسم لم تكن نفسها في أيّ مرة أخرى. شعرت بأنّ هذه النغمة تعني احتياجها إلى شيء آخر مختلف، شيء لا يتعلّق بوظيفتي، بل هو احتياج، نعم احتياج، على الأغلب عاطفيّ! وبأنّها سوف تحتضني قبل أن تقول إنّها تريدني الآن: «أريدك الآن يا جبّار، أريدك وأشتهيك دائماً، وأنت غبيّ لم تحرّك ساكناً!»، وفي أثناء هذه التخيّلات لم أفكر في أنّها لو أرادتني حقاً لطلبت منّي أن أنام معها دون أيّ تردّد، نسيت أنّها «نرجس» التي تستقبل في القصر القحاب والزوّار الذين يبحثون عن المتعة. تخيّلت أنّها كانت تنتظر منّي أيّ حركة أو كلمة لنكون معاً في سرير واحد ووبّخت نفسي، قلت: كم أنا غبيّ وجبان! تخيّلت روائح جسدينا وهي تمتزج، تخيّلت صوتينا يتداخلان حتى يصيرا صوتاً واحداً قبل أن تختلط سوائلنا، عسل بحليب،

العسل من «نرجس» والحليب منّي، هكذا تخيّلت لحظة النوم الساخنة معها. تحرّكت على النحو الذي تخيّلت به أنّ حركتي هذه هي الحدث المصيريّ الذي سيغيّر حياتي من الجوع إلى الشبع. عادت الخفّة إلى جسدي وكنت أطير ولا أسمع صوتاً سوى صوت حفيف قميصي، كأنّ الريح تعبث بي لكن بلطف، كأنّها تغازلني، كان قلبي ينبض بسرعة، وساقاي ترتعشان على الرغم من أنّهما تسبحان في الهواء، ربّما خوفاً من الإحباط، فلقد أشعل صوتها بنبرته الشهوانيّة جسدي: نعم حاجة. قلت ذلك باعتياد، لكن بلهفة وقلق كذلك، وكانت تمسك مقبض الباب الموارب، ترتدي ما يشبه قميصَ النوم مفتوحَ الصدر بلون أزرق سماويّ، قصيراً نوعاً ما إلى ما تحت الركبة، عاري الكتفين، لم يكن هو نفسه، عندما رأيتها قبل دقائق من فتحة في ستارة النافذة. كان وجهها المستدير الأبيض يشعّ، لكنّها أقلّ عمراً، كانت في العشرين أو أكثر قليلاً! وقفت في تلك اللحظات أمامها، لم أستطع التماسك، أوشك جسدي على الانهيار، لا أستطيع الوقوف على الأرض، كنت أدفع نفسي إلى الأسفل لكي أستقر، وأخفّف ارتعاش ساقيّ. صوّبت نظراتي إلى الأسفل خجلاً وخوفاً من نفسي في الحقيقة حتى لا أتصرّف بحماقة، ولكي أتأكّد أنّ انتصاب عضوي ليس بالصورة التي يمكن أن تلاحظها، فأنا لم أتخيّل يوماً أن تقف أمامي بهذه الهيئة المحرّضة على اقتراف ما يجعلني نادماً، وليس أسهل على امرأة مثلها من أن تقول لي كلمة واحدة بكلّ برود: «انتهى»، انتهى عملي معها، سيكون شيئاً أكثر من الصفعة أو الركلة خاصّةً في هذا الزمن الحقير، إذ يحلم الناس بأشياء كانت تافهة قبل سنوات، يحلم

الإنسان مثلاً بأن يفطر صباحًا خبزاً ساخنًا صافيًا من الشوائب والمواد الغريبة المخلوطة فيه، أو بيضًا وجبنًا. على كلّ حال، لم أكن أحلم حتى برؤية ساقيها الرائعتين وصدرها الذي ظهر جزؤه الأعلى، فوقه من الجهة اليسرى وشم لطائر يفرد جناحيه، شعرها القصير الأشقر -أقصد المصبوغ بلون أشقر كما أظنّ، أو ربّما كان أشقر أصلاً- ذكّرني بممثلة فرنسيّة أحبها، اسمها «صوفي مارسو»، لكنّني أعترف أنّه لم يخطر في بالي أن تكون قريبة منّي هذا القرب كلّه، لا أقصد المسافة، بل القرب المغري الحنون، أن تبتسم لي بهذه الشهوانيّة التي سبّبت لي الذعر والاضطراب والحيرة ممزوجة بإشعال الرغبة. إنّنا وحدنا في هذا القصر، أنا ونرجس، وهذا شيء مُخَدِّر ومُسكِر. «سونا» مصابة بالإنفلونزا التي تسمّيها «گريب»، والآخرون في إجازة، ولا ضيوف اليوم: «تعال جبار وأغلق وراك الباب». دخلت وتبعتها، كانت مؤخرتها ترتجّ، حركة جعلت شرايين قلبي على وشك الانفجار من شدة ضخّ الدم. كم وددت في تلك اللحظة أن أمسك مؤخرتها بيديّ وأبوسها، أبوسها وأشمّها، لكنّني حتى تلك اللحظة الغارقة في الغموض لم أكن أعرف طبيعة المهمة التي ينبغي عليّ القيام بها، لكنّ جملة (أغلق الباب) كانت مثيرة حقًا، وفي ظنّي أنّها تعني أمرين مهمين، الأول أنّ مهمتي ستطول في الداخل، والثاني أنّها مهمة تتّسم بالسريّة. فكرت في كلّ شيء، دفعت بمخيّلتي إلى أبعد مدى، لكنّني لم أصل إلى حدود مشهد أن تكون عارية أمامي مثلاً، عارية وحسب دون ان ألمسها. قالت: «ضايجة، وأشعر أنّي وحيدة، صحتك حتى نتفرّج على فيلم، مسلسل سويّة، ونشرب، اكعد

جبار». لقد كان سقف القاعة عالياً وأرضيّتها تلمع، لا أعرف من أين تجيء الموسيقى، لقد استجابت ذاكرتي ودفعت مشهداً للمقارنة، يشبه المكان ما شاهدته في أفلام فرنسيّة تجري أحداثها في زمن «نابليون» أو قبل ذلك، النبلاء وقاعات الرقص، كانت القاعة تشبه تلك القاعات، لكنّ «نرجس» ظهرت في اعترافها منكسرة وهشّة، وحين قالت جملتها شعرت بأنّها ليست المرأة التي تحكم القصر وتأمر وتنهي بنظرة واحد فقط. تمارس شخصيّتها هذه ليس علينا نحن الموظفين وحسب، بل على كلّ مَن يدخل المنزل، وربّما تحكم على ناس آخرين خارج القصر. على الرغم من ذلك، فقد غمرني كلامها بشعور متناقض، جانب منه محبط لأنّه وضع حاجزاً أمام اندفاع مخيّلتي، فالأمر في النهاية مجرّد دعوة لمشاركتها بعض الوقت ومشاهدة فيلم، لكنّ الشعور الآخر كان إيجابيّاً ومعقولاً لأنّها المرة الأولى منذ عملي قبل سنة ونصف تقريباً تمنحني يد الحظّ هديّة ثمينة، أن أكون أمام هذا الجسد الأبيض اللدن، أشارك سيّدة القصر الصالة، نشرب ونتحدّث بينما كانت تضع ساقاً على ساق، ركبتها مثل جوهرة تتوهّج، وعيناها المكحولتان تلمعان. تناولت علبة البيرة، بيرة هولنديّة، وكانت قد أنهتْ كأسها الثاني من الويسكي، قنينة لم أرَ مثلها في الحقيقة ولا في الصور. كانت نظراتي موجَّهة إلى الأسفل رغم ذلك، واجهت هذا العذاب برزانة حتى لو كانت مفتعَلة، كنت أجيبها على بعض أسئلتها التي كانت تعبّر عن رغبة في الثرثرة لا أكثر ولا أقلّ. مرّ الوقت بطريقة غير مفهومة، تحدّثتْ كثيراً عن أشياء لا رابط بينها، تحدّثتُ أنا أيضاً، لم نتفرّج على الفيلم، لكنّ شيئاً غريباً كأنّه حدث

بشكل مفاجئ، ألقيت نظرة فاستغربت أنّ «نرجس» قد شربت: «تقرّب جبار»، قالت لي بنبرة مثيرة؛ نهضت وجلست إلى جانبها، شعرت بحرارة فخذها ودوّخني عطرها وحرارة أنفاسها، ثمّ نهضتْ فجأة لكن بصعوبة، ولا أعرف من أين جاءتني الجرأة كي أنهض بحركة مضطربة كي أسندها. كانت سكرانة، فكّرت في إيصالها إلى غرفتها وحسب، وكان طموحي كلّه أن ألقي نظرة على جسدها وهي في سريرها، هذا كلّ شيء. «شيلني جبار، ماكدر امشي!»، حملتها بين ذراعيّ، وضعت يديها حول رقبتي وطرت بها، كنت أطير وهي خفيفة كما لو أنّها بوزن طفل صغير، ذهبت مباشرة إلى غرفتها وهذا غريب جداً، فأنا لم أدخل القصر من الداخل إلّا مرات نادرة، لا أعرف تفاصيل خريطة البيت من حيث توزيع الغرف، دخلنا وكانت ساقاي تسبحان في الفراغ كأنّ لا سقف فوقي، بل سماء زرقاء صافية، وكانت الريح تعبث بثوبها، ترفعه فتظهر لي فخذيها الممتلئتين كأنّهما مدهونتين بالحليب. كانت الغرفة واسعة، يتوسطها سرير كبير يتّسع لعشرة أشخاص ربّما، والجدران مطليّة بلون أزرق فاتح. هناك أربعة لوحات معلّقة على الجدران، اثنتان منها لنساء عاريات كأنهنّ في الجنة. الإضاءة المعلّقة في السقف منحت الجوّ درجة عالية من البهجة خاصة مع وجود الأزهار على طاولة مقابل السرير الواسع المغطّى بشرشف زهريّ. الستائر من النسيج الحريريّ تهبط إلى أسفل النافذة المطلّة على الحديقة من الجهة الخلفيّة. «نزّلني جبار!»، قالتها بنغمة السكارى ممزوجة بروحيّة إغواء تشبه طعنة في القلب. «نزّلني يلله»، كرّرتها وأرفقتها بابتسامة، بينما كانت عيناها شبه مغمضتين. كانت ريشة وليست

امرأة ممتلئة الجسد، يدي اليمنى تحت مؤخرتها الصلبة واليسرى أعلى ظهرها، بينما كانت ذراعاها تطوّقان رقبتي، وعلى الرغم من القشعريرة التي غمرت جسدي كلّه من أخمص القدمين حتى مفرق الرأس، من قلّة الفهم والاضطراب العاطفيّ المميت، شاهدتها على السرير عارية تماماً. لم يكن سهلاً أن أستوعب هذا كلّه، لكنّ نظراتي انسحبت إلى قدميها، هبطت على ركبتَيّ، انحنيت وقرّبت فمي من قدميها وبدأت ألعق الأصابع. كانت لها رائحة كأنّها مزيج من صبغ الأظافر ورائحة الحليب بطعم العسل، لكنّ ما حدث لي بعدها شيء غريب، لم أفهمه حتى هذه اللحظة، راودني الشك في ما حكيته لك كلّه، وبدأت أسأل نفسي كلّما تذكرته: هل ما حدث كان حقيقة أم أنّه مجرّد خيال؟ أبدو مثل رجل كبير السنّ يحكي عن شيء بينما الآخرون الذين يحيطون به يبتسمون، يراهم فيشعر بأنّه يخرّف أو يخلط عالماً بعالم آخر! لكنّ ما يجعلني أميل إلى كونه حقيقة فعلاً، هو أنّ طعم أصابعها ما زال عالقاً على شفتيّ، وأسأل نفسي بحَيرة أحياناً: هل جرّب أحد قبلي طعم الأصابع؟

لا نار تحت الرماد

سوف أحكي عن علاقتي بـ«جبار» بشكل خاص، وأعترف بأنّها علاقة مضطربة! مَن السبب في ذلك؟ أنا -بالطبع- أتحمّل جزءاً كبيراً منه، لكنّني أعاني كذلك من الجزء الأهمّ من ضغوط هذه العلاقة، والأمر ليس في يدي، فأنا في واقع الأمر ضحيّة أيضاً، ضحيّة صمتي وجهلي وضحيّة المجتمع. طيّب، أعرف أنّ «جبار» عانى كثيراً، لكن لا طريقة عندي كي يكون الوضع أفضل. قبل أن أتزوج لم أكن منتبهة إلى الشيء الذي يخصّ ميولي الجنسيّة، لم تستغرب أمي من توتّري وعدم اهتمامي حين يدور الحديث بين نساء العائلة، أمي وعمّاتي وخالاتي عن الزواج والجنس، لا أحد أشار إلى أنّ حالتي خاصّة أو غير طبيعيّة، الكلام الذي تلقّيته كان عبارة عن توبيخ وسخرية فقط. صديقاتي المراهقات في الإعداديّة، كنّ يحكينَ طبعاً عن الحب والرومانسيّة، ولا يغفلن -طبعاً، مع قليل من الخجل- استخدام الرموز الجنسيّة، أو الاعتراف بالرغبة والحديث عن أشياء أخرى بعضها شاذّ وعجيب، لكنّني لم أكن أهتمّ بهذه الأشياء كلّها التي عددتُها نوعاً من السخافات. سألت نفسي مرات عديدة عمّا يحدث لجسدي في ما يتعلق بهذا البرود واللامبالاة، في النهاية توصّلت إلى نتيجة تؤكّد أنّني غريبة، بمعنى «مختلفة»، مريضة ربّما، غير طبيعيّة على الأقلّ، وأنّ خللاً ما يحيط بي، غامضاً لا أعرف طبيعته ولا طريقة عندي كي أفهمه بشكل صحيح. سألت نفسي كثيراً ولم أحصل على

إجابة تخفّف حيرتي، ثمّ نسيت الأمر، نسيته وكان موضوع الزواج في داخلي مطفَأ تماماً، أو ربّما كنت أتمنّى أن لا أواجهه فأفشل في الرفض، ثمّ في مرحلة لاحقة فكّرت في أنّني لو تزوجت سوف أعرف سر جسدي على الأقلّ، لكنّني خلال هذه الفترة كلّها لم أكن أهتم بالجنس بشكل عام، كنت أشعر بعدم الارتياح لأيّ حديث حول الرغبة والشهوة والحديث الموارب المليء بالإشارت الجنسيّة البذيئة أحياناً. تزوجت «جبار» الذي كان أكبر منّي بكثير، بطريقة تقليديّة، حينها اكتشفت أنّ النوم مع رجل شيء مملّ، بل لا طعم ولا معنى له، شيء يحعلني أتعب نفسيّاً، مضحك أحياناً وعبثيّ. طيّب، أنا لا أنكر شعوري بالحزن لأنّني لم أجرب هذا الشيء الذي يتحدّث عنه الناس، إنّهم يكرّرونه دائماً باللذة نفسها، بموارية وسريّة مخلوطة وبضحك هامس، حتى إنّني لم أهتم يوماً بالملابس الداخليّة والمكياج والحمّام وأشياء أخرى مرافقة، أو بالتحضير للقاء جنسيّ، محاولة إغواء رجل أو بطريقة للبحث عن ذكر أو طريقة للحصول على رضاه. لا أعرف المشاعر التي ترافق هذه الأفعال. أحياناً أشعر بأنّني محطَّمة بسبب ذلك، لذلك كان نومي مع «جبار» واجباً أؤدّيه بين فترة وأخرى، كان واجباً فقط، لكنّه ثقيل، أتهرّب منه بطرق كثيرة، في مرات قليلة أنا من يدعوه، أمثل دور الأنثى التي تمارس الإغواء، أدعوه لكن من أجل الواجب في الحقيقة. بعد الزواج بشهر، شهرين ثلاثة لم أفهم، و«جبار» أيضاً لم يفهم البرود الذي أكون عليه في أثناء النوم معه. صبر كثيراً وحاولت أن أدفعه ليتزوج بطريقة أو أخرى ابتداءً من العام الثاني لزواجنا، لكنّه يحبني، أعرف أنّه يحبني جداً، يحبني وصار لدينا طفلان، بنت

وولد، كبرا قليلاً، و«جبار» ما زال يحبني رغم كلّ شيء. كان يعاني بصمت ويمثّل دور غير المهتم، أنا أيضاً أعاني أكثر منه، فهو يحاول حين ننام معاً أن يقوم بحركات ويصدر الأصوات التي تدل على أنّه يحصل على النشوة في أثناء المضاجعة. أنا أيضاً كنت أمثّل واكتشفت أنّه يمثل. وجّهت لي صديقة قديمة صادفتها يوماً نصيحةً، قالت إنّها تعرف طبيباً مهماً ومعروفاً كان قد حصل على شهادته من بريطانيا، تجرّأت وذهبنا إلى العيادة وكنت متحرِّجة جداً، لكنّ الطبيب شجّعني على الكلام وحكيت له معاناتي باختصار. قال شيئاً سمعته أول مرة في حياتي، كلمة «الرماديّون»، وشرح لي أنّهم يشكلون نسبة قليلة جداً في العالم، أعدادهم بالآلاف، لكنّهم موجودون، وهم ليسوا على درجة واحدة من الخمول الجنسيّ. قال إنّهم -وأنا منهم- ببساطة: الأشخاص الذين لا انجذاب جنسيّ لديهم للذكر أو للأنثى، وإنّ هذا ليس مرضاً وليس اضطراباً وليس خياراً شخصيّاً، بل هكذا دون توضيحات أخرى. يعتمد الرماديّون على العاطفة والمحبة بدل الجنس، ببساطة هم لا يحتاجون إليه في حياتهم.

لكنّ مشكلة «جبار» معي تقلقني أكثر من كوني في حالة غير طبيعيّة. في أحد الأيام اتفقنا -أنا وبنت خالتي- أن نوصل إلى «جبار» رسالة لكي تخفّف معاناتي وتقدّم له إجابة يمكن أن تساعده كي يتزوج. كانت فكرة عبقريّة، لكنّها فشلت في النهاية كما فشلت محاولتي في ما قَبل مع بنت خالتي الأخرى قبل وفاتها.

قلت لابنة خالتي غيداء: «جبار إنسان جيد، رجل رائع، لماذا لا تتزوجينه؟»، كان الاقتراح صادماً لها، لكنّني شرحت لها كلّ شيء، اعترفتُ لها بأنّني تأكّدت من الطبيب بخصوص حالتي، قلت: «شرحها لي بوضوح، قال إنّني (لاجنسيّة)، بالإضافة إلى كوني باردة إلى درجة ما، وأنا أريد أن أزوِّج «جبار» أمراة يستحقها، أنتِ جميلة ورائعة لن يغضبني أن أراكما معاً، على العكس، سأكون صديقة لكماً، أنا وأنت زوجتان له وصديقتان وقريبتان، إنّه يستحق التضحية إذا كان ثمّة تضحية في الموضوع، لكنّني أعرف أنّ «جبار» لن يقتنع بقضيّة أنّني لاجنسيّة، لم يسمع بهذا الشيء ربّما، سوف يفسر الأمر على طريقته، لكنّكِ ستشرحين له بطريقة غير مباشرة، حاولي أن تتصرّفي بخصوص إيصال هذه الأمر له، لن يقتنع بسهولة، لكنّك تستطيعين إقناعه، أنا أيضاً لم أكن قد سمعت بهذا الأمر (لاجنسيّين)! لكنّ الطبيب أكّد لي أنّ آلافاً من الناس في العالم، ليس كثيراً، حالتهم تشبه حالتي.

وقبل هذا كانت ابنة خالتي الأخرى -التي توفِّيَت- قد اقترحت عليّ خطة، اقترحت أن نمثّل دور عاشقتين، يعني أن نحب بعضنا، كأنّنا لا علاقة لنا بالرجال، ليفهم زوجي أنّ هذا هو السبب الذي يجعلني باردة جنسيّاً معه. دخل يومها «جبار» إلى البيت، سمعت سيارة التاكسي التي وقفت أمام الباب، كان الطفلان نائمين؛ فقلت لها: «دعينا نذهب إلى المطبخ ولا نحدث صوتاً، إنّه الوقت المناسب لتنفيذ الخطة»، سمعت «جبار» عندما خرج من الغرفة، وعرفت--بالطبع- أنّه سوف يتوجه إلى المطبخ مباشرة، فقد أدرت الراديو على أغنية عاطفيّة لكن بصوت منخفض. لم يمرّ على غرفة الطفلين، بل

توجه إلى المطبخ مباشرة، في تلك اللحظات عانقت ابنة خالتي، احتضنّا بعضنا بقوة وبدأنا نقبّل بعضنا بشكل جيد من الشفتين، ربع دقيقة أو أقلّ، ثمّ قمنا بالحركة التي مثّلنا فيها دور مَن فوجئ بوجود شخص كشف سرنا العميق، حرصنا قبل هذا أن نقوم بتنفيذ المشهد كأنّه حقيقيّ. نظرتُ إلى «جبار» وكان واضحاً أنّه تلقّى الضربة وسقط في الفخّ، وأنّه تلقى الصدمة بشكل مثاليّ. رأيت في عينيه حيرة ممزوجة بحزن عميق، عاد إلى الصالة وتبعته، كنت أضحك وأنا أحاول إقناعه -كي تسير الخطة بشكل جيد- أنّنا نمزح، شرحت له أنّها في سن الزواج ولا تعرف شيئاً عن علاقة المرأة بجسد الرجل، وأنّني كنت أعطيها درساً في التقبيل على الأقلّ: «ههههه، وهذا كلّ شيء، (خبال مال نسوان)».

ماتت بنت خالتي بعد ذلك بأشهر، كانت مصابة بالسرطان، حزنت كثيراً حتى إنّ صحّتي اعتلّت بسبب ذلك، لكنّني كنت منجذبة بقوة -رغم ما حصل- إلى البحث عن خطة أخرى. مرّت سنة قبل أن أطلب من «غيداء» أن تشرح لـ«جبار» كلّ شيء وأقترح عليها أن تتزوجه لئلّا يبقى هكذا بين الجنة والنار. طلبت منها أن تعترف له بأنّها معجبة به، لكنّها لم تُظهِرْ له إعجابها من قَبل لأنّه زوج ابنة خالتها، وما دعاها إلى التصريح الآن بما في قلبها من مشاعر أنّها حصلت على معلومات وأشياء عجيبة بخصوص «هناء»، أي بخصوصي، لكنّ «جبار» رفض أيضاً، هكذا قالت لي، قالت إنّه يحبني جداً، وهذا أمرٌ يثير فيّ -بالطبع- الشجن والألم، قال إنّه يحب الولدَين أيضاً -فهُم ولداه- ولا يريد أن يجعلهما في وضع غير مستقرّ عندما يكبران. يحبني «جبار»، أعرف ذلك، وأنا أيضاً أحبه، لكن

بصفته أبـًا لولديّ، أحبه وأحترمه لأنّه إنسان جيد ورجل يُعتمَد عليه، أحبه وأعطف عليه ولا يمكن لي أن أطرح عليه فكرة أن نكون زوجين حبيبين دون جنس. لقد كنت أعاني كثيراً عندما كنت أمنحه نفسي، أعاني من تمثيل دور المستمتِعة وأعاني من الكذب، رغم ذلك كنت أفعلها وأنام معه. يعرف أنّ نومه معي مجرّد تفريغ سوائل بالنسبة إليه، لكنّه وافق مضطرّاً على سير الأمور بهذا الشكل غير المقنع على أمل أن تتحسن الأحوال، يعتقد أنّ الأحوال سوف تتحسن! أعرف أنّه لم يكن راضيـًا، ربّما كان صبره من أجل ولدَينا. أخيراً قرر الزواج وأنا سعيدة بهذا القرار، وقد تغيّر الوضع، أقصد الوضع الاقتصاديّ، وتحرّرتُ أخيراً من هذه المسؤوليّة، حافظت على عائلتي ولم أكسر بخاطر «جبار». أشعر الآن بالانسجام مع نفسي وحياتي، فأنا أمّ، لي بيت وزوج يبات يومـًا أو يومين في الأسبوع معنا. لقد ظلت غرفتنا كما هي، الفرق الوحيد أنّني وجدت طريقة جيدة بخصوص السرير، اشتريت سريرين منفصلين وبعت السرير المخصَّص لشخصين، عندما يبات «جبار» في البيت، ندخل الغرفة معـًا، نفصل السريرين مسافة متر تقريبـًا، نطفئ الضوء وكلٌّ منّا ينام في مكانه. صباحـًا يخرج «جبار»، فألصق السريرين ببعضهما، إنّه سرّنا العائليّ ولا أريد أن تدخل امرأة من الأقرباء صدفة، أو أيّ شخص لأيّ سبب كان، فيعرف أنّنا ننام منفصلين.

الشاهد المتَّهَم

لقد كنت شاهداً على الحادثة، شاهداً فقط، لكنّ الحظ العاثر دفعني إلى موضع المذنب. جرت الأمور بطريقة غير مفهومة -بالنسبة إليّ- وغير متوقّعة، لأن كلّ شيء حدث بسرعة وفجائيّة، فوجدت نفسي داخل دائرة الاتهام تلك الليلة قبل أن أكون في دائرة الإدانة، لكنّهم لم يحاكموني، تركوني معلَّقًا مثل حيوان سقط في فخّ، ذهبوا وتركوني حتى أصابني اليأس فانطويت على نفسي، يغمرني الخزي، شريكًا في جريمة لا علاقة لي بها، رافقتها فضيحة تضاف إلى سيرتي، سوف تلطّخ بعارها سمعة عائلتي، بالإضافة إلى المصير المجهول الذي لم تنكشف ملامحه إلّا بتوافقات عجيبة، إفراج غير متوقَّع كما لو أنّ يد المعجزة نسجتْه، مع شهادة حصلت عليها في ما بعد بأنّني مناضل، على الرغم من أنّني لم أكن كذلك، لم أكن ضدّ أحد أو معه، لكنّها شهادة مسنودة بقصة بطوليّة، والناس يصدّقون حكايات الأبطال في النهاية، يصدّقون الأساطير التي تصنعها الوثائق المزيَّفة. أخيراً وجدت نفسي تحت الضوء في مدينة شعرت فيها بأنّني -رغم ذلك- وحيد ويائس. مدينة انقلبت أحوالها خلال أيام، في أثناء فترة غيابي عنها، حتى إنّ لا شيء ظلّ في مكانه. عاصفة لم أكن أعرف إن كان مرورها خيراً أم شراً، عالم جديد يعيد للمدينة توهّجها بعد عصر من الظلام والخوف، أو ربّما كان طبقة أخرى ثقيلة من العتمة

ستجعل كلّ شيء مثيراً للشفقة، من الجوع إلى وفرة في الطعام لكن تحت جوّ رماديّ مشحون بالفوضى والترقُّب وعدم الفهم.

لقد مر كلّ شيء -كما قلت لكم- كأنّه كابوس في ليلة هي آخر عهدي بالمكان الذي قضيت فيه عامين، القصر الذي لم أجرؤ في ما بعد على العودة إليه، ولم تدفعني الرغبة حتى لمعرفة ماذا جرى لصاحبته، المرأة التي طالما تمنّيت أن أنام إلى جوارها، أتنفّس عطرها وألمس دقيقة - دقيقة واحدة لا أكثر- حرير جسدها، لمسة أنا متيقّن أنّ تأثيرها لن يغادر المنطقة المتقدّمة من ذاكرتي، لكنّ الحادثة كانت مثل مرآة أظهرت وجهي الحقيقي، نظرت إلى نفسي في السجن في مرآة الحقيقة التي جعلتني أتخلى عن حسن الظن بالعالم، اكتشفت ضعفي المخزي وعرفت أنّني ليس الشخص ذاته الذي كنته، وقررت أول مرة أن أصفّي حسابي مع أخطائي وأجمع شظاياي المتناثرة! ولا بدّ أن أحكي عن تلك الليلة، أحكي منذ البداية، فأنا أسترجع دائمًا -حتى بعد مرور سنة ونصف السنة على الحادثة- تفاصيلَ اليوم الأخير لي حارسًا في القصر، ومذنبًا سجينًا مدة أشهر تخلّلها الخوف واليأس، ثمّ الشعور -في النهاية- بأنّ يد المعجزة تتدخّل أو يد الحظّ، لا أدري، فيسقط النظام وتُفتَح المعتقلات.

في يوم الحادثة كنت قد أقفلت البوّابة الحديديّة العالية، بعد أن دفع الحدائقيّ درّاجته الهوائيّة، لوّح بيده وتمتم بكلماته التي لا تفصح عن معنى. أقفلته بآليّة لا تختلف كثيراً عن الطريقة التي تتّصف بها حركة الحدائقيّ في الذهاب والمجيء. عدت إلى غرفتي، أطفأت سيجارتي

وجلست على الكرسيّ المريح الذي أضعه عادة أمام باب الغرفة، الكرسيّ الذي اشترته لي «نرجس»، قالت عندما أحضرته إنّها اختارته من محلّ للمزاد، وإنّ صاحب الكرسيّ كان حاضراً وقتها، وكان أستاذاً جامعيّاً، وهذه القطعة من أثاث مكتبه لأنّه يستعدّ لمغادرة البلاد. قالت: «أنت تحتاج بالفعل إلى شيء مريح مثل هذا لأنّك لا تنام بما فيه الكفاية بسبب المراقبة الدائمة». وصل إليّ كلامها مليئاً بالعاطفة، هكذا، عددتُ اهتمامها التفاتة كريمة ومفرحة، لكنّها أيضاً مثيرة للاضطراب الذي لا يغادرني قطّ، الحالة التي تجعلني في منطقة التأجيل، رغبتي الملتهبة فيها، التي لا يمكنني تجاوزها أو نسيانها دون شعور بالحسرة أو التمسك بها دون ألم.

أشعلت سيجارة أخرى وجلست قبل وصول «نرجس» أنفث الدخان منشغِلاً بمتابعة الغيمة التي تتشكّل ثمّ تتفتّت استجابةً لحركة هواء خفيفة ومفاجئة. نهضت بطريقة مَن كان في غفلة عن موعد، فظهوري بشكل غير مناسب يجعلني في حالة من الحرج وعدم الثقة، سرّحت شعري أمام المرآة، زررت قميصي لأخفي شعر صدري الذي تتخلّه بعض الشعرات البيضاء، راقبت قيافتي باهتمام كأنّني على موعد غراميّ، مرّرت أطراف أصابعي على التجاعيد التي تكوّنت تحت عينيّ، أعرف أنّ للسهر تأثيره، لكنّها الحياة، لا تعطيك شيئاً قبل أن تأخذ منك أشياء كثيرة، ولا يمكن الاستحواذ على كلّ ما يجعلك سعيداً. ابتسمت برضا لأنّني ما زلت أحتفظ بوجه مشدود البشرة على الرغم من كوني في نهاية الأربعين من

العمر، بل إنّني أبدو أصغر بكثير، حركتي سريعة وقواي البدنيّة ممتازة، أفادني المشي كثيراً، طوافي المستمرّ طوال الليل وبعض النهار حول السور، هذا النشاط الاستثنائيّ في الحقيقة أكثر في الواقع من كونه واجباً، أنا حريص على إثبات إخلاصي أولاً لـ«نرجس»، وأخاف من ارتكاب الأخطاء التي ربّما تؤدي إلى فصلي من العمل، وهذا يعني كارثة حقيقيّة تتمثّل في فقداني متعة القرب من الملكة، رؤيتها كلّ يوم، شمّ عطرها وسماع صوتها الذي سمعته مرة وهي تغنّي، لديها خامة لا يضاهي جمالها صوت أكثر المغنّيات شهرةً، وبالطبع أخاف من الطرد لئلّا أفقد الوضع الماليّ الجيّد أيضاً، الوظيفة التي جعلت عائلتي تعيش بالقدر الذي يمكن وصفها بالعائلة المحسودة، لقد أصبح حصولنا على الطعام الجيد والملبس المعقول أمراً نُحسَد عليه في سنوات الحصار.

مهنتي -في الحقيقة- لا تتطلّب قوة جسديّة بقدر ما تتطلّب مظهراً يشبه مظهر الرجال في ملصقات الإعلانات، بأجسام فخمة ومهيبة يظهرون من خلالها مصارعين أو ملاكمين، فقط كي يراهم الآخرون فتندحر نواياهم ولا يفكّروا في الدخول في عراك معهم. أثبتت الأيام أنّني بالفعل، الحارس الجيد الذي يتمتع كذلك بالحكمة، الشجاعة -طبعاً- وقوّة القلب في الأوقات الحرجة. تتوقع «نرجس» دائماً حدوث مفاجآت تثير القلق، ولقد حدثت تلك المفاجآت بالفعل، وتصرّفتُ على النحو الذي جعل ثقتها بي كبيرة، وهذا لا يعني تمسّكها بي، فهي غير مضمونة، على الرغم من أنّها لا تفضّل التخلّي عن أيّ موظّف واستبدال آخر به، ربّما لكي

تضمن حصر أسرار القصر في عدد محدود من الأشخاص، إذ لا يمكنها السيطرة -في أيّ حال- على أسرار في حوزة موظف مطرود. قلت إنّ ثقتها بي ضروريّة لها، أولاً لأنّ مقامات ضيوفها حساسة، ووجودهم يجب أن يظلّ محاطًا بسريّة عالية، ثانيًا لأنّ عدد اللصوص والمجرمين قد ازداد خلال سنوات الحصار. في إحدى الليالي هاجم العديد من اللصوص الدار، نصبوا سلّمًا لعبور سور المنزل العالي من الجهة الخلفيّة، كنت أقوم بجولتي، وفي أثناء ذلك تكون حواسي عادة متأهّبة. تقول «نرجس» إنّها لاحظت في العديد من الليالي وهي تنظر من النافذة أنّني حذِر ولا أغفل حتى عن دبيب الحشرات، وهذا الكلام حقيقيّ، فجولتي ليست مجرّد عمليّة مشي، فكلّي أعين مفتوحة وآذان منصتة. ليلتها شاهدت الرجل الملثَّم الذي أطلّ برأسه قبل أن يصعد على السور، أنزلت عتلة الأمان في بندقيتي، وكان هناك رأس آخر لشخص يحاول الصعود، سحبت الأقسام فانتبه كلاهما إلى مصدر الصوت، أطلقت رصاصة واحدة إلى الأعلى، قفز مَن كان على السور وسمعت صوت ارتطام جسده على الإسفلت خلف السور، يبدو أنّ الآخر أراد الهبوط عن السلم، سقط وسمعت اضطراب سقوطه، رافقه صوت تأوّه حادّ، قبل أن أسمع صوت تحطّم الدرج أو شيء ما كان قد استُخدِم لتسلّق السور العالي. الحقيقة أنّني لا أفتقد إلى مهارة التصويب، لكنّني أردت إخافتهم. لقد قضيت في الجيش سنوات عديدة، وفي الجبهات أثناء الحرب العراقيّة الإيرانيّة. في النهاية، أمر جيد أن يهربوا دون أن أصيب أيًّا منهم، فأنا غير

مستعدّ لقتل أحد أو حتى جرحه مهما كان، حتى لو كان لصّاً، إلّا إذا كان يريد قتلي بشكل جادّ، فهذه قضيّة أخرى. المهمّ أنّني شعرت بالرضا على انتهاء عمليّة السطو بهذا الشكل الهادئ، أطلّت «نرجس» من الباب الخلفيّ وكانت «سونا» خلفها، قلت: «ماكو شي حجيّة، حراميّة وانهزموا، لا تقلقين أنا موجود ولن أسمح حتى لصرصار بأن يقلق راحتك»، فابتسمت، رفعت كفّها مثل شراع أبيض ووضعتها على كتفي فارتعش جسدي، شعرت بعدها بتسرّب ما يشبه الكهرباء إلى عظامي قبل أن يغمرني شعور بالخفّة، قالت: «أحسنت جبار، ما محتاجين مشاكل، أنت تعرف ضيوفنا يجون حتى يقضون وقت حلو، يفرفشون قبل مايطلعون بهدوء وبسريّة، وأيّ حادث بسيط يخلّي الفضوليّين يشمشمون الأخبار، وهذا البلد يموت على الإشاعات مو صحيح!».

قبل أن تصل سيارة «نرجس» بدقائق، تركت الكرسيّ وأشعلت سيجارة أخرى. من مكاني نظرت إلى الجهة الشماليّة من الدار ثمّ إلى الجهة الجنوبيّة، منصِتاً إلى حركة أوراق شجرتين صغيرتين من نوع السرخسيّات، إنّهما شجرتان كبرتا في هذا المنزل بعيداً عن موطنهما الأصليّ في أميركا الجنوبيّة كما قال الحدائقيّ. تحرّكت بشكل مفاجئ وهبّت ريح خفيفة فانتبهتُ إلى حركة السعف في أشجار النخيل الاستوائيّة. نويت القيام بجولة في الجهة الخلفيّة، تحرّكت ببطء ولمحت «خلود» من النافذة، كانت تطوي سجادة الصالة فالتقت نظراتنا لحظةً، تحرّك قضيبي. وهذه الحكاية فيها اختصار لطبيعة العيش في القصر،

الشعور بالعزلة وسوء الظنّ وعدم الثقة والحذر. في أحد الأيام صرّحت لـ«سعيد» السائق بذلك، وكان هذا التصريح أحد أخطائي، شعرت بعدها بالندم، لأنّ الكلام في هذا البيت يجب أن لا يتجاوز شؤون العمل، والعلاقة بين العاملين لا بدّ أن تكون في أقصى درجات الرسميّة. قلت له إنّني أحب مؤخّرة خلود وصدرها الرائع، وبالفعل أحب مؤخّرة خلود، صحيح أنّ علاقتي بها جيدة خارج شروط الصمت الذي فرضته قوانين العمل، لكنّها حكت لي يومًا كلّ شيء يتعلّق بحياتها، كانت حزينة ومتعبة وتحتاج إلى الكلام، إنّها امرأة وحيدة واستثنائيّة وفريدة أيضًا، تكلّمت عن خصوصياتها بشكل جريء ويبدو أنّها ندمت، هذا ما أدركته في ما بعد عندما بدأت تتجنّبني بشكل مبالغ فيه وتعاملني برسميّة مضاعفة، وعندما تكلّمت عن رغبتي في «خلود»، أردت في الحقيقة أن أتحدّث عن مؤخّرة «نرجس» وليس «خلود»، لأعرف ردّة فعل «سعيد» تجاه هذا الكلام. قال شيئًا أخجلني، كلامًا فيه انتقاص يتضمّن أنّه لا يجوز لرجل عاقل مثلي أن يحكي بهذه الطريقة المبتذَلة، قال: «المبتذلة»، بصراحة شعرت بالخزي فسكتُّ. ولم يكن «سعيد» هذا مريحًا، كان غامضًا متعجرفًا ونظراته تشبه مَن يطلّ على ناس في ساحة من الطابق العاشر، يراهم كتلاً سوداء صغيرة مثل الحشرات.

خلال عملي في القصر، كنت مهتمًّا بأن أبدو أمام «نرجس» في مظهر جيد، أحدّد شواربي، أحلق لحيتي كلّ يوم، أقف أمام المرآة وقتًا أكثر من المعقول، أطمئنّ لوجهي الأبيض المخلوط بالحمرة، إنّه وجه يستحقّ

الحب هههه، أقول لنفسي إنّ شكلي رائع، أختار ألوان الملابس المبهجة في زمن انطفأت فيه البهجة كلّها في الأشياء، أهتمّ بمظهري وألمّع حذائي. ذات مرة دار حديث بيني وبين صديق قديم لي من أيام الحرب، كنت قد التقيته صدفة في (باب المعظم)، بعد أسئلة عادية عن الحياة والأخبار وبعض الذكريات أيام الحرب واستفسار عن بعض الأصدقاء الآخرين، لاحظتُ أنّه ينظر إلى ملابسي، إلى قميصي الذي كانت «نرجس» قد أهدتني إيّاه، القميص المستورد، قال: «وضعك ممتاز بلا حسد!»، قال ذلك بنبرة مَن يريد الإيضاح، ممزوجة بنبرة اتهام أو ريبة، قلت له إنّني لست سعيداً بما يكفي وإنّ هذه الملابس والألوان ليست دليلاً على السعادة، أنا أحاول أن أخدع حياتي.

كان سائقو الـ(تاكسي) مرات عديدة ينادونني: «أستاذ»، كنت أشعر بالخجل من الأسمال التي يرتدونها. كنت أصل إلى الحيّ الذي يقع فيه منزلي، وأعرف أنّ العيون كلّها -عيون الشبّان خاصة- ترصد هذا التميّز في مظهري. الحقيقة أنّ العالم خارج القصر -خاصة في الأحياء الشعبيّة- يكسر القلب، عيون الناس مطفأة والأحاديث كلّها عبارة عن ماكنة ينبعث منها بخار أو دخان برائحة خانقة، فإذا كان الحصول على الطعام مهمة صعبة، كيف يكون الحصول على ملابس مقبولة؟ الأكل والعلاج أعلى قائمة الأولويّات دائمًا، خاصّة أنّ المستشفيات الحكوميّة صارت عاجزة عن تقديم أدنى درجات الرعاية. كانت المدينة -ببساطة- مثل بيت آيل إلى السقوط، نفخة واحدة تسقطه على رؤوس مَن ظلّ في الداخل، أمّا

الناس الذين خرجوا كانوا محظوظين، طبعاً لا يشمل أمر البؤس العديد من الناس الأغنياء مثل ضيوف «نرجس» المقرّبين من السلطة والتجار الذين كسبوا ودّ السلطة بطريقة أو بأخرى، فهؤلاء عادةً لا يعرفون أيّ شيء عن أحوال الآخرين البائسة. كان الطعام في بيت «نرجس» الذي يُعدّ في سهرة واحدة لعشرة أشخاص منهم الموسيقيّون والبنات وموظفات الخدمة، كان يكفي سكّان حيّ كامل، وفي النهاية يُرمى كلّ شيء تقريباً في حاوية بجانب البستان عند البوّابة الخلفيّة، وكان يأتي شابّ كلّ يوم بسيارة حوضيّة لينقل الحاوية ويترك أخرى فارغة مكانها.

أمّا بخصوص هناء، زوجتي الأولى، فقد جربت كلّ شيء معها، الغزل، المداعبة وإحضار الهدايا، وكنت مستعداً لأن أصبر سنوات أخرى. أقنعت نفسي أنّها تعاني من مشكلة ما، مريضة، ومرضها البدنيّ أضاف كثيراً إلى مشكلتها التي جعلت سرير الزوجيّة بارداً. لقد عرفت في ما بعد السبب، رغم ذلك لا أستطيع أن أفعل شيئاً في شأنه، لقد سمعت التفاصيل التي جعلتني أنا الآخر قليل الاقتراب، إلّا إذا دعتْني بنفسها، وكانت تفعلها بين فترة وأخرى. بالنسبة إليّ، كنت أستجيب لأنّني لا أريد أن أكسر خاطرها رغم ذلك، أنا أعرف أنّها تريد إرضائي، أنّها لا تكرهني وأنّ لديها مشكلة ما، لكنّ نومنا معاً يشبه اتصال إنسانين آليَّيْن. الفرق الوحيد بيننا أنّني بعد دقائق أقذف وينتهي الأمر. لقد حكت لي ابنة خالتها «غيداء» أشياء كثيرة، لا أدري إن كانت تميل إليّ فعلاً، لكنّها تريد الزواج فحسب، فهي أرملة توفّي زوجها في حفلة، أصابته طلقة في الرأس، كان

صدفة في مكان حضر فيه ابن الرئيس الذي شرب كثيراً ليلتها، ربّما شعر بالانزعاج من شيء ما، فأطلق عدة رصاصات من مسدسه، سانده في هذه الرغبة آخرون فتحوّل المشهد إلى مهرجان رمي. على كلّ حال، كانت تميل إليّ كما اعترفت. منذ البداية قلت لها: «قسمة ونصيب»، لكنّها – رغم ذلك– حاولت إغرائي في ما بعد. كانت تجيء إلى البيت، وتستغلّ فرصة ذهاب «هناء» إلى المطبخ أو إلى الحمام، فتحاول أن تغازلني، لكنّني لم أستطع، لا أريد أن أكسر قلب «هناء» لأنّني أحبّها ولأنّها أم ولديّ. تركتنا «هناء» أكثر من مرّة وحدنا –أنا و«غيداء»– وكانت تذهب لشراء شيء من المحل، ربع ساعة أو أكثر، وكنت أشعر بالرغبة، لكنّني لم أفعلها، أبداً لم أفعلها، ولم أمسك يد «غيداء» حتى، بل كنت حريصاً أن لا تعود «هناء» وتجدنا نتحدّث عن قرب. في النهاية لم يحصل شيء بيننا على الرغم من أنّها حكت لي شيئاً غريباً عن ميول «هناء» اللاجنسيّة، كان هذا تضارباً بين المشهد الذي رأيته بعينيّ، حينما كانت زوجتي مع بنت خالتها التي توفّيت، وبين كلام «غيداء» حول عدم رغبة «هناء» في الرجال ولا في النساء.

أطفأت الراديو، ولم يكن هناك شيء سوى الأخبار، أخبار مكرَّرة، جاءت لجان التفتيش عن الأسلحة الكيميائيّة، ذهبت لجان التفتيش، أميركا، الرئيس القائد، هذا كلّ شيء. سمعت صوت المحرّك، مشيت عبر الممرّ، سحبتُ مقبض الباب وفتحتُه على مصراعيه فاسحاً الطريق للسيارة بالدخول، مرّ أمامي وجه السائق أولاً، كان يبتسم وهذه هي

الملامح التي اعتدت أن أراها على وجهه، ابتسامة دائمة لم أعرف سرّها. سألته في إحدى المرات عن نوع المشاعر التي تتفاعل في داخله، أو لماذا هو مبتسم دائماً، في الحقيقة، وما كان يغضبني في هذه الحركة، أنّ العالم خارج هذا المنزل، يخلو من أيّ سبب للتعبير عن الفرح، إذ لم يترك الحصار فسحة للبهجة، اسمه «سعيد»، يبدو أنّه اسم على مسمّى، فهو سعيد دائماً، وكيف يحدث لأحد مثله أن يكون بالمشاعر الغريبة هذه؟ ألا يرى الخراب حين يتجوّل في المدينة رفقة «نرجس» والجوع الذي يطحن الناس؟ هل هو بارد الإحساس إلى هذا الحدّ؟ مجنون؟ أم أنّ قربه من «نرجس» جعله في سعادة دائمة؟ أين يذهبان؟ ما نوع الحديث الذي يدور بينهما خلال هذه الجولات؟

دخلت «نرجس» مباشرة وهي تعدّل وضعيّة عباءتها الحريريّة، كان وجهها الأبيض المستدير يشعّ بالحيويّة، «نرجس» الجميلة والرشيقة، ما عدا مؤخّرتها التي تبدو كأنّها تناسب جسداً ممتلئاً أكثر من جسدها. ضغطت زرّ جرس الباب الخشبيّ الكبير، وهذا الباب قطعة فنّيّة رائعة بزخارف نباتيّة محفورة ومطعّمة بالعاج أو ربّما بمادة أخرى، نوع الخشب ولونه غريبان! خشب لم أرَ مثله. فُتِح الباب ولفَح وجهي تيّار الهواء البارد الذي اندفع من الداخل، دخلت «نرجس» وأقفلت «خلود» الباب. بالنسبة إليّ، لم تتح لي فرصة اكتشاف الداخل، إلّا مرات نادرة، ثلاث أو أربع مرات، جرّب «سعيد» ذلك كثيراً عندما تكون هناك ثمّة أشياء ثقيلة لا تستطيع «خلود» أو«سونا» حملها، كان عمل «سعيد» ينتهي

عند اللحظة التي تدخل فيها نرجس إلى القصر، إذ إنّها لا تخرج بعد ذلك حتى يصل الضيوف. لا تخرج حتى في الأيام التي لا يكون فيها ضيوف، أمّا خروجها المسائيّ النادر -سهراتها- فلا تحتاج فيها «سعيد» السائق ولا تحتاج سيارتها، فثمّة مَن يجيء لينقلها ويعيدها حيث أكون في استقبالها دائمًا، أفتح الباب، تدخل السيارة من الباب الأماميّ، تنزل «نرجس» ويبدو عليها الإجهاد، تحيّيني، تنسحب السيارة ثمّ أقفل الباب، وهذا كلّ شيء. حدث مرات قليلة أنّها سافرت يومين أو ثلاثة، يكون خلالها سعيد في إجازة، وأنا أقضي النهار والليل في بيت ليس فيه أحد سوى «خلود» التي تغادر عند الرابعة أو الخامسة مساءً، و«سونا» التي تقضي وقتها في الاستماع إلى الموسيقى، الشرب، التدخين والنوم، وتعدّ وجبات طعام بسيطة لي ولـ«خلود» التي كانت تخرج دائمًا وفي يدها كيس بلاستيكيّ كبير.

أقفل سعيد باب السيارة، تأكّد أنّ لا شيء في الصندوق، وضع المفتاح في يدي وخرج. مرة أخرى أؤكّد قضيّة مبالغ فيها، أنّ العاملين في هذا القصر لا يتبادلون الأحاديث على الرغم من أنّهم يتشاركون العيش في مكان واحد فترة طويلة. ليس هناك حديث سوى بعض الجمل، لكنّ «سونا» تفعل ذلك بحريّة مع «سعيد»، هذا طبيعيّ لأنّهما يذهبان مرة واحدة في الأسبوع، أو مرتين في بعض الأحوال لشراء احتياجات البيت، الخضار، اللحم، العصائر، المشروبات الكحوليّة بأنواعها والسجائر، إذ كان هناك ما يشبه العهد المقدَّس قطعه الموظّفين كلّهم بالامتناع عن

تكثيف خيوط العلاقة، لهذا لم تكن الأحاديث بيني وبين «سعيد» -مثلاً- ممكنة، مجرّد جمل قصيرة تنحصر في السؤال عن الأخبار، أخبار الراديو، والإجابات أيضـاً غالبـاً ما تكـون مقتضَبة حتى عندما يأتي عند الساعة العاشـرة صـباحـاً لتسـلّم المفـاتيح، بانتظـار ركـوب «نـرجس» السـيارة للذهاب في جولاتها، أو «سونا» للتسوّق. أحيانـاً يكون عليه الانتظار بعض الوقت، رغـم ذلـك لا يجلس معي رافضـاً دعـواتي المتكرّرة إلى شـرب الشـاي الـذي أعـدّه في غرفتي، بـل يظـلّ يـدور في الحديقـة، يـدخّن تحت الشـجرة أو يقـرأ مجلّـةً مـا. لـم تكـن «خلـود» تبـادلني الحـديث، وكـذلك «سونا»، لكن يحدث أن تكـون إحـداهنّ في اسـتراحة قصـيرة في الحديقـة، حينها يمكن أن نتبادل كلمات بسيطة وعامة، أو عنـدما تقـدّم «خلـود» لـي طعام الغداء والعشاء، أمّا «سونا» فهي أكثر الكائنات اختفاءً، لا تخـرج إلّا مع «سعيد»، تتسوّق وتعود، تخرج «خلود» لتساعدها في نقل الخضروات واللحم وباقي الأشياء، يجـري كـلّ شـيء بصـمت، وكـلٌّ منهم يعتقـد أنّـه يحتفظ بسرّ يجب عدم إفشائه، باستثناء اليـوم الغريـب الـذي تحـدّثت فيـه «خلود» إليّ، كان هذا استثنائيّـاً بالطبع وغريبـاً أيضـاً.

تقرير عن الحاج رافع

«الحاج رافع» رجل مهمّ جداً في الحكومة السابقة، ستينيّ امتزجت سيرته الشخصيّة بالأحداث المفصليّة كلّها في تاريخ العراق منذ نهاية الستينيّات، أي بعد الإطاحة بحكومة «عبد الرحمن عارف» ثمّ نفيه إلى الخارج. كان الرجل قريباً من المجموعة الموالية لـ«صدام حسين» منذ عام 1968، وفي بدايات نشاطه المخابراتيّ، كُلِّف بمهمّة التحقيق في قضيّة الحنطة المسمومة، اتصل به الرئيس «أحمد حسن البكر» ذات يوم -يبدو أنّ اتصاله جاء بتوصية من «صدام حسين» نفسه- وطلب منه التحقيق في ملابسات استيراد بضاعة قاتلة، كان ذلك في عام 1971، إثر حادثة تسمّم جماعيّ بسبب مادة ميثيل الزئبق، إذ إنّ الحبوب التي استورِدت إلى العراق من الولايات المتحدة والمكسيك كانت تحتوي على مادة ميثيل الزئبق الذي يعمل مبيداً للفطريّات. لم تكن الشحنة مُعَدَّة للاستهلاك البشريّ أصلاً، هذا ما ورد في أوراق التحقيق، بل كانت مخصَّصة ومُعَدَّة بذوراً للزراعة فقط. استهلكت غذاءً من قِبَل الفلّاحين، كان أول الأعراض تنمّل الجلد، يليه انعدام التنسيق الإراديّ لحركة العضلات، ثمّ فقدان البصر. بلغ عدد الوفيّات التي سُجِّلَت 650 تقريباً، لكنّ الأرقام الحقيقيّة أضعاف هذا الرقم! قدّم «الحاج رافع» تقريرين في الحقيقة، الأول إلى رئيس الجمهوريّة «أحمد حسن البكر» والثاني إلى «صدام

حسين» الشابّ الطموح، أو العنكبوت الذي يخطّط ورأس الثعلب الذي يعرف من أين سيحصل على ما يريد. كان التقرير في خصوص عدد الوفيّات، وأيضاً لذكر ملابسات أخرى تتعلّق بالمتورِّطين لم تُذكَر في التقرير الرسميّ! كذلك كان «الحاج رافع» ضمن الوفد الذي وقّع معاهدة الصداقة والتعاون العراقيّة-السوفييتيّة التي زادت بموجبها المساعدات العسكريّة السوفييتيّة الموردة إلى العراق كجزء من تعزيز القدرة الدفاعيّة. وهو نفسه الذي قاد عمليّة «الصامتة» التي حدثت عام 1973، هجوم قامت به القوات العراقيّة على مركز الصامتة الحدوديّ التابع للكويت، توغّلت القوات العراقيّة مسافة ثلاثة كيلومتر داخل الأراضي الكويتيّة. وهو العنصر الرئيس في إدارة العمليّات الاستخباريّة في أثناء الحرب الأهليّة، حرب الشمال، ثمّ رافق «صدام حسين» في معظم تحرّكاته التي انتهت بتوقيع اتفاقيّة الجزائر. تزوّج في تلك الفترة بنتاً صغيرة عمرها 16 عاماً، طفلة قريبة من الرئيس «البكر»، طلّقها بعد فترة، نشأ بعدها خلاف بينه وبين أهلها، أعمام «البكر»، تدخّل «صدام حسين» لإنهاء المشكلة. لكنّ تكليف «الحاج رافع» ضمن القوة التي طاردت وقبضت على «ناظم كزار» -مدير الأمن آنذاك- مهمّة جعلته مصدر ثقة كبيرة. حضر «صدام حسين» إلى منزل «الحاج رافع» في إحدى الليالي، كان الجو حارّاً حينها، أوقف سيارته وكان يرتدي -عندما نزل- قميصاً أبيض (نصّ كُمّ)، طرق الباب ومعه اثنان من رجال حمايته الشخصيّة. لم يدخل عندما قال له «الحاج رافع»: «تفضّل»، قال: «لا، مستعجل، المهمة سرّيّة، فضّلت أن

أبلغك بنفسي!». في أثناء ذلك اكتُشِفَت محاولة مدير الأمن الإطاحة بالحكومة كما أشيع، الحقيقة أنّ الغموض كان يلفّ دوافع «كزار»، فهو معروف بولائه الشديد للحزب، رجل يتّصف بالقسوة الشديدة، لكنّ التفسير الأكثر تداولاً أنّ مدير الأمن عرف بخطّة لإقالته من مناصبه الحزبيّة والحكوميّة، حينها قرّر أن يتغدّى بهم قبل أن يتعشوا به. استدعى «صدام حسين» في ذلك المساء من شهر حزيران 1973 بعضَ المقرَّبين أيضاً، نبّههم إلى أن يكونوا حذرين، ودعاهم إلى لقاء سيكون في مقرّ الحزب في المنصور. سأل «الحاج رافع» عن الأمر ولم يكن أيٌّ من الذين استدعاهم يعرف شيئاً عن طبيعة مهمّتم. كان مدير الأمن في ذلك اليوم قد استدرج بعض المسؤولين المهمّين، وزير الدفاع، وزير الداخليّة وآخرين، قال إنّه يريد أن يطلعهم على أسرار عسكريّة في مكان خاصّ، أراد الهرب بهم رهائنَ في الحقيقة، لكنّ الطائرة التي كان يجب أن تنقلهم جميعاً إلى خارج الحدود تعطّلت، فهرب بهم في النهاية بالسيارات في اتجاه الحدود الإيرانيّة. عاد «الحاج رافع» في اليوم التالي وكان معه مدير الآمن، أوقفه أمام «صدام حسين»، اعتذر لأنّه لم يتمكّن من الحفاظ على أرواح الرهائن، لقد قُتِل وزير الدفاع في المواجهة التي جرت على الحدود وأصيب وزير الداخليّة وشخص آخر من الرهائن. قال له إنّ «ناظم» مَن قتلهم.

وفي مهمّة أخرى ذات طابع دبلوماسيّ ومخابراتيّ، كان «الحاجّ رافع» مسؤولاً عن عمليّة اختطاف مسلَّحين أكراد طائرةً تابعة للخطوط الجويّة

العراقيّة بعد وقت قصير من إقلاعها من الموصل إلى بغداد وعلى متنها 93 شخصـاً. طلب الخاطِفون الإفراج عن 85 سجيناً سياسيّاً كرديّاً والحصول على خمسة ملايين دولار. هبطت الطائرة اضطراريّاً في طهران على مدرَّج مسدود. توجّه «الحاج رافع» إلى تركيا بطائرة خاصة، التقى بعد ساعات السفير الإيرانيّ في اسطنبول، ونقل له رغبة الحكومة العراقيّة، رغم الخلاف بينهما، في أن يتصرّفوا بخصوص الخاطفين. نشبت معركة بالأسلحة الناريّة بين حراس الأمن العراقيّين الموجودين على متن الطائرة من جهة والمسلّحين من جهة أخرى. في النهاية قُتل أحد الركاب، وأصيب عشرة آخرون، ثمّ أعدِم الخاطفون بعد شهر في إيران، وسافر «الحاج رافع» في مهمة أخرى شبيهة لا داعي لذكر تفاصيلها.

في ما بعد أصبح «الحاج رافع» المساعد الأول لوزير الداخليّة «عزة الدوري» في أحداث النجف عام 1977، أو ما يسمّى «انتفاضة صفر». كانت الحكومة قد منعت طقوس المسير إلى كربلاء مشياً في عاشوراء، بدأ المنع على مراحل، لكن في تلك السنة مُنِع تماماً بأيّ شكل من الأشكال. تحدّى الناس قرارات الحكومة، اعتُقِل في تلك السنة عشرات الآلاف من الناس، وأُعدِم آخرون ممَّن اتُّهِموا بقيادة التمرّد. أيضاً كان هذا الرجل حاضراً في الجلسة التي أُقيمت في قاعة الخلد، مطَّلِعاً على نوايا الرئيس قبل انعقادها بإعدام عناصر قياديّة في حزب البعث الحاكم ومشرفاً على التحقيقات في ما بعد. وفي أثناء الحرب العراقيّة الإيرانيّة، كان يسافر كثيراً بمهمّات مخابراتيّة، حتى حرب استعادة الكويت من قِبَل

قوات التحالف، أصيب في قدمه، لكنّه تشافى بسرعة. شارك في قمع الانتفاضة الشعبيّة عام 1991. يتحدّث مقرَّبون منه أنّه في اليوم الذي استطاعت فيه قوات الحرس الجمهوريّ دخول النجف، كان قد أمر أربع دبابات بالتقدّم من خلف مستشفى «صدام»، في البداية أطلقت قذائف، واحدة منها سقطت على الطابق الثالث، هبط جميع الجرحى إلى الطابق الأرضيّ، وهم من الذين أصيبوا في أثناء القتال ضد قوات الأمن والجيش. في ما بعد وصلت الدبابات الأربع تساندها آليّات أخرى، ثمّ قُتِل كلُّ مَنْ لم يستطع الهرب من المستشفى، وأمر «الحاج رافع» بحفر مقبرة جماعيّة لهم في مكان قريب من المستشفى. خلال سنوات التسعينيّات كلّها ظلّ في منصب غير محدَّد، قريباً من الرئيس، مساهماً بصفةٍ ما في ملفّ لجان التفتيش المكلَّفة بالبحث عن الأسلحة النوويّة وعضواً في اتفاقيّة «برنامج النفط مقابل الغذاء». في ما بعد تزوّج «نرجس» بعد أن تعرّف عليها في سهرة حضرها تجار كبار وقيادات في الحزب والمؤسَّسة الأمنيّة وحتى ضباط في الجيش، قال لها: «أنا أحبك وأريدك، أريدك زوجة». حكت له عن وضعها، وافق بشرط أن تكون له زوجة، تماماً مثلما حدث معها في دعوة «سالم»، الفرق الوحيد أنّ «الحاج رافع» رجل مهمّ جداً بالقدر الذي لا يمكن ردّ طلبه. سافر إلى الهند في مهمّة مدة سنة واحدة ثمّ عاد وتزوّجها، كان ذلك بداية عام 2000. سافر معها إلى بيروت، ظلّا معاً أربعة أشهر تقريباً قبل أن يتركها، وعندما احتلّت القوات الأميركيّة العراق اختفى، حتى عائلته لم تعرف مكانه. يقال إنّه

رافق «صدام حسين» إلى تكريت حتى فم الحفرة التي اختبأ فيها قبل القبض عليه من قبل الجنود الأميركيّين، قال له «صدام حسين» وقتها: «اذهب يا رافع، لن أحتاجك الآن، لكنّنا سنلتقي ثانية، سوف نلتقي!»، لكنّهما لم يلتقيا حسب معلوماتي، إذ إنّ «صدام حسين» أُعدِم بعد محاكمة طويلة و«الحاج رافع» لم يذهب معه أصلاً إلى فم الحفرة كما يقولون، بل كان مع ابنَي الرئيس في الموصل. استطاع الهرب من المنزل قبل المواجهة التي حدثت مع القوات الأميركيّة التي كان من نتائجها قتلهما. لكنّ الخبر المثير الذي حصلت عليه أنّ «الحاج رافع» عمل مستشاراً أمنيّاً مع القوات الأميركيّة فترة، ثمّ سافر عام 2005 وحده إلى أميركا، أقام في ولاية مشيغان، تزوّج امرأة أميركيّة وله منها صبيّ. هذه المعطيات كلّها التي أوردتها ليست -بالضرورة- دقيقةً تمامًا، لكنّ جزءاً منها صحيح يتعلّق بسيرة رجل غامض. «نرجس» نفسها لم تتحدّث عنه كثيراً، هي لا تعرف شيئًا بالطبع، فلو كان لديها معلومات معيّنة لأشارت إليها في دفتر يوميّاتها أو مدوّنة الثرثرة التي تركتْها في القصر بعد الحادثة، أو ربّما كانت تعرف بعض الأشياء، لكنّها كتومة، أو ربّما كان «الحاج رافع» ذا طبيعة منغلِقة ولم يسلّط بقعة ضوء على جزء من عتمة سيرته هذه خلال الفترة التي كان يعيش فيها مع «نرجس» في القصر.

ضباب على العين

لقد كنت (عاقلة)، وهذا الوصف -بالطبع- يكرّم به الأهل والناس البنتَ التي لا تعترض على اختيار أهلها زوج المستقبل الذي يناسبها، لا أحد كان يعلم أنّني أقابل «ماجد»، ولم يتخيّل أيٌّ منهم أنّني -أنا البنت العاقلة التي تصلي وتصوم وتعرف الله جيداً- أخرج معه إلى أماكن نختلي فيها ببعضنا، حديقة الزوراء مثلاً. كان «ماجد» يعمل مدرّساً في الثانويّة القريبة من دارنا، أوقفني يوماً في الشارع: «كلمة واحدة من فضلك!» قال ذلك وأصبت بالذعر، إنّها المرة الأولى التي أقف فيها مع شخص غريب في الشارع! تقابلنا مرات عديدة بعدها، ولن أنسى تلك القُبَل والملامسات التي كان جسدي يشتعل بسببها، يرافق ذلك بعض الشعور بالذنب الذي كنت أحاول طردَه دائماً. هو أيضاً كان يشعر بتوتر وشغف، لكنّه خجول، وكنتُ أحرّضه على فعل تلك الأشياء اللذيذة والمحرَّمة في الوقت نفسه. أحلم طوال الوقت -مثل الأخريات- بالمشاهد الرومانسيّة التي نتفرّج عليها في الأفلام المصريّة. المهمّ أنّه لم ينتظر منّي إشارة للموافقة، كان مغرماً وخاف أن يتقدّم لخطبتي أحد قبله فأطير من يديه كما يقولون؛ تقدّم لخطبتي، قدّم أهله عذراً قائلين إنّ بعض الناس أشاروا إليّ ومدحوا عائلتي، قالوا ذلك حتى لا يتركوا لأهلي فرصةً للرفض، إذا ظنّ أحد منهم أنّه على علاقة بي بشكل ما، أعرف أهلي، ويبدو أنّه تسلّم إشارة من شخص يعرف طبائع أبي وأخوتي، حذّروه أن لا

يذكر إطلاقاً معرفته بي. تزوّجنا، عشنا سنوات جميلة وكبر الأولاد. فجأةً – وهذا شيء غريب– رأيته يشيخ، كان ذلك في بداية السنة الخامسة للحصار، بدا أكبر من عمره بعشرين عاماً، أصبح مزاجه سيّئاً، عصبيّاً أو صامتاً، لا يردّ حتى على الأسئلة التي يوجّهها أولاده إليه، التي تتعلّق بواجباتهم في درس التاريخ بشكل خاصّ. شيئاً فشيئاً صار بارداً في الفراش، استسلم للمناخ العام الذي كان البلد يغرق فيه، الحصار والوضع السياسيّ، والناس الذين قال إنّهم تغيّروا كثيراً، قلت له إنّ هذا يحصل دائماً، يتغيّر الناس بتأثير الظروف، العواصف، الحصار، الحرب وأشياء أخرى مثل الخوف، والناس بالطبع يتغيّرون بسبب الخوف. سكت وكان واضحاً لي أنّ السببَ حالتُه التي بدأت تنحدر نحو الكآبة نتيجة الحالة الاقتصاديّة السيّئة التي نمرّ بها في الوقت الذي كان فيه عاجزاً عن فعل شيء لنا. لقد تلاشت تلك الألعاب اللذيذة التي كنّا نمارسها على السرير، الكلمات المحتالة والملامسات، ولم يعد يكترث لجسدي، لم تعد له رغبة حتى في النوم إلى جانبي. أنا أحبه طبعاً، هو زوجي وأب أولادي، أشعر برغبة في أن نستعيد ذكرى الأيام البعيدة. بصراحة فكّرت في الطلاق بعد مرور سنوات على تركه جسدي مهجوراً، تمنّيت أن تخرج كلمة «طلّقني» من فمي، كنت أقول لنفسي: «لا، لا، لا يا خلود!». كنت – أحياناً– أبذل جهداً لكي أغويه، أجرّه إلى وقت للحب، أذكّره بأشياء قديمة مجنونة، لكنّني توقّفت عن ذلك بعد عدة محاولات فاشلة. ذهبت مرة إلى طبيب نفسيّ، لم تكن فكرة جيدة، لكنّني أردت أن أعرف هل يمكن أن يستعيد «ماجد» مرحه على الأقلّ، أن يلتفت إلى أولاده لنستعيد بعض حيويّة

البيت، أردت أن أفهم حالته بالضبط. أعرف -بالطبع- بعض الأسباب، منها -مثلاً- الحصار، الإحباط والعجز عن توفير لقمة تليق بعائلته، لكنّني أردت معرفة ماذا حدث له بالضبط. أنا أحتاجه زوجاً لي وسنداً للبيت وللعائلة، صبرت كثيراً لأنّ الحياة ليست الطعام والشراب والنوم فقط، هناك حاجات جسديّة أيضاً، أتحدّث عن رغبتي التي بدأت تضعف بدورها، حتى إنّني لم أعد أهتمّ بنظافة جسدي لولا ضرورة أن أكون نظيفة في بيت «نرجس»، فلا أريد أن تمسك عليّ نقطة ضعف تكون سبباً لطردي من العمل. صحيح أنّها تبدو عطوفة أحياناً، كريمة ولا علاقة لها بعملي، فهي مشغولة، على الرغم من ذلك تبدو لي غامضة لا أعرف ردود أفعالها. على كلّ حال، قال الطبيب: «العقل أداة التحكّم طبعاً، وتفكير زوجك متركّز ضدّ الجسد، نوع من العدميّة، لماذا؟ يعتقد أنّ جسده مصدر انهياره النفسيّ، الأكل والجنس والملابس، وإنّ صعوبة إرضاء أجسادكم -كعائلة- جعله محبَطاً وعاجزاً، لهذا فإنّ فعاليّات جسدة الطبيعيّة تتعرّض لضغوط من عقله، هذا نوع من الزهد الوهميّ». بالنسبة إليّ، لم أفهم شيئاً من الطبيب، أظنّ أنّه غبيّ، لكنّ المهمّ أنّني أردت أن أوضح شيئاً في خصوص عملي في بيت «نرجس»، حدث الأمر لحسن الحظّ أو لسوئه! لا أدري، لكنّها فرصة جيدة كي أحمي أولادي ونفسي وزوجي. أسأل نفسي أحياناً: لو أنّني كنت أعرف طبيعة البيت الذي أعمل فيه، هل كنت سأوافق أم سأرفض؟ لكنّني عرفت في ما بعد، وعلى الرغم من كلّ شيء واصلت العمل سنتين و«ماجد» لا يعرف شيئاً عن طبيعة عملي، أعرف أنّه يشكّ، لكنّه صامت، هل هو متواطئ؟ ماذا لو فجأني

يومـًا وطلب منّي توضيحـًا في شـأن طبيعـة عملي؟ هـل سأصـمت أم أقـول لـه: «أنت تعرف كلّ شيء»؟

هـذه ليسـت مرافعـة يؤدّيهـا محـامي الـدفاع عـن موكّلـه المـتَّهم، لا أريـد أن أدافع عن نفسي على أيّ حـال، أنـا أطـرح أسـئلة فقـط، أسـئلة في زمـن كـان كـلّ شـيء فيـه غامضـًا ومخيفـًا، حلبـة قتـال وحشـيّ، إمّـا أن تخـرج سـالمـًا ولـو بكـدمات، أو أن تتلقّـى الـركلات حتـى تسـقط فتدهسـك الأقـدام، أو تـذهب بعيداً، خارج كلّ قانون أخلاقيّ أو إنسـانيّ. إنّه صـراع مـن أجـل البقـاء، هـروب من الجوع، محاولة لكي لا أسقط وعائلتي تحت الأقدام. أتذكّر أنّ أمّي زارتنـا قبل عملي بأيام، كانـت نـادراً مـا تفكّـر في مغـادرة بيتهـا، أعاتبهـا علـى انقطاعهـا عن زيارتنا أحيانـًا وأقـول لهـا: «لمـاذا تغيبين كثيـراً، أشـتاق إليـك!»، تـرد عليّ بتعبير غامض أو عميق: «الحجر في مكانـه ثقيـل!»، تعبيـر يسـرّب إليّ شـعورين متناقضـين، الأول احـترام كبيـر لكبريـاء هـذه الكائنـة الصـبورة التـي تحـتفظ بهمومهـا لنفسـها، لا تصـدر مشـاعر سـلبيّة للآخـرين حتـى أولادهـا، والثـاني أنّ تعبيرهـا يخلـق فجـوة بينـي وبينهـا كـأنّني لسـت ابنتهـا، إذ إنّهـا تضـعني في دور المضـيفة. حسـنـًا، جـاءت ذلـك اليـوم، نزلـت فجـأة مثلمـا يحـدث مـع معظـم الناس، دون مواعيد مسبقة، لم نتعـوّد علـى ذلـك علـى كـلّ حـال، وكـان حظـي سيّئـًا، ففي اليوم السابق كنّا قد صرفنا آخر خمسـة آلاف دينـار في جيبنـا، وكنـتُ قد بعتُ مدفأة كهربائيّة (خربانه) تركتْها حماتي أمانةً في بيتي عنـدما انتقلـت إلـى الديوانيّة، بعتها بثمن جيد وصرفت جـزءاً مـن المبلـغ ثمـنَ برميـل نفـط، إذ كـان الشتاء على الأبواب، واشتريت بالجزء الآخر منه الحصـة الغذائيّـة مـن جارتنـا،

فحصّة عائلتنا لا تكفينا، عجنت وأضافت إلى الطحين كميّة من البصل المفروم والكاري وخبزته في التنور، أكلنا كلّ شيء، لكنّ أمي طرقت الباب، جلستْ على (القنفة) مقابل الباب الخارجيّ، كلّمتُ «ماجد» الذي كان في الغرفة: «أمّي هنا، ولا بدّ من إعداد وجبة عشاء على الأقلّ!»، طأطأ رأسه فشعرت بسخافتي، فأنا بهذا الكلام سوف أجرحه، كان عليّ أن أتدبّر الأمر دون أن يعرف، فكرت في اللحاف، عندي لحاف لم نستعمله من قَبل، ولكن كيف أُخرِجه أمام أمّي؟ سوف تعرف أنّني بعته كي أقوم بضيافتها؟ في النهاية قلت لـ«ماجد» سوف أعطيك اللحاف لتبيعه بسرعة وتشتري لنا شيئًا للعشاء والإفطار، خرجتُ من الغرفة ودعوتها إلى المطبخ لنشرب الشاي، نهضت وفي المطبخ صببت لها ولي، وضعت الاستكان أمامها وخرجت، التقطتُ اللحاف وكان «ماجد» ينتظرني في الخارج، تناوله منّي، باعه لرجل كان قد اتفق معه مسبقًا على شراء كلّ ما يودّ بيعه، عاد بعد ساعة معه كيس فيه (طماطة) وكيس بطاطا وتمر ولبن وبعض الخضار، ونصف كيلو لحم، شعرت بفرحة كبيرة، لقد أنجزت المهمة دون أن تراني ضيفتي. في الصباح ألحّت أمّي على العودة إلى بيتها، تناولنا إفطاراً جيداً، بيض وبطاطا وصمون نظيف، وكنت مستغربة أنّها لم تتناول شيئًا، شربت شايها صامتة ولم تعلّق، كأن تقول (الله يرزقكم) مثلاً، قلت لها: «ابقي معنا اليوم أيضًا»، لكنّها رفضت، لم أتمسّك بها بشكل مخلص وحقيقي، هي أمّي وأنا أحبها هذا صحيح، لكن في بقائها ورطة لأنّنا سنحتاج إلى تدبير وجبة غداء وعشاء ربّما وفطور. ودّعتها على الباب وكان «ماجد» في انتظارها ليرافقها حتى تركب

السيارة، التفتت لي قالت: «عندما يأتيك ضيف مثلي لا تبيعي فراش بيتك حبيبتي، أنا أمك وسوف ننجو قريباً إن شاء الله، سيمرّ الوقت وتشرق شمسنا من جديد، سوف ننجو وتشترين مدفأة وخبزاً ولحافاً وأشياء كثيرة».

وحين بدأت عملي، أشرقت شمسنا كما قالت أمي، لكنّها شمس باردة، مجرّد ضوء دون دفء. على كلّ حال، غطّى راتبي احتياجاتنا بشكل مبالغ فيه، إذ إنّ المبلغ الذي أتقاضاه مع الهدايا والإكراميّات يكفي لسدّ احتياجات خمسة بيوت، بل عشرة، فقد كانت «نرجس» كريمة جداً، على الرغم من ذلك تمنّيت أن يهتمّ «ماجد» بالموضوع، أن يجعل من شكّه دليله، أن يراقبني، أن يسأل عن طبيعة عملي بالضبط، عن صاحبة البيت الذي أعمل فيه، لكنّه في النهاية لم يفعل، ظلّ صامتاً كأنّ الأمر لا يعنيه. أحيانا أشعر بأنّني متورِّطة وأحتاجه، أريده أن ينتشلني من هذه الحفرة، لا أريده أن يكون في موضع المتعاطف الناصح، بل الرافض الذي يتّهمني بشكل مباشر، أريد أن يصفعني ويجبرني بطريقة ما أن أحكي له، لقد كرهته في بعض اللحظات التي كنت أشعر فيها بالتيه والحيرة، كرهته لأنّني أدرك -ربّما كنت على خطأ، لا أدري- أنّه يعرف كلّ شيء. كنت أعود مساءً إلى البيت، بعد العشاء والسهر قليلاً، أتمدّد في السرير إلى جانبه، ورغم التعب لم أتجاهل طوال الوقت رغبتي في أن يحتويني بحرارة، أفتقد كثيراً هذه الحركة التي لم يقم بها منذ سنوات، أستدير إليه وأحتضنه، أطوّق جسده وأدير وجهه إليّ، أقبّله مرّات عديدة، لطيفة وحنونة، أدسّ يدي من تحت الـ(تيشيرت) إلى صدره، أعبث به بلطف،

أُنزِلها إلى الأسفل حتى تصل إلى تلك المنطقة التي يغمرها الضباب ويتكدّس فوقها الجليد، أتخيّل أنّ محاولتي ستنجح فتزداد رغبتي ويشتعل جسدي، لكنّه يرفع يدي. لقد حدث هذا الأمر عشرات المرات، لم أنجح مرة واحدة في إيقاظ عضوه وإشعال رغبته، أدير له ظهري، أغمض عينيّ الغارقتين بالدمع، وقبل أن أغفو أشعر به، يحدث ذلك غالبًا، ينزل عن السرير، أسمع صوت خطواته ثمّ صوت الباب يُفتَح ليخرج إلى الصالة.

ورغم مرور سنوات لم أفقد الأمل، مرة طلبت منه أن يستشير الطبيب، فعلت ذلك بمودَّة وحذر، رفض في البداية ثمّ استجاب، قلت له إنّ الأمر لا يعنيني وحسب، بل يعنيك بدرجة أكبر، حرّضته على أن لا يستسلم لأنّ الحياة لا تسير دائمًا كما نرغب، ويجب أن نستعدّ دائمًا لما تصنعه لنا من مفاجآت، لكنّ المهمّ أن نحاول بالطرق كلها إعادة حياتنا إلى الوضع الذي نجد أنفسنا فيه أفضل. رافقته إلى العيادة ولم أدخل معه طبعًا، انتظرت في صالة الانتظار، وبعد أقلّ من ساعة خرجنا معًا دون أن نتبادل حديثًا، دخل إلى الصيدليّة وعاد بكيس، سألته، قال إنّ الطبيب وصف له منشّطات! قالها بطريقة تنطوي على رسالة تتضمّن أنّ هذا الشيء الذي بين يديه لن يفعل شيئًا، قال: «إنّ الأمر لا يتعلّق بخمول الشيء الذي بين فخذَيّ، أو خفوت رغبتي لسبب فيزيائيّ، بل لأنّ الخمول في قلبي، لقد انطفئت النار في داخله، لا يتعلّق الأمر بالرغبة الجنسيّة، بل بالحياة نفسها». بكيت وقتها ولم أطرح عليه المزيد من الأسئلة، أدرك أيضًا أنّ

حبوب الكآبة التي يتناولها جزء من المشكلة، وتأثيرات مرض السكّريّ أيضاً. عقّدت هذه الإضافات الأمر لأنّها رافقت شعوره بالعجز عن توفير حياة محترمة، أنا أعرف هشاشته وحساسيّته تجاه ما يحيط به من مظاهر الحياة البائسة، لا يتعلّق الأمر بنا وحسب، بل بأهله والجيران، وربّما وضع البلد كلّه. لم أكن أستطيع أن أقول له: «لكنّني أعمل الآن واكسب الكثير». كلام مثل هذا يزيد الحال سوءاً، أعرف ذلك.

في بعض الأحيان، أشعر برغبة في الكلام، أن أكلّم شخصاً ليس من الأقرباء، شخصاً بعيداً وكتوماً، وليست «نرجس» اختياراً جيداً، فهي في النهاية امرأة غامضة ولن أثق بها، الطباخة «سونا» أيضاً متعجرفة وترى نفسها أكبر من الآخرين. يومها كان القصر فارغاً، خرجت من الداخل وفي صدري ما يشبه البخار الساخن، كان «جبار» يدخن أمام باب غرفته، قلت له: «أريد أن أشرب شايًا من يديك»؛ أعدّ كوبَين وجلسنا أمام غرفته، حدّثته عن ابني الذي لم يعد ينام في البيت معظم الوقت، فقد بدأ يغيب كثيراً، لم يعد يتحدّث معنا، يقرأ في غرفته طوال الوقت، القرآن وأشياء أخرى، يقرأ كتبًا غريبة أو مخيفة، لقد اطّلعت على بعضها ولم يكن في مقدوري فعل شيء له، لقد ظهرت عليه تغييرات قبل سنتين، التديّن المبالغ فيه، اللحية ثم الدشداشة القصيرة، وصار يقضي معظم الوقت في جامع على أطراف بغداد، سمعت أنّهم يصفونه بأنّه «مقرّ الوهابيّة» أو «السلفيّة». حكيت له عن اشتياقي إلى ابني عندما يغيب خاصّة إن غاب فترة طويلة، فهو ابني رغم كلّ شيء، لقد سافر إلى

الأردن، انقطعت أخباره، حينها قلت لـ«ماجد» إنّني جمعت بعض المال، طلبت منه أن يذهب إلى عمّان للبحث عن ابننا، قال لي: «ما من داعٍ، ابننا منحرف أو ربّما كان في حفرة لا نستطيع إنقاذه منها». وحين عاد ولن يخبرنا عن سبب غيابه، ادّعى أنّه كان مسجونًا، لكنّنا سمعنا إشاعات تقول إنّه كان في السعوديّة، لا أدري لماذا لم يفكر فينا، في أبيه وأخته، بل ظهر لنا مليئًا بالكراهية، وصف مرة حياتنا بأنّها تغرق في الجاهليّة، لم أفهمه، لم أفهمه أبداً بعد ذلك. كان يضايقني وأخته أيضًا، يريد أن يجبرها على ارتداء الحجاب، امتثلتُ لرغبته محبّةً وليس اقتناعًا، أمّا هي فكانت عنيدة. طرده أبوه من البيت بعد مشادة كبيرة بينهما، ضربه، وعاد بعد شهر، تدخّل أحد الأقرباء وأعاده إلى البيت، لكنّ ابني لم يعد يحترم أحداً، في نظراته عدوانيّة وعدم رضا عن أيّ شيء، لا أعرف ماذا حدث له، صار غريبًا عنّا، والبيت بالنسبة إليه عبارة عن غرفة يقفل بابها طوال الوقت، يقرأ كتبًا، يقول «ماجد» إنّها أشياء متخلِّفة، اكتشفها يومًا وأحرقها، مع الأسف، كان فتى وشابّاً مرحًا، طيّبًا وحنونا، قبل شهرين من ذلك الفجر المشؤوم، حين قلب قدراً كان فوق النار أمام بيت إحدى قريباتنا، امرأة حالتها ميسورة، لديها محلّات في السوق، تعوّدت على توزيع الثواب[1] على الفقراء، تطبخ «التمن»[2] والمرق بمناسبة عاشوراء

(1) الثواب: ما يُقدَّم للفقراء في المناسبات الدينيّة.
(2) التمن: الأرز.

أو في مناسبات دينيّة أخرى، حدثت مشكلة كبيرة، كادوا يقتلوه، تدخّل بعض الأخيار وانتهت القضيّة، لكنّه ذهب إلى الشمال، هكذا قال لي!

إحدى المرات التي كنت فيها منهارة نفسيّاً، اعترفت لـ«نرجس». الحقيقة أنّها مَن ألحّت عليّ أن أحكي بعد أن لاحظت الغيوم التي غلّفت حالتي، لقد أظهرت تجاهي عاطفة لم أتوقّعها منها، ضمّتني إلى صدرها بطريقة شعرت بأنّها أمّي أو أختي الكبيرة وليست «نرجس» القوّادة. رأيت أول مرة عينيها تدمعان، طلبت منّي أن أحكي لها وأن لا أخاف لأنّ قلبها مخزن أسرار عظيمة، قالت إنّ الحكايات التي تعرفها لن تستطيع أقوى أجهزة المخابرات الوصول إليها، لهذا فإنّ حكايتها مهما كانت خاصّة وسريّة لن تكون أعظم ممّا تحتفظ هي فيه. حكيت لها عن جوع جسدي إلى رائحة رجل، إلى أصابع حنونه، قبلة عنيفة تهتك شفتيّ، يد شهوانيّة تفرك نهديّ وبطني، احتضان يحطّم أضلاعي وأصابع تعبث بأشيائي الحميمة. كنت في حالة خدر عاطفيّ أو انفجار سدّ؛ فاعترفت لها بما حدث في يوم كانت فيه «سونا» قد ذهبت إلى السوق مع «سعيد» وقالت «نرجس» إنّها لن تصحو قبل الواحدة ظهراً، إذ كانت متعبةً من سهرة الليلة الماضية. ناديت «جبار» لأسلّمه صينيّة الإفطار، التقت نظراتنا لحظةً؛ فارتبكت، كادت الصينيّة تسقط من يدي، قال: «هل أنت مريضة؟»، لم أستطع الإجابة، لكنّني انتبهت إلى أنّ الثوب الذي كنت ألبسه يُظهِر جزءاً من ثديي، اعترفت لها أنّني تقصّدت ذلك، شيء ما دفعني إلى أن أقوم بدور المرأة الغاوية، رساله إلى «جبار» أشجّعه فيها على الاقتراب منّي. على كلّ حال، تسلّم الصينيّة منّي وأقفلت الباب، كان جسدي يرتجف على

النحو الذي بكيت فيه بصمت، سقطت في مكان بين الشعور بالذنب إلى الحدّ الذي وصفت نفسي فيه بالـ«خائنة» وقلت إنّني لا أصلح لأن أكون أمّـًا وزوجة، والحاجة الحقيقيّة إلى يد رجل تعصر ثديَيّ، إلى فم يأكل شفتيّ، وذراعين تحتويان جسدي بقوة، إلى عضوه الذي سيدخله فيَّ حتى أبكي من اللذة. حدّثتها أنّني يومها قلت لنفسي: «لا، لا يا خلود، لا يمكنك فعلها، لا، لن تفعلي أشياء مثل هذه، أنت عاقلة كما كنت عاقلة دائمـًا، متزوجة وأمّ، فلا تتخلّي عن الأمل بأن يستعيد زوجك نفسه التائهة في غابة من اليأس، ولدَاكِ يا خلود، أهلك، الخطأ خطأ، لن يرحمك أحد ولن ترحمين نفسك، سوف تعيشين بضمير معذَّب من أجل لحظة شهوانيّة، يدك يا خلود حنونة أيضـًا وأصابعك ماهرة». دخلتُ إلى الحمام، أقفلت الباب، نزعت لباسي الداخليّ، وجلست على طرف الحوض، فتحت فخذَيّ، وجعلت أصابعي تمرح مع وردتي الذابلة، لقد فعلتها هذه المرة، كما فعلتها مرات عديدة خلال السنوات الماضية، تفتحت ورقات الوردة واشتعل جسدي، دسست أصبعي، وشهقت مثلما أفعل كلّ مرة، شهقت مرات عديدة حتى ذابت روحي قبل أن تنطفئ النار، نهضت ومسحت ما بين فخذَيّ، غسلت يديّ ووجهي، وصار كلّ شيء مثل الرماد، صار جسدي والعالم الذي يحيطه، باردَين مثل نظرات ميت. لكنّ الأسرار في النهاية، حتى لو كانت في بئر عميقة، سوف تظهر تحت الضوء، بالصدفة أو بالحظ السيّئ، لكن لا شيء يبقى مخفيّـًا إلى الأبد.

صورة مثاليّة للثأر

نحن عائلة وضعتها الأقدار، الحظّ السيّئ أو التوقيت الخاطئ، أمام ملاكم يرتدي قفازات ضخمة، وجّه لنا على التوالي لكمات قاضية، وكنّا نسقط واحداً بعد الآخر، منازلة ظالمة وغير متكافئة، كنّا فيها عُزَّل إلّا من خوفنا وشعورنا بالظلم بينما الخصم لديه كلّ شيء، المال ليعمي به القلوب التي تصفّق، السلطة التي يخيفهم بها إذا امتنعوا عن التصفيق والروح الشريرة المعتمة التي لا يرى بسببها شيئاً التي تحرّض الشرّ الذي في النفوس على مديحها. إنّه الزمن، ما هو الزمن؟ وكيف ترك بصمته الحزينة على حياتنا؟ نحن العائلة المنكوبة التي لم ينج منها أحد سواي، هل نجوت؟! لقد أنهيت دراستي الثانويّة، كنت أحلم بأن أدخل كليّة الآداب، وأن أواصل مشواري الأكاديميّ حتى الدكتوراه، لكنّ لكمة الزمن كانت أقوى من كلّ حلم. خمسة أخوة من أب واحد وأمّ واحدة، الكبير كان قد اختُطِف يوماً من ساحة كرة القدم، معه عشرة من أصدقائه بملابس المباراة التي لم تكتمل، قالوا إنّهم شيوعيّون. بالنسبة إليّ، لا أعرف إن كان شيوعيّاً حقاً، وهل يذهب الشيوعيّ خلف الشمس فقط لأنّه كذلك؟ غاب ولم نعرف عنه شيئاً؛ بحثنا، سألنا، دفعنا الرشاوى، توسّلنا، كتبنا العرائض وقبّلنا الأحذية ولم نحصل حتى على جثّته، على أصبع منه، أو حتى على خبر عنه! كانت أمّي تصعد إلى السطح وتطلب

من الغيوم العابرة أن تنقل لها خبراً، من الريح والطيور المهاجرة، وتسأل حتى النخلة التي كانت وسط الدار. أخي الثاني اعتُقِل، قالوا إنّه في حزب الدعوة الإسلاميّة، ادّعاء غريب جداً! شيوعيّون وإسلاميّون في بيت واحد! ولم أكن قد رأيته يتحدّث في السياسة، كان مسالِماً هادئاً ومبتسماً كأنّ العالم بخير، لم يدم احتجازه طويلاً، أعدموه وأقمنا له عزاءً صامتاً اقتصر علينا نحن عائلته وعدة أشخاص من الأقرباء. أخي الثالث أخذته الحرب العراقيّة الإيرانيّة، كان قد علق في الأرض الحرام فانهالت عليه القذائف من كلّ مكان وتناثر جسده، في ما بعد حصلنا على جزء من جمجمته فدفنّاها في قبر يتّسع لرجل وليس لجزء من جمجمة. مات أبي بصمت، وكان قبل موته بأشهر قد امتنع عن الكلام. في صباح أحد الأيام أوقظته، لكنّه لم يتحرّك، لحقت به أمي بعد ثلاثة أشهر. أخي الرابع، كان أكبر منّي بعامين، أغرم بقحبة معروفة جميلة جداً، لقد رأيتها عندما تزوجها، جميلة بشكل مذهل، كما لو أنّها إلهة، كان كلّ شيء فيها مثاليّاً واستثنائيّاً وعجيباً. استأجرا منزلاً لم يزره أحد سواي، لم يبارك له صديق، لكنّني تعاطفت معه، فهو أخي الوحيد من عائلة مزّقها الموت. الحقيقة أنّني لم أكن راضياً تماماً عن هذا الزواج، لكنّه أخي في النهاية، فساعدته حتى استقرّت أحواله، لكنّ المشاكل كثرت بينهما، ثمّ تضاءلت فرصة أن يستمرّا معاً، قال لي إنّها ملّت الزواج والشعور بأنّها مرتبطة بمزاج شخص آخر، وإنّها تريد أن تكون وحيدة، بمعنى أن لا تكون مسؤولة عن أيّ شأن يتعلّق بأحد آخر، زوجاً كان أم عشيقاً، عاطفة كانت

أم ذكريات. قال إنّها تحبه وسوف يجعلها تهدأ، فرس تحتاج إلى صبر، لم يقصّر معها في شيء من الملابس والطعام واحتياجاتها المعقولة كلّها. حاول أن يرضيها بكلّ وسيلة، حتى إنّه كان يشرب معها، ينصبان طاولة، يسكران ويغنّيان ويرقصان. زرتهما مرة وشاركتهما الشراب والاستماع إلى الموسيقى، كانا منحذبان إلى بعضهما كما يبدو، ولا أعرف ماذا حدث حتى أخبرني مرة أنّه سيقتلها لو تركته. قالت لي مرة أنّه يريد أن يجعلها متديّنة ترتدي الحجاب، تصلّي وتصوم وتفعل أشياء أخرى. «هذا كلام غريب!»، قلت لها؛ لوَت شفتيها بطريقة مثيرة، لكنّه أخي وأعرف أنّ لا علاقة له بالدين، فقد عاش طوال حياته رفقة رفاق سوء كما تقول أمّي، لا يفعل شيئًا غير أنّه يتقاسم الشراب مع أصدقائه على الشاطئ، يزور القحاب ويعارك الآخرين في آخر الليل، لم أسمع منه ما يشير إلى ادّعاء «نرجس»! على كلّ حال، انقطعت عنهما فترة بسبب الدراسة، وقتها كنت طالبًا في السنة الأولى في كليّة الآداب، وكنت قد نشرت أولى قصائدي في إحدى الصحف، تبعتها قصائد أخرى، حتى جاء مَن يخبرني أنّهم وجدوا «سالم» مقتولاً، ذهبت وكانت «نرجس» تجلس قرب التابوت مع الجيران وبعض الأقرباء. سمعت كلامًا في خصوص مشاجرة حدثت في السوق قبل أسبوع بين سالم وضابط أمن من أهل بغداد. يقول الشهود يقول إنّ الضابط قال لـ«سالم»: «أنت لا تستحقّ هذه الجوهرة، هل تريد أن تموت أو تحب أن تتفرج بصمت علينا وأنا أضاجعها!»، دفنّا أخي في النجف، رافقني العديد من الأصدقاء والأقرباء. اختفت «نرجس» ستة أشهر،

ظهرت بعدها في منزل في (الطويسة)، قال الجيران إنّ الرجل تزوّجها على سنّة الله ورسوله، ولقد تأكّدت -بعد جمع المعلومات التي كلّفتُ بها أصدقائي- أنّ الضابط مَن قتل «سالم» فعلاً، قتله ورماه بعيداً. ليلتها كانت «نرجس» -كما قيل لي- قد أدخلت الضابط إلى بيتها، عاد «سالم» من العمل في السوق، سمع الجيران صياحًا أو عراكًا على وجه الدقّة، لكنّهم لم يسمعوا إطلاق نار. يبدو أنّ «سالم» قُتِل بمسدَّس كاتم. خرج الضابط عند الفجر، ركب السيارة وركبت «نرجس» إلى جانبه، لم يخرج «سالم» من البيت حتى وجدوا جثّته بعد ظهر اليوم نفسه. اختفت «نرجس كما قلت لكم، ثمّ ظهرتْ مع الضابط في بيت مستأجَر، تركت الدراسة لأنّني خلال تلك السنوات كنت أهيّئ نفسي لقتلهما معًا، لكنّهما اختفيا، بحثت في كلّ مكان، ثمّ حدثت حرب الكويت خلال ذلك، لكنّني لم أتوقّف عن البحث حتى جاءت أيام الانتفاضة وعرفت من شخص أنّ الضابط و«نرجس» غادرا البصرة إلى بغداد، اعتُقِلتُ بعد سيطرة الجيش على البصرة، لم أشارك بشكل فعليّ في الانتفاضة، اعتُقِلتُ على كلّ حال مثل الكثيرين، ومنهم مَن كان في بيته لم يخرج قَطّ، بعد سنتين خرجت من السجن وبدأت البحث ثانيةً، كانت الأخبار التي أحصل عليها غير دقيقة، لذلك لم أترك مدينة دون أن أسأل فيها، في فترة الحصار ضاقت الأمور فقد استُدعيت إلى التحقيق مرات عديدة، كانوا يسألونني أسئلة غريبة كأنّهم يريدون تدوين كلّ حركة أقوم بها. سافرت بعدها إلى الأردن مثل الكثير من الناس، عملت هناك حتى عام 2000، لكنّ قضيّة البحث لم

تغادر رأسي. شخص في عمّان قال لي إنّ الضابط موجود في دائرة أمنيّة في بغداد، عدت إلى العراق بعدها بأشهر وبحثت بين البصرة وبغداد، لم أستطع الوصول إليه، يبدو أنّ المعلومة غير دقيقة أو قديمة، اعتُقِلتُ مرتين في بغداد، كان ذلك مجرّد تحقيق وتم الإفراج عنّي بعد ثلاثة أيام، اعتُقِلتُ دون سبب واضح، ربّما لأنّني كنت قد اعتُقِلتُ مرات عديدة قبل ذلك، ثمّ قررت -على الرغم من ذلك- أن أقيم في بغداد من أجل العمل والبحث أيضاً عن الضابط و«نرجس» التي لا أعرف إن كانت حيّة أو ميتة، لكنّ الصدفة تمنحنا في لحظة ما نعجز عن تحقيقه خلال سنوات. سمعت خبراً غامضاً عن وجود قوّادة اسمها «نرجس»، كان لها بيت في الكرادة، لكنّني عندما وصلت إليه ظهر لي أنّ المعلومة قديمة لأنّها انتقلت من فترة إلى منزل في مكان آخر.

طبقات متلاشية

كنت أعرف أنّ لا علاقات كثيرة له، فهو يسلّم الحارس مفتاح السيارة عند نهاية دوامه اليوميّ، يخرج من البيت إلى الشارع العام، يأخذ تاكسي إلى بيتنا في (الوشاش)، وفي ذلك اليوم الذي حدثت فيه الفاجعة، دخل وكنت في غرفتي نصف نائمة، كان البيت هادئاً كالعادة، سمعته، فلا أحد يزورنا تقريباً، لا ضيوف يطرقون الباب إلّا في أوقات نادرة، لم يعد لنا أحد بعد موت «أبو سعيد»، وعادةً لا أستمع إلى الموسيقى كثيراً، لقد صار مزاجي سيّئاً منذ سنوات، كبرت وأوقف المرض كلّ نشاط لي باستثناء قيامي ببعض أعمال التنظيف البسيطة، إعداد وجبة واحدة بجهد كبير وزيارة بعض الأقارب زيارات نادرة. عندما دخل لم يقلق راحتها، بل ذهب مباشرة إلى غرفته، فقد اعتاد أن يأخذ قيلولة قصيرة ولم يمرّ وقت طويل حتى قُطِعَت الكهرباء، أوقظني الحرّ؛ فنهضت. كان قد سبقني ليستحمّ، غيّر ملابسه وخرج، كنت في الصالة، سلّم عليّ، قلت لها إنّ الغداء جاهز وجلسنا إلى الطاولة.

تحدّثنا قليلاً ثمّ نهض إلى المطبخ، كنت أعرف أنّه عندما يخرج وبيده كيس يكون في داخله (بطل، bottel) عرق. قال لي إنّه لن يتأخّر، في واقع الأمر هو يتأخّر دائماً، أعرف أنّ جملته هذه فارغة، لم أعد أنتظره مثلما كنت أفعل قبل سنوات. على أيّ حال، أعرف أين يذهب، له صديق واحد كما أظنّ، شخص كان من عائلة ثريّة، صودرت أموالهم في سنوات الحصار

الأولى بسبب تهمة الاحتكار، أُعدِم أبوه ولم يبق لديهم من الأملاك سوى دار صغيرة، في ما بعد فتح محلّاً لبيع الأدوات الكهربائيّة، إنّه المكان الذي تعوّدا –هو وسعيد– أن يشربا فيه، لقد حكى لي قبل أيام من الحادثة وكان سكران أكثر من أيّ مرة سابقة، ليلتها عاد بعد منتصف الليل وبدأ يحكي لي، كنت متعبة، لكنّني لم أشأ أن أوقف رغبته في الكلام على الرغم من أنّه كلام سكارى. حكى لي عمّا دار بينه وبين صديقه بالتفصيل، قال:

«دخلتُ، أدار صديقي قطعة الـ(كارتون) على كلمة «مغلق»، أحضر بعض الأشياء التي تناسب جلسة الشرب على الرغم من أنّ الوقت ما زال مبكراً، صبّ لي ولنفسه، رفعنا كأسينا وصحنا ببهجة: «بصحة الحاجة نرجس!». سردتُ له تفاصيل جولة النهار كما أفعل في كلّ مرة، عن ملابس «نرجس» التي ارتدتها عند خروجها وذوقها السيّئ، فلن يكون الريفيّ ابن مدينة حتى لو عاش فيها ألف سنة، تحدثتُ عن ثروتها، العقارات والذهب، ليس هذا فحسب، بل إنّ «نرجس» لديها علاقات على مستوى واسع، لا أعرف الكثير من التفاصيل، لكنّني خلال جولاتنا كانت تذهب إلى مكاتب المحامين، إلى المحكمة، دور الأيتام، الوزارات ومكاتب السفر والمخافر، إلى مديريات الشرطة وسجن الرصافة، ذهبنا إليه مرات عديدة، وأيضاً إلى بيوت في مناطق مختلفة من بغداد، أقسام داخليّة لطالبات جامعيّات، وحتى إلى الجامعة، I don't ask her، وهذا شرط العمل لديها. تحدّثت عن غموضها، لكنّها –من جانب آخر– تمثّل كنزاً بالنسبة إلى شخص يحصل على قلبها ورضاها. قلت له إنّني لو حصلت على قلبها سأجعلها تندم لأنّها

لم تفكر فيّ أو تلتقي بي من قبل، I must get it، سوف تعشقني فتبذل بين يديّ كلّ ما أطلبه، أنا أنتظر الفرصة فقط، بل إنّني أخطط لذلك، سوف أستعيد مجدي والمقام الذي يجب أن أكون فيه».

سوف أحكي عن خروجه من البيت في تلك الليلة، لكنّني قبل هذا سأمرّ على سيرتنا العائليّة لكي تفهم ما حدث بشكل جيد دون سوء فهم عندما تكتب، فقد كان جده يشتغل في السياسة حتى فترة أيام الملكيّة، وكان قد قابل الملك مرات عديدة. فضّل أبوه أن يكون تاجراً، نجح في ذلك وجمع ثروة كبيرة أُضيفت إلى ثروة العائلة. كان عمّه ضابطًا كبيراً في الجيش، لكنّه تقاعد بعد عام 1978. تزوّجنا -أنا وأبو سعيد- بعد علاقة حب، وكان منزلنا في (الوزيريّة) كبيراً، فيه حديقة واسعة غالبًا ما تكون عامرة بالضيوف صيفًا. المشكلة أنّ «أبا سعيد» كان قد بدأ المقامرة في نهاية الثمانينيّات. شيء يشبه الجنون! تغيّر حاله ولم يعد يهتمّ بأيّ شيء سوى القمار وأشياء أخرى، في النهاية باع البيت، في الواقع باع أيضًا منازل أخرى أقلّ مساحة، خسر ثروته كلّها في أخطاء متوالية من نصب وابتزاز وقمار طبعًا. أخيراً -وقبل ثمان سنوات- مات مخلفًا الكثير من الديون، لكنّني استطعت -بما ادّخرته للزمن- أن أشتري هذا المنزل الصغير البسيط الذي يسمّيه «سعيد» ابننا «خرابه»! لقد أكمل «سعيد» دراسته في كليّة الآداب، قسم اللغة الإنجليزيّة، وكان يحلم بمواصلة الدراسة للحصول على الدكتوراه، لكن لم يكملها بسبب الظروف الاقتصاديّة التي مرّ بها الجيمع وليس نحن فقط. لم يكن في باله أن يعمل مدرسًا لأسباب تتعلّق بشخصيّته الصعبة، وأيضًا بسبب الراتب

الذي لن يكفي للعيش حتى أيام قليلة. اشتغل بأعمال كثيرة لم يحقّق فيها شيئًا قبل أن يعمل سائق تاكسي، لكنّه لم يكن راضيًا عن أيّ شيء، كان عصبيًّا بشكل دائم، كان يشرب، وينعزل تقريبًا ويكتب طوال فترة وجوده في البيت. كان يقرأ بالإنجليزيّة فقط، ثمّ جاءت فرصة العمل مع «نرجس»، يومها قال لي إنّه سيكون مرتاحًا جداً. بالفعل، بدأ وضعه النفسيّ يتحسّن ربّما بسبب الراتب الجيد جداً، اعترف لي مرة بأنّ أحلامًا كبيرة بدأت تنمو في داخله، لم أفهم، لكنّني تمنيت له السعادة كلّها.

عاد مساء ذلك اليوم، وكان قد جلب عشاء من المطعم، دخل إلى البيت وكنت أجلس في الصالة، وضعت العشاء على الطاولة، جلسنا متقابلَين، بادرني الحديث. في البداية تحدّث عن ذكرياتنا في منزلنا القديم، قال إنّه لا يريد أن يصدّق أنّنا نعيش في هذه «الخرابة»، لم يكن سكران بدرجة كبيرة، فأنا أعرفه بالطبع، لكنّني شعرت يومها بالغضب والحزن، اتّهم أباه المرحوم مثل كلّ مرة بتدمير حياتنا، وبّخته، ثمّ حذرته من التمادي في الإساءة للرجل الذي ربّاه. «ربّاني نعم»، قالها بعصبيّة وسخرية ثمّ أضاف: «وماذا ينفع ذلك، تركنا مثل الشحاذين». سكتُّ عن الردّ، لكنّه لم يتوقّف، واصل نبش الأخطاء، قلت: «إنّ الحديث في هذا الأمر لم يعد مجديًا، ويجب علينا -نحن البشر- أن لا نتحدّث عن الخسائر، فهي في النهاية تبذير للجهد، ومرض للقلب». فجأة تحوّل خطابه إلى عدوانيّة، ارتفع صوته درجات ربّما بتأثير الشرب، كرّر اتهامي بأنّني كنت أعلم بتصرفات أبيه كلّها، أعرف أنّه كان يتزوّج ويطلّق كلّ سنة مرة أو مرتين، وأنّني رغم ذلك سكتُّ، حتى إنّني لم أبيّن له أنّني

أعرف. أردت أن أنهض عن الكرسي، قبض على يدي، استسلمت لثقل يده، اعتذر، لكنّه أضاف أنّه يحتاج إلى أن يحكي، وأنّ هناك ألماً مثل الحريق في داخله، سألني لماذا كان مغلوباً على أمري، «حتى القط يخرمش». قال ذلك ثمّ أجاب نفسه بسوال ثانٍ: «هل لأنّك من عائلة فقيرة؟ تزوّجك لأنّك جميلة وحسب؟ هل كنت تشعرين بالدونيّة؟ لم يكن مبرّراً سكوتك فقط لأنّك لست من الطبقة الأرستقراطيّة، لكنّني أعرف لماذا كنت ساكتة، تمسّكتِ بالترف والقصور والملابس، حصلت على أشياء كثيرة، لكنّك لم تحصلي على كرامتك، لم تُظهري شخصيّتك للضوء، كان يتركك ويتزوّج لأنّك لم تكوني الزوجة التي يجب أن تغار وتعترض و(تخرمش)، ماذا لو أنّك تركتِ البيت له؟ لم تعترضي حتى عندما زوّج أختي الوحيدة من رجل أكبر منها بعشرين عاماً!». بكيتُ، لكنّه لم يتركني، لم أعرفه تلك الليلة، كان غريباً عنّي تماماً، ليس «سعيد» الذي ربّيته في حضني، لم يتأثّر حتى بالدموع التي تسيل من عينَي امرأة كبيرة هي أمّه! رفع أصبعه في وجهي: «أنت متواطئة، متواطئة!»، اتّهمني بأنّني منحت والده المساحة الكافية لكي يلعب بأقدارنا، وكان من الممكن –حسب رأيه– أن آخذ منه نصف ثروته على الأقلّ قبل أن يبذّرها، وأن لا أترك البنت بين يدَي زوجها الثاني، «الرجل الريفيّ الأجرب»، حسب توصيفه، «أخذها بعيداً، وأسكنها في بيت صغير في منطقة جنوب البصرة، هذا الأجرب لا يسمح لها بأن تزونا إلّا كلّ سنتين أو أكثر! وقبل هذا كان زوجها الضابط المخنّث»، كنت أبكي كما لو أنّه يفتح جروحاً قديمة بسكين مسنّنة، حمّلني المسؤوليّة كلّها: «هل كنت سعيدة لأنّ ابنتك تزوّجت

ضابطاً كبيراً؟ ولكن ماذا حدث؟ رصاصة طائشة في واحدة من حفلات الشرب التي كان يقيمها في بيته، لا تحقيق ولا شرطة، حتى أبي لم يقدر أن ينطق حتى اسم القاتل، هو يعرفه جيداً، أبي الرجل السيّئ الذي خسر كلّ شيء، لم يدافع عن نفسه عندما أكله شركاؤه البدو الذين صاروا أصحاب السلطة، صاروا أقوياء بسبب ضعف وسوء تدبير الناس الراقين، بدوٌ لا أخلاق ولا علم ولا يخافون الله حتى، أصحاب الكروش، التماسيح الذين كانوا يحيطون به وهو يدعوهم إلى حفلاته، تبخّروا، مات في مستشفى عموميّ بائس مخصَّص لهؤلاء الريفيّين السعداء بأيّ شيء يُمنَح لهم، لأنّهم لم يحصلوا في حياتهم على شيء له قيمة، لم يكن عند الأرستقراطيّ المبذّر مصاريف مستشفى خاصّ!». رددت بصوت منخفض مخلوط بنشيجي: «إلى رحمة الله»؛ أجابني وكان صوته عالياً: «إلى رحمة الله؟ إنّه لا يستحقّ الرحمة، لماذا تترحّمين على الرجل الذي لم يترك لنا ذكرى طيّبة؟ لماذا تترحّمين عليه والشخص الذي اشترى قصرنا في الوزيريّة رجل تافه، سائق شاحنة كان ينقل الطابوق من المعامل إلى البيوت!»، قلت له إنّ السُكر جعل شهيّتك مفتوحة على كلام لا فائدة منه، ردّ بعصبيّة: «yes هناك فائدة، أريد أن أجعلك تتألّمين لأنّك شريكته، القضيّة لا تتعلّق فقط بتبذيره الثروة، لكنّه الزمن، زمن المال، لم تعد هناك طبقات في هذا البلد، هذا لا يعنيني، اختلط كلّ شيء، العالم تغيّر، ليس في بغداد وحدها لكن في كلّ مكان من هذا العالم، أنت متعلّمة وتفهمين ما يحدث». قلت له: «الزمن يا ابني، السياسة،

الصراعات وأشياء كثيرة غيرها، لا تكن حاقداً، الحقد يمنع الرؤية، ويقرّب الأوهام، وينسج قصوراً من خيال».

لكنّه لم يكن يسمع إلّا ما كان يفور في داخله، قال إنّه سمع مثل هذا الكلام كثيراً، وهو كلام العاجزين، فالمال وحده ما سيجعله يعيش حياته بالطريقة التي يرغبها ويتمنّاها، أدار دفة الحديث إلى أقربائنا الذين صفّوا كلّ شيء، باعوا عقاراتهم، جمعوا أموالهم وهربوا خارج البلد، في الوقت الذي كان أبوه يلعب القمار ويبعثر الأموال في بيوت الدعارة والحفلات، قال إنّ الناس ذهبت إلى أميركا وأوروبا، صار لديهم شركات، يسافرون كلّ يوم إلى بلد، work، business، business، فلوس ومتعة. قال إنّه سيفعلها، سيستولي على ثروة «نرجس» ويذهب إلى بريطانيا، اعترف لي بشكل مباشر في تلك الليلة بخطّته، وبأنّ المرأة التي يعمل عندها سائقاً قوّادة، لم أقل له شيئاً سوى جملة واحدة مليئة بالألم: «الله يطيح حظك»، حاولت أن أوقظه، قلت له إنّه يقوم بعمل مخزٍ، لكنّه ضحك وقال إنّ تعبيري من النوع الذي يستخدمه الريفيّون، وإنّه سوف ينتشل اسم العائلة من الحضيض (من طيحان الحظ) التعبير الذي استخدمتُه، قال: «ليس جائزاً وعادلاً أن نعيش إلى الأبد مع الحشرات والـ(عربنجيّة)، عندما يرى الناس سيارة أبي، يبولون على أنفسهم من الحسد والخوف». ضحكتُ أيضاً بألم وقلت له: «تجعل الأوهام والخيالات الصحراءَ غابةً وبساتينَ في لحظة، لكنّ الصحراء في الحقيقة رمل، رمل فقط، بعضه يبتلع المرضى مثلك. لا يعود الزمان إلى الوراء، وبعض الأشياء تذهب بالطريقة نفسها التي يذهب بها الناس إلى

المقابر، لا يمكن استرجاع ميت من مقبرة، هذه القوّادة التي تقول إنّ زبائنها على مستوى، التي لها علاقات قويّة وثروة كبيرة، لن تنظر إليك إلّا لكونك سائق، أنت مجرّد سائق، عامل لديها وحسب! لن تقدر على لمس يدها حتى وليس قلبها وحسب، هذه قوّادة، ومن المؤكّد أنّها قبل ذلك كانت قحبة، والمال الذي جمعته لم يهبط عليها من السماء، أليست في الأربعينات من عمرها كما تقول؟ ليست مراهقة وليست سهلة، أنا متيقّنة أنّ الناس الذين تمرّغوا في الوحل لديهم هواجس وأشياء تشبه الرادارات، ليس بالسهولة خداعهم، حتى لو كانت الطريقة هي (العشق)».

انطفات الكهرباء في أثناء ذلك، نهض بحثًا عن شمعة، أشعل واحدة كانت في في خزانة المطبخ، نهضتُ أيضًا وأشعلت واحدة في غرفتي. كان في المطبخ يشرب، وكنت أشعر بحرقة في قلبي، كنت أريد أن أذهب إليه لأحتضنه مثلما كنت أفعل وهو في الخامسة من عمره أو السادسة أو العشرين، لم أتحرّك، كنت غاضبة منه وكان جسدي يرتجف، وحين سمعته يخرج ويضرب باب الدار بقوة، شعرت بأنّ قلبي يطير من مكانه، كنت أريد أن أصرخ خلفه، كنت دائمًا أحب احتضانه حتى عندما صار رجلاً في الثلاثين، لكنّني في تلك اللحظات، شعرت برغبة في احتضانه أكبر من أيّ مرة.

سيرة ما تأخذه الريح

لو أنّنا -نحن البشر- نقدر على إيقاف أعمارنا عند سنّ معيَّن، عمر نشعر فيه بأنّنا سعداء فعلاً، لا خترنا الطفولة ربّما، أنا -شخصيّاً- سأختار الفترة التي عشت فيها هناك، في بيتنا القديم الذي يقع في البتاوين، كان لي به أب وأمّ وأخ أكبر منّي، منعزل وغريب، لكنّه -كما أظنّ- لن يبخل بعطفه عليّ إذا احتجته، لكنّ كلّ شيء تبدّل، كلّ شيء، أنا أيضاً تغيّرت ولم أعد «نرجس» البنت في الثالثة عشر من عمرها، آخر عهدي بالأيام الجميلة، لقد نسيتها، كما لو أنّها ليست منّي، انسلخت عنّي وذهبت بعيداً مثل صورة عابرة، تبدّل الآخرون، العالم حولي كلّه تبدل. يغيّر الزمن كلّ شيء، لكنّنا -رغم ذلك- لا نقدر أن ننسى هذا الـ(كلّ شيء)، يا ريت ننسى، ياريت! يا ريت نمسك طفولتنا ونثبّتها في مكانها، لا نأخذها معنا إلى عالم الكبار عندما تتسلّل إلينا الكراهية. مساكين نحن البشر، مساكين كلّنا وأشرار في الوقت نفسه، نعتقد أنّنا نفعل الأشياء الصحيحة، لكنّنا في الحقيقة نغلط دائماً، نغلط حتى النهاية، ولا نكتشف أبداً أنّ ما مرّ بحياتنا كلّه وهم، وُلِدنا من الوهم، عشنا في الوهم، وسوف نعود إلى الوهم!

أتذكّر أنّني رجعتُ من المدرسة في يوم، يوم بعيد فعلاً كأنّه حلم، لن أحكي قصة حياتي، لا، لا أبداً. أحكي عن أحلام، الواضح منها كأنّه حدث قبل دقيقة، وعمّا كان منها كأنّه منذ البداية مغلَّف بالضباب، منها ما

جعلني أُحسِن الظنّ بالعالم فترة طويلة، ومنها ما جعلني أغسل يديّ من الخير. ما الخير؟ لو سُئِلتُ الآن لن أستطيع أن أجيب. أيام الطفولة حلوة، لكنّ الزمن لم يعطِ أحداً صكّ الأمان، أبداً لا يوجد أمان، أبداً! ولم يعطِ المستقبل البشر أخباراً عمّا سيحدث معهم. من جانب، هذا أفضل، أنا – مثلاً– لو عرفت ما سيحدث لي لبحثت عن طريقة ما كي أبقى طفلة ولا أكبر، طبعًا هذه خيالات. عندما نكون صغاراً نريد أن نكبر، وعندما نكبر نقول: يا ريت لو بقينا أطفالاً بعيدين عن مكر الكبار. نتمنى أن لا تنكشف لنا أيّ معلومات عن فساد قلوبهم. الله، إذا كان هناك ربّ! لا أدري، لكنّه على كلّ حال يعاقب الناس دائمًا على أفعالهم، هو يعرفهم عندما يتظلّمون ويبكون على الرغم من كونهم فاسدين، هو يعرفهم، ونحن – لو بقينا بعقل الطفولة – سنفعل الأشياء بطريقة مختلفة ليس فيها خطط ومؤامرات، حتى لو كانت هناك مؤامرات، فهي أشياء بريئة ومكشوفة للكبار. في النهاية دخلت البحيرة التنة، بحيرة الكبار الذين يخططون، وصرت فاسدة مثلهم، رغم ذلك أشعر بالظلم لأنّني لم أبقَ طفلة، هذه أمنيات مستحيلة طبعًا. يكبر الأطفال ويدخلون الحلبة القذرة نفسها، والله يعرفهم أيضًا، فالجميع يقولون إنّ الله يعرف كلّ شيء! إذن هو يعرفهم وسوف يعاقبهم بطريقته، يعاقبهم، لكنّهم لا ينتبهون إلى أنّ ما يجري لهم عقاب! وأنّ الله هو مَن أقرَّه، وهذه هي المشكلة. نمرّ كلّنا بأحداث سيّئة، الأسهل أن نقول: «الله مَن قدّرها»، أن نطلب اللطف منه، لكن لا أحد منّا يفكّر في أنّ ما يفعله من صنع يديه. كبرت، لكنّني دائمًا ما

أشعر بأنّني مغدورة، يبدو أنّني أتكلّم كلامًا كبيراً وغامضًا، لكن لا أحد سيقرأه، إنّه شيء لي وليس لأحد، لا أتكلّم مثلما تتكلّم القوّادات. بالنسبة إليّ، أحتفظ بقاموس صغير، سمعت القليل منه وحفظته في بيتنا القديم، لكنّ حجمه ظلّ يكبر يوم بعد يوم، قاموس البيوت الرطبة المليئة برائحة (البزر)، أقصد سوائل الرجال في بيوت مشبعة برائحة البول والقذارات، لكنّني لم أستخدمه إلّا ما ندر، أقصد قاموس الزبالة هذا لم يتغلغل في لساني، في تلك الأمكنة المختنقة برائحة تثير القيء، بيوت الدعارة، توجد أزهار متعة، الذين يأتون لكي يكتشفوا فقط هذا العالم، أزهار منفردة تظهر بشكل مفاجئ أمامنا نحن الذين يسمّوننا «عاهرات»، رجال مثل الأزهار، لكنّنا لا نستطيع الاقتراب منها حتى لا ننشغل بها، حتى لا نعشقها، نحن الذين تورّطنا ودخلنا حلبة وحشيّة، أيادينا متسخة وسوف تلوّث الأزهار، ورائحتنا خانقة فلا تستطيع أنوفنا أن تشم عطرها، لكنّها أزهار تبقى مثل الحلم، شباب يمرّون مثل أطياف، مثل الأحلام التي تعبر وتموت في داخلنا. أنا أيضًا أستخدم كلمات مثل «قوّادات» و«قحاب»، لكن عندما أحتاجها فقط، عندما أشعر بضرورة استخدامها، هم يريدونني أن أستخدمها حتى يشعروا بأنّهم أفضل منّي، وقاموسهم أفضل وأنظف من قاموسي. على أيّ حال، أنا الآن قوّادة على مستوى، كما يقولون. مستوى! حتى القوادة مستويات، رغم أنّ سلاح الرجل واحد، وعدة المرأة نفسها، الرائحة نفسها والكلمات نفسها. لا أريد أن أبيّض صفحتي، فهي سوداء والحمدلله، ولا أحتاج إلى تغييرها، لا أحتاج أن

يصفني أحد بأنّني إنسانة جيدة، لم يعد يهمّني أن أكون كذلك. يسمّونني «الحاجة» فأضحك في داخلي. كان هذا في البداية، ثمّ تعودت على اللقب، واللقب -على أيّ حال- لا يعني شيئًا، تمامًا مثل كبار ضباط الأمن والمخابرات عندما ينادونهم «حجي»، خرج الحجي ودخل الحجي، قال الحجي ونام الحجي، أنا لا أهتم بأن يقال عنّي شريرة، شيطانة أو فاسدة، الفضيلة والرذيلة لا تعنيان شيئًا معيّنًا بالنسبة إليّ، كلاهما في كفّة ميزان واحدة، لكنّني أريد أن أحكي، فقط، هي رغبة جديدة بدأت تضغط عليّ رغم خطورتها، لكنّني سأملأ هذا الدفتر، وحين أنتهي سأحرقه. نعم، أكتب كلّ شيء ثمّ أحرقه. يقولون إنّ الكتابة عمليّة حرق، لقد سمعت الكثير من هذه العبارات. أحكي ربّما قصصًا عن هؤلاء الذي يدّعون الشرف، رجالاً ونساءً، شرفاء تلمع واجهاتهم، الواجهة بس، وما وراء الواجهة شيء عجيب. منهم مَن يعلم أنّ زوجته تنام مع صديقه، في بيته وعلى سريره، وهو يعرف، لكنّه يتصالح مع الوضع، زوجته تعرف أنّه يعرف، وتعرف أنّه بدوره ينام مع زوجة آخَر يعرف كذلك. منهم مَن يحب أن يرى شخصًا آخر يعاشر زوجته، يتفرج عليهما أو في أقلّ الأحوال يطلب منها أن تحكي له كيف عاشرها الشخص الآخر. منهم مَن يعيش مع زوجته منفصلَين، كلّ واحد في غرفة، سنوات وهما يعيشان معًا، لكن لكلٍّ منهما حياته وغرفته المنفصلة، لها عشيقها وله عشيقاته. منهم من يجيء إلى بيت القحاب، يدفع أضعاف المبلغ كي يعاشرها من دبرها لأنّه لا يستطيع أن يطلب من زوجته ذلك،

على الرغم من كونها تفعلها مع غيره، وهو يعرف أنّها تفعلها، لكنّه يواصل تمثيل دور الغافل. هناك قصص أخرى لا يمكن تصديقها، بل إنّ العاهرات أنفسهنّ يتعجّبنَ منها، قصص المحارم، الأم، الأخت، الخالة، العمّة وزوجة الأب. قصص اغتصاب (تشّيب الراس) قصص، قصص، قصص. الحقيقة أنّ الكبار يعيشون في مستنقع (خايس)!

دعيني أحكي عن الطفولة أحسن، مرة عندما كنت في أول سنة مراهقة، وقفت في الغرفة أمام المرآة، ربطت قطعة قماش على خصري وبدأت أرقص على موسيقى شرقيّة، كنت أقلّد راقصة قديمة اسمها «نجوى فؤاد»، ثمّ أصابني شيء من الجنون، كنت أرقص وأنزع ملابسي، رميتها على الأرض قطعة بعد قطعة، لم يكن في البيت أحد سوى مريم التي قد تركتها في المطبخ. أعجبني جسدي العاري، دخلت مريم ولم أشعر بوجودها بسبب صوت الموسيقى وتركيزي على جسدي في المرآة، إلى صدري الذي بدأ ينبت فيه ثديان ناضجان قبل وقتهما، أنظر إلى مؤخرتي المستديرة، فوجئت بها تصرخ بي، توقفت، ثمّ بفوضويّة بدأت أرتدي ملابسي، ظننت أنّ سامي دخل البيت دون أن أنتبه، قالت لي: «أعتقد أنّك سوف تصبحين راقصة أو قحبة، راقصة وقحبة ربّما». يبدو أنّ «مريم» جاءها الوحي في ذلك اليوم، تنبّأت بمستقبلي، أصبحت قحبة، قحبة وقوّادة، لكنّني لم أتعلّم الرقص!

المهمّ، في الطريق، عند عودتي من المدرسة، كنت أفكر في رائحة الخبز الساخن ومرق الفاصولياء. صباح ذلك اليوم قلت لـ«مريم»، و«مريم»

أمّي، اسم حلو، أليس كذلك؟ لكنّ الأسماء لا تدلّ على حامليها في أغلب الحالات، قلت لها: «اطبخي اليوم فاصوليا!»، قلت ذلك بدلال وغنج، أفعل ذلك كلّما أطلب شيئًا، أصير ناعمة، ابتسمَتْ وقالت: «حاضر»، وهي تربط شرائطي الحمراء على شعري الذي كان طويلاً وناعمًا، والآن صار قصيراً وخفيفًا، إنّه الزمن! أضافت: «اليوم فاصوليا لأحلى نرجس في العالم». هكذا كانت تردّ عليّ بشكل عام، فقدْ عشت طفولتي ولم يحدث ما يفسدها خلال سنوات قناعتي بأنّ لي أمّا طيّبة تحبّني، شابّة جميلة، كانت تخاف علينا من نسمة الهواء كما يقولون، تقبّلنا، تغطّينا ولا تتركنا حين نبكي حتى نضحك. على أيّ حال، هذا شيء ليس استثنائيًا، إنّه بالضبط ما تفعله الأمّهات عادةً، ما أريد أن أقوله إنّ «مريم» كانت أمّا جيدة قبل أن تنقلب أحوالها وتصبح خطِرة على نفسها وعليّ أنا بالذات، هكذا كنت أراها وأنا طفلة حتى بلغت سنّ المراهقة. كانت مدرستي في البتاوين، قريبة من بيتنا، أصل إليها وأعود قبل «سامي» الذي يتأخر لأنّ مدرسته في الكرادة. وكانت «مريم» في الحقيقة أقرب إلى «سامي»، تعطف عليه أكثر. نحتاج -نحن البشر- أيضًا إلى الوقت لكي تنكشف لنا بعض الأمور، فبعد عشرين سنة أو أكثر، بدأت أقترب من الإجابة التي كانت غامضة في ما يخصّ «سامي»، فقد كان مرحًا في مرحلة ما، لا أتذكّر كم كان عمري فيها، فجأةً بدأت أنتبه إلى تغيير أحواله، أصبح منعزلاً، حتى عندما كنت أسمع حديث «مريم» مع «حسوني» في خصوصه، لم أكن أفهم، ولم يكن في حوارهما

إجابة واضحة، لكنّني فهمت أو اقتربت من فهم الحقيقة، فقد تذكّرت حديث «كلاوديس» و«مريم» عندما كان «سامي» في الثامنة أو أكثر أو أقلّ قليلاً، قالا إنّهم لعبوا به، مَن هم الذين لعبوا به؟ ظلّ هذا السؤال دون أجابة. سمعت مرة «مريم» تسأله عندما وجدْته يبكي في غرفته: «ابني شسَوّولك!». أظنّ -لست متأكّدة- أنّ «سامي» تعرّض للاغتصاب في تلك الفترة، ربّما كان ذلك سبب انعزاله ولا مبالاته وكراهيته ربّما لكلّ شيء وشعوره بعدم الثقة بمَن حوله، وخوفه غير المبرّر. لم يكن يجلس معنا إلّا وقت الطعام، يجلس صامتاً، يأكل كما لو أنّه يتناول طعامه دون شهيّة، يأكل وينهض، ليكون باقي وقته موزَّعاً بين المدرسة وواجباته، بين ألعابه ومجلّاته وبعض الكتب التي لا أتذكّر من أين كان يحصل عليها. كنت أدخل إلى غرفته دائماً، لا يعترض ولا يمانع حين أتفرّج على المجلّات، لكنّه في كلّ الأحوال كان قليل الكلام.

«مريم» اسم أمّي، في ما بعد سيظهر لها اسم آخر، لكنّني لم أهتمّ به مثلما لم أعد أهتمّ باسمها الأوّل، لم تعد تعنيني كأنّها لم توجد في حياتي، أنا فقط أريد أن أحكي عن السنوات الطويلة التي كنت أناديها فيها: «مريم»، قبل أن يظهر اسم «سناء» مثل النيزك الذي نراه في السماء لحظةً ثمّ يختفي. في المناسبة، هذه أول مرة ألفظه على لساني. تغيّرت مشاعري في ما بعد تجاهها، ليس بسبب الاسم، فهو اسم ولن يغيّر شيئاً، لكنّني شعرت بالخديعة، ظهرت لي بصورة أخرى حتى قبل أن تصبح قاسية وذات ميول إجراميّة. في البداية، خلال مرحلة طفولتي وجزء من

مراهقتي، كانت مبتسمة أغلب الوقت، صحيح أنّ عراكها مع «حسوني» يتكرّر دائماً، لكنّها تنظر إلينا -أنا و«سامي»- بعاطفة، تبتسم حتى يظهر الصفار الذي تراكم على أسنانها بسبب تناولها الشاي بوفرة والسجائر أيضاً، لم تكن تعتني كثيراً بأسنانها، لكنّها على الرغم من ذلك كانت رائعة، بصوتها ولكنتها ونشاطها وحضورها. أتذكّر هذا المشهد دائماً ولا أعرف لماذا! طرقتُ الباب وفتحت لي، كنت يومها مرتديةً تنورة قصيرة وجوارب بيضاء وحذاء أبيض، شممت رائحة الفاصولياء والخبز، راقبْتني وأنا أقفز في باحة الدار التي تتوسّط الغرف الثلاث والمطبخ والحمّام، كانت تراقب حركاتي كما لو أنّني فراشتها الرقيقة. ذهبتْ إلى المطبخ، دخلتُ إلى الغرفة لكي أغيّر ملابسي، كنت جائعةً، لكنّني أعرف أنّها ستقول لي: «يجب أن ننتظر سامي وحسوني»، سمعت حركتها، أقصد صوت حذائها الجلديّ الأسود الذي حرصت على لبسه حتى في البيت، كان هذا الصوت قد شكَّل في رأسي على مدى سنوات نغمةً متناسقةً على أرضيّة (الحوش) المبلَّط (بالفرشي). كانت تسمح لي أحياناً بارتدائه، كان واسعاً على رجلي، رغم ذلك كانت تستسلم للضحك، أتذكّر ضحكتها دائماً، كنت أقول لها: «صديقاتي كلهنّ يكولون أنت كولش حلوة!»، وأنتظر تأكيدها، لقد حفظته، لكنّني أحب أن أسمعه دائماً: «طبعاً أنت أحلى وحدة بالعالم بس الله يستر منك!»، لم أفهم في ذلك الوقت لماذا كانت تقولها بهذه الطريقة، جملة عبارة عن خليط من الحب وعدم الرضا، لكنّني فهمت حين كبرت قليلاً أنّ جمالي وجسدي المثير

الشهوانيّ جعلاني هدفًا لتلك النظرات المخيفة من الشبّان، بل ومن الرجال الذين كانوا بعمر «حسوني» أيضًا. تردّد الجارات جمل الإطراء الموجّهة إليّ دون أن يحسبنَ حسابًا لغيرة بناتهنّ الصغيرات، لقد كانت البتاوين غير الآن. تغيّر كلّ شيء، الناس والمدينة وحتى رائحة الطعام والشوارع، لم يعد العالم يغريني كثيراً ولم يعد يدهشني شيء، أريد أن أبقى بعيدة عن الكوارث، أن أشعر بالأمان، والطريقة الوحيدة لذلك أن أحافظ على الوحش الذي في داخلي، أطعمه وأهتمّ به ليكون مستعدّاً لغرس أنيابه في قلب أيّ شخص يشكّل وجوده لي نوعًا من الخطر. لقد عانيت كثيراً، و«نرجس» لها صورة أخرى مخفيّة، شاحبة خلف هذه الواجهة اللامعة، هؤلاء الذين يجيئون إلى هنا، يبحثون عن المتعة، الحياة التي يتمنّونها ولا يتسطيعون عيشها في العلن، إنّهم يبحثون عن الزوايا السرّيّة التي تحيطها الأسوار العالية والستائر المسدَلة، الحياة الأخرى المفضَّلة مع الاحتفاظ بالصورة المزيّفة التي يواجهون بها الناس. كلّهم جوعى ومتصدّعون بطريقة ما، خاصّة مَن كان له علاقة بالسلطة، يأكل الخوف قلوبهم، المؤامرات والمكائد، أعرفهم واحداً واحداً، أعرف أسرارهم، أقدّم لهم ما يريضي رغباتهم المنحرفة، أريدهم دائمًا في حاجة إليّ مثلما أنا في حاجة إليهم، فهذا العالم متوحّش وأنا أريدهم لأجل المال والأمان، زبائن بيننا مصلحة متبادَلة، أوفّر لهم بنات صغيرات بعمر بناتهم، بل بعمر حفيداتهم، ويوفّرون لي في المقابل ما أريد من مال وقضاء حوائج، يريدون اللحم الطريّ الساذج وأريد السلطة من خلالهم، منهم

«الحاج رافع»، لقد أحبّني، وهذا ليس غريباً على الرغم من مخالفته ظاهرهم القاسي الصلب، فهم يعشقون، بل يتخيّلون أنفسهم أبطالاً في فيلم رومانسيّ، لكنّ أفلامهم قصيرة، تنتهي بسرعة وجوعهم باقٍ، لذلك يبحثون له عن فيلم آخر، وهكذا. إنّهم جوعى إلى الحب، لكن إلى الحب العابر السريع، هذه هي مشكلتهم، لأنّهم يدركون أنّ حب الروايات، (قيس وليلى) مثلاً، يجعلهم مكشوفين، ليس بالصلابة التي يظهرون بها. الحب يعني سقوطهم وربّما موتهم، لذلك يفضّلون دور البطولة في فيلم رومانسيّ قصير كما فعل «الحاج رافع»، قال إنّ الرئيس نفسه وبّخه وهدّده، وإنّ هناك كلام يتعلّق بسمعة العائلة، سمعة! يا للمهزلة! لكنّه ترك لي هذا القصر، سجّله باسمي في مرحلة العشق، إنّهم يعشقون ويبذلون كلّ شيء، لكنّهم يتخلّون عن اليد التي صافحوها، يتخلّون بالقوة نفسها التي كانوا يقبضون بها عليها كما حدث مع «حسوني»، أبي الذي غاب كأنّه لم يكن، عاشق آخر هرب في النهاية كأنّ حياته مع «مريم» كذبة، خطأ! يخطئ البشر دائماً، نخطئ كلّنا ونريد مَن يسامحنا دائماً، نسلك الطرق كلّها للحصول على هذا التسامح، لكنّنا لا نفعلها، القلب خزان الضغينة، إسفنجة تحتفظ بسوائلها المتعفّنة. نغلط دائماً وتصير قلوبنا عبارة عن طبقات من الكراهية، ضدّ أنفسنا وضدّ الآخرين.

كانت «مريم» جميلة فعلاً، في ما بعد أصبحت ممتلئة الجسم، تبدو كذلك فقط عندما تلبس ثوبها الضيّق في الدار، لم أرها يوماً دون أن ترتدي ثوباً ضيّقاً، ربّما لأنّها كانت مكتنزة الجسم. كان «حسوني»

يمارس عادة مضحكة، مضحكة لطفلة بالطبع، في ما بعد عرفت أنّ تلك الحركة فيها إثارة ربّما له ولها، كنت أضحك عندما يضربها على (كفلها) فترتجّ، يفعلها أمام أنظارنا، أنا و«سامي»، كنت أضحك، لكنّ «سامي» طفل غريب لا أتذكّر أنّه ضحك يوماً، كنت أفسّر الحركة التي يقوم بها «حسوني» بأنّها نوع من اللعب، لذلك كنت أجرّبها أيضاً، حدث ذلك أول مرة قبل عام من دخولي المدرسة، كنت أمزح مع «مريم» وفجأتها بضربة على مؤخّرتها، لم تعترض، بل ضحكتْ وضحكتُ أيضاً، بعدها كرّرت الأمر مراراً، قالت لـ«حسوني»: «علّمت حتى هاي الشيطانة تضربني على كفلي».

كانت مريم طويلة، وكان بياضها مختلطاً بصفار وفمها واسعاً قليلاً بشفتين ورديّتين رغم اختلاطهما بما تخلّفه السجائر من لون يميل قليلاً إلى البنفسجيّ. «اتركي التدخين مريم، على الأقل من أجل صحتك»، سمعت هذه الجملة مرات عديدة من «حسوني»، وكان أحياناً يقولها بعصبيّة، ولم يكن الأمر ينتهي عند النصيحة فقط، فهو يعرف أنّ نصيحته لن تلقى استجابة حقيقيّة، كان يتطوّر الحديث بينهما أحياناً إلى عراك، إذ يريد أن يجعل الأمر حقاً زوجيّاً، كونه زوجاً يأمر وينهي، يمنع زوجته من ممارسة فعل لا يرضاه، وهي عنيدة، «مريم» عنيدة جداً، لا يقدر أن يمنعها. هدّدها مرات عديدة بالطلاق، كانت تضحك من تهديداته، حصل ذلك عندما كنت في التاسعة، صمت «حسوني» دقيقة واحدة، كانت تضحك وانتهت المعركة باتفاق ضمنيّ يعرفانه معاً، فلا يمكنه أن يطلّقها

ولا يمكنها أن تتخلّى عن سجائرها. أعتقد أنّ «حسوني» كان يحبها جداً، وهي كذلك، ولطالما شاهدته يقبّلها بحميميّة، سمعته يقول لها: «أحبك»، وسمعت ذلك منها أيضاً. لم يهتمّا كثيراً لعينَيْ طفلة ترى تحت الإضاءة الشاحبة أمّها وأبيها عاريَين ويقومان بألعاب غريبة، بل يصدران أصوات غير مفهومة، ويتحرّكان بطريقة مضحكة!

تحكي لي «مريم» أنّه لم يكن لنا أقرباء، وعلاقتنا مع الجيران لم تكن قويّة أيضاً، استغرق الأمر طويلاً حتى نشأ نوع من التواصل بين «حسوني» وزوج «كلاوديس»، واحدة من معلّمات المدرسة القريبة من الكنيسة. يبدو أنّ حديثاً عابراً نشأ بينهما، شرح فيه الرجل معاناة «كلاوديس» لأبي، كانت عاقراً، حكى «حسوني» لـ«مريم» أنّ محاولات «كلاوديس» كلّها فشلت في إنجاب طفل. وحكت لي «مريم» في ما بعد أنّ «كلاوديس» زارتنا في اليوم التالي، حدث ذلك بعد مرور أكثر من عام على إقامتنا في هذا الشارع، قالت لي: «إنّني محظوظة، وقد اعتنى الرب بي فمنحني ولداً وسيماً وبنتاً مثل القمر». لم تفصح لـ«كلاوديس» عن قصتنا، ولا لأحد آخر، ولم يفعل «حسوني» ذلك أيضاً. في ما يتعلق بالدين، فشل الجميع في معرفة إلى أيّ ملّة ننتمي، لم نكن نذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، ولم يكن «حسوني» يصلّي في الجامع، ولم نتبادل تهاني الأعياد مع أحد، ليس في حديثنا أيّ إشارة إلى كوننا من المسلمين باستثناء بعض الجمل الجاهزة مثل: «إن شاء الله» و«الله كريم». ظنّ بعض الجيران أنّنا من اليهود رغم أنّ لا يهود في البتاوين، هاجر كلّهم إلى إسرائيل أو إلى بلدان أخرى، لا

أدري إذا كانت هناك بعض العوائل، ربّما كان هناك صابئة. سألت «كلاوديس» زوجها عن هذا الأمر، سمعت ذلك بالصدفة، لكنّه صمت عندما لمحني ولم يجبها، لكن أن يظنّوا أنّنا شيوعيّون أمر منطقيّ، فالكلّ يتحدّث عن عراك الشيوعيّين والقوميّين. المهمّ، كانت الأوضاع السياسيّة في تلك الأيام مضطرِبة ومتغيِّرة بين يوم وليلة، تحوّل التحالف بين الزعيم والشيوعيّين إلى مجزرة في ما بعد. قوميّون معارضون يتقاتلون على السلطة، إعدامات وسجون واغتصاب، الجميع يريد الحصول على هذه الجوهرة، السلطة التي تحرق في النهاية صاحبها، وكان هناك ناس يحلمون بعودة الملكيّة، وناس آخرون عاشوا على الخيالات القديمة. السياسة أحوال وأحوال، لكن أنا و«حسوني» لا علاقة لنا بهذه (السوالف) كلّها، ولا بأيّ شيء آخر، كأنّنا نعيش وحدنا، وكأنّ العالم حولنا أشباح أو أطياف.

عندما كبرت قليلاً عرفت أنّ «حسوني» كان يعمل في محلّ لبيع الخزفيّات في الشورجة، كنت في الثانية عشر تقريباً عندما حكى «حسوني» لنا -أنا وسامي- قصة تعارفهما، حكى لي أنا تحديداً لأنّ «سامي» كان من النوع الانعزاليّ، قليل الأسئلة والكلام، منطوياً ولا يهتم لشيء، إذ فشلت محاولات «مريم» و«حسوني» كلّها في تغيير سلوكه أو معرفة الشيء الذي يجعله لا يشبه باقي الصبيان، كانوا قلقَيْن في البداية عليه، ثمّ تركوا الأمر، الحقيقة أنّه كان طيّباً كما يبدو لي، لكنّه لا يبتسم إلّا ما ندر، منشغل بنفسه، كتبه وألعابه، ينام كثيراً، وكنت أحب أبي، أحب حكاياته،

أحبه، ولم يبق شيء منه سوى ذكرى من ضباب، صحيح أنّه اعترف لي بأنّه قاتل، لكنّه رجل طيّب، محترم وحنون في عين «نرجس» المراهقة التي كانت في الثالثة عشر، اعترف لي لأنّه كان يحتاج إلى شخص يثق به، لم يكن يثق حتى بـ«مريم»، لذلك وضع سره عندي، في تلك الفترة كانت «مريم» قد تغيّرت، صارت عصبيّة دائمًا ومزاجها سيّئ، أصبح صوتها عاليًا دائمًا، وتكرّر بعض الكلمات التي يقول عنها «حسوني»: «كلام قحاب». لا أعرف ماذا حدث لها أو لهما، من الواضح أنّني لم أنتبه لأنّني كنت طفلة ولم أفهم، لكنّ وضعها ظهر لي مختلفًا بشكل مفاجئ. حكى لي «حسوني» مرات عديدة، في الليل كان يناديني لنجلس معًا، كنت أشعر به حزينًا، يبدو الحزن في عينيه وهو يمسك يدي، أشعر بأنّه يريد أن يضع رأسه في حضني، كان صوته دافئًا عندما يتكلّم، يدخّن ويحكي، يدخّن كثيراً ما دام يحكي، لا يُفلِت السيجارة من بين أصابعه وفمه. تكون «مريم» نائمة عادة، كانت تنام كثيراً في السنتين الأخيرتين، و«سامي» كذلك. مرة سهرنا -أنا وحسوني- حتى الصباح. في تلك الليلة أعاد على مسمعي القصة كاملة، لكنّني هنا سوف أحكي ما يتعلّق بالسرّ الذي لم يُبح به لأحد. كان واثقًا أنّني لن أكرهه أو أخاف منه أو أفضح لأحد بسرّه، يعرفني كتومة على الرغم من صغر سنّي. أنا و«هادي الحمزة» الذي لم يتحدّث لي عن سرّ علاقته به واستمرارها رغم كلّ شيء. قال:

«عندما كنت في الثامنة عشر، حدثت مشكلة بيني وبين ابن عمّي الوحيد، كنّا في حالة من العصبيّة، شتمني أو سخر منّي. اسمعي يا

«نرجس»، حتى الحروب أحيانـًا تبدأ بشرارة، في إحدى المرات ضرط شخص قرب شخص ليس عنده عقل ولا مروءة، قال له: «أبو ضرطة»، ثمّ ضحك ولم يتوقّف؛ شعر الشخص الذي ضرط بالإهانة، وكان متأكّداً أنّ سرّ ضرطته سوف ينتشر، وسوف يلتصق لقب «أبو ضرطة» به وبأولاده حتى آخر العمر وينتقل إلى الجيل الثاني من عائلته؛ سحب خنجره وطعن الآخر الذي كان يضحك، فسقط ومات وعلى فمه ضحكة جامدة. كانت طعنة غشيم في القلب أو ربّما في حالة هياج فأراد قتله والتخلّص منه. المهمّ، هذا مثال كي تفهمي ما حدث لي، كانت المشكلة سخيفة أيضـًا، أقصد مشكلتي مع ابن عمي الذي قال إنّني مثل البهيمة، لماذا مثل البهيمة؟ لأنّني لا أصلّي ولا أصوم، ولأنّني تربية خالي الذي لقّبه بـ«البهيمة» أيضـًا. كان ابن عمّي مراهقـًا أحمق وسخيفـًا، ورث هذه الطبائع من أمّه، ضربتُه بمسحاة كانت قريبة منّي، لم أكن أقصد أن أؤذيه بشكل كبير، بل كان قصدي أن أترك أثراً في جسمه، ذكرى تمنعه من الإساءة إليّ في ما بعد، لكنّ الضربة جاءت على رأسه؛ فمات. لا أريد أن أذكر لك الكثير من التفاصيل، حدث ذلك قبل سقوط الملكيّة بسنة ونصف السنة تقريبـًا. بالمناسبة، شاهدتهم عندما كان يسحلون رئيس الوزراء في الشارع، كنت حاضراً في شارع الرشيد بعد محاولة اغتيال «عبد الكريم قاسم» وكنت قريبا أيضـًا في الميدان عندما قتلوه في وزارة الدفاع، حينها كان عمرك سنة واحدة. على أيّ حال، أعترف لك لأنّني أثق بك، لقد مرّ زمن على هذه الحادثة، كنت شابّـًا نصفَ ريفيّ، فقدْ عشت في

المدينة منذ أن كان عمري سبع سنين، أنهيت الابتدائيّة وسنة أولى في المتوسطة. في العطلة أكون في بيت أبي، جدك، وما تبقّى من السنة في بيت خالي في الحلة، كان رجلاً رائعًا، سمعت أنّه قُتِل في أثناء الانقلاب على «عبد الكريم قاسم»، وصلت إلى بغداد من الديوانيّة من أجل العمل، هذا هو جوابي لمَن يسألني، لـ«مريم»، «شكيب» وغيرهما، والحقيقة أنّني وصلت هاربًا خائفًا، وكانت حياتي مثل كابوس، لكنّني عشتها في النهاية. عرفت أسرار بغداد، محلّاتها، أزقّتها وزواياها السرّيّة، صرت ابنها رغم أنّني لم أكن قد زرتها إلّا مرتين أو ثلاث مرات قبل وصولي إليها. ضيّعتني بغداد، قطعت علاقتي بعالمي القديم، تهت فيها لأنّها كبيرة ومزدحمة، حنونة وقاسية، جميلة، لكنّها لا ترحم. لا يعرف الناس هنا بعضهم ولا يهتمّون، مشغولون دائمًا، ناس من كلّ لون وصنف. على أيّ حال، كنت وسيمًا، وسيمًا جداً بعينين برّاقتين. لم يكن شاربي كثيفًا، كنت شابًّا صغيراً حنطيّ اللون، وذلك ما أعجب «مريم» أول لقاء بيننا، الآن صار أقرب إلى البياض كما ترَين. تعرفين أنّ عملي في الظل، نادراً ما تشعّ الشمس عليَّ. في البداية عملت في البناء وكنت خائفًا حذِراً مثل ذئب، أنام بعين واحدة، حتى الآن أنام بعين واحدة، نومي خفيف جداً، يفزّزني حتى طنين الذبابة، لم أتخلّص من الخوف رغم أنّني أعرف أنّ لا أحد يطاردني، لقد هربت من الجميع، الحقيقة أنّني هربت حتى من نفسي، من يدي التي قتلت بها ابن عمّي. مرّ عامان حتى تعرفت إلى «شكيب»، رجل من الموصل، تاجر خزفيّات في الشورجة، صرنا أصدقاء بسرعة.

اسمعي، تجمع طاولة الشرب في البارات أناسـًا مختلفين، وهي المكان الذي يجعل العلاقات قويّة، والناس أكثر قربـًا من بعضهم. طاولة الشرب طاولة الأسرار، وكان ممكنـًا بالنسبة إليّ أن أبوح بكلّ شيء، إلّا حادثة ابن عمي. تعرّفت على «شكيب» في بار وكنت أشرب لتخفيف الخوف الذي يأكل قلبي وعقلي، كنت وحدي كما كنت دائمـًا منذ وصولي إلى بغداد، أسكن في غرفة في شارع الرشيد، لا أكلّم ولا أصادق أحداً، أهرب من الجميع كأنّ العالم كلّه يعرفني وكأنّ كلّ مَن يقترب منّي سوف يعرف أنّني قاتل. في ما بعد صار لي أصدقاء أشرب معهم، لكن بحذر. في تلك الليلة كان «شكيب» وحده أيضـًا، حدث شيء بالصدفة، إذ طلب من الـ(بوي **boy**) أن يرفع قليلاً صوت الراديو. كانت أغنية لـ«عبد الحليم حافظ»، التقت نظراتنا؛ فابتسمت استحسانـًا لطلبه، ابتسمَ أيضـًا ودعاني إلى الجلوس إلى طاولته. المهمّ، صارت صداقتنا قويّة. اشتغلت معه وكنّا نذهب إلى الموصل كثيراً، عرفت أسرار المهنة بسرعة حتّى إنّه بدأ يعتمد عليّ في أشياء كثيرة. في تلك الأيام تعرفت على «مريم»، عندما اشترت (درزن صحون) من المحل في سوق الموصل، أعجبتني كثيراً، واستلطفتني أيضـًا على ما يبدو. جاءت مرة ثانية، قلت لنفسي إنّ الأمر صدفة، لكنّها قبل أن تذهب ابتسمت. سبعة أيام وأنا أحلم بابتسامتها، وجهها يخطف أمام عينَيّ ليل نهار، حتى مرت في اليوم السابع، قلت لها إنّني أريدها، ثمّ صار بيننا لقاء تحدّثنا فيه، ثمّ لقاء آخر، أعقبه لقاء ثالث ورابع. كانت لقاءات خاطفة في الحقيقة، دقائق في السوق، امتلأ قلبي

بحبها وشعرت بأنّ لا معنى لحياتي دونها، بل شعرت بأنّني أحتاجها للتخلّص من خوفي. كانت في العشرين تقريبًا، جميلة جداً كما هي دائمًا، لكنّ أخلاقها تغيّرت، تغيّرت كثيراً حتى إنّني لم أعد أعرفها، أصبحت نفسيّتها مضطربة وعدوانيّة، تشكّ في كلّ شيء كأنّني أنا والعالم كلّه نتآمر عليها، بردت عاطفتها، لم يعد حنان في قلبها ولا دفء في كلامها، أحببتها نعم، وهي أيضًا، لكن لا أدري لماذا لم تعد تحبني، أنا أيضًا لا أنكر أنّني مللت جنونها، فقد تغيّرت وأنا تغيّرت أيضًا، هناك مشاكل كثيرة لا أريد أن أحكي لك تفاصيلها المزعجة. المهمّ، عندما قرّرنا أن نتزوّج كانت هناك مشكلة، فهي مسيحيّة وأنا مسلم. بالنسبة إليّ، لم يكن هذا الأمر يعني لي شيئًا، المهمّ عندي «مريم» نفسها، لا دين ولا عشيرة ولا بطيخ، لكنّها تردّدت، أقنعتها بأنّنا سوف نتزوّج هكذا عند شيخ، حذّرتها أن تقول إنّها مسيحيّة. تزوّجنا واستأجرت بيتًا في بغداد بمساعدة «شكيب»، عشنا معًا، لكنّ الخوف لم يغادر قلبينا، كانت خائفة أن تندم على قرارها بترك أهلها، وكنت خائفًا من شيء واحد، السرّ الذي أحمله خلف أضلاعي، السرّ الذي لن أستطيع الاعتراف به إلّا لشخص متيقّن مئة في المئة أنّه يخاف عليّ ويفهمني، وهأنذا أعترف لك!

تزوّجنا، كان وضع العراق في تلك الأيام مقلوبًا، اضطرابات ما بعد قتل الملك وإعلان الجمهوريّة، مشاكل سياسيّة، دبّابات ومسلّحون في الشوارع. حدثت بعدها إعدامات، تصفيات سياسيّة في بغداد، وإعدامات في الموصل وكركوك. بالنسبة إليّ، لم أهتمّ طوال حياتي بتلك الأشياء،

كنت أقول دائمـًا إنّهم شلّة من القتَلة يتعاركون على فلوس ومناصب، لـم أحب أيّـًا منهم ولم أهتمّ بسماع الأخبار، «نـارهم تأكـل حطبهم» هـذا مـا كنت أردّده لنفسي على الأقـلّ. المهـمّ، قـرّرت «مـريم» أن تصـير مسـلمة، غيّرنا بطاقتها الشخصيّة بمساعدة «شكيب»، إذ كانـت لـه علاقـات جيـدة، لم يكن الأمر يهمّني كثيراً، فقد كنت مختلفـًا قليلاً في أفكـاري، إذ رُبّيـت معظـم الوقـت -كمـا قلـت لـك- في بيـت خـالي، كـان شـيوعيّـًا، أنـت لا تعـرفين معنـى أن يكـون النـاس شـيوعيّين. والأفضـل أن لا تعـرفي، عيشـي حياتك، فقد أثّر خالي فيّ كثيـراً، لكنّني لـم أحـب السياسـة، أحـب خـالي، أحب دماغه، طريقة تفكيره، أحب كتبه وقدرته على الحـديث المتسلسـل الجميل، تسامحه وهدوءه، لكنّني لا أحب السياسة. قال «مريم» إنّنا يجب أن نتزوّج في المحكمة، كانـت تريـد ضـمانـًا مـا حتى لا تشـعر يومـًا بأنّهـا وقعت في ورطة، وصار الزواج رسميّـًا.

مـرت السـنة الأولـى، جـاء «سـامي» إلـى الـدنيا في الشـهر السـابع عـام 1960، وجئتِ بعده عام 1962. بالنسبة إليّ، أحببت أمـك، هـي أيضـًا، مع مرور الوقت كبرت علاقتنا، صارت ثابتة، تجاوزنا الكثير من المشاكل وسوء الفهم الذي كان أساسَه اختلافٌ ثقافيّ، عاداتهـا وبعـض الآثـار التـي لها علاقة بالدين. كانت عقليّتها جيـدة، لا أعـرف مـا الـذي غيّرهـا! كانـت تقول إنّ الناس كلّهم بشر قبل كلّ شيء، الأديان أشياء إضافيّة يجب أن لا تخرب علاقة الإنسان بالإنسان، لا تخرب علاقته بأخيه. على أيّ حال، لم يكن اختلاف الدين والمنطقة والعادات حاجزاً بينتا، تجاوزنا أشياء كثيرة،

لكنّ أشياء أخرى لم نستطع تجاوزها، في النهاية عرفتْ -وهذا كلامها- أنّني الرجل الذي لم يخيّب ظنّ قلبها، قالت لي يومًا: «إنّك تستحقّ أنّني ضحّيت بأهلي من أجلك». طبعًا كانت تحدث بعض المشاكل، كما في البيوت كلّها، بين الأزواج كلّهم، بين الأخوة والأخوات، أشياء عاديّة تحدث وتنتهي، والإنسان عندما يكون عصبيًّا يتلفّظ بأشياء سخيفة. أقنعتني حتى يتحسن وضعنا الماديّ، بأن تعمل بشكل متقطّع، وتمارس مهنة حفّ الوجه للنساء، عمل المكياج للبنات والعرايس، قالت إنّ لدينا أولاداً يجب التفكير في مستقبلهم، رفضتُ، أعتقد أنّني -رغم عقليّتي المنفتحة نوعًا ما- ما زلت متأثّراً قليلاً بتربيتي شبه الريفيّة. على كلّ حال، وافقت بعد إلحاحها المتواصل، كانت في تلك الأيام حامل بك، ثمّ جئتِ إلى الدنيا في الشهر الرابع عام **1962**، حينها كان قد مرّ على وجودي في بغداد خمس سنوات تقريبًا، تغيّرت أشياء كثيرة، منها اضطرابات سياسيّة، هذه أشياء غير مهمّة، لا أريد أن (أدوخك) بها. ما كان يشغلني الخوفُ في داخلي، شعوري بالذنب، أنسى القصة بعض الوقت، لكنّها في بعض الليالي تتحوّل إلى كابوس، أرق حتى الصباح، بينما تكون «مريم» تشخر إلى جواري، كنت أخاف على الرغم من أنّ «هادي الحمزة» طمأنني منذ البداية أنّ لا أحد سيطاردني، وأنّ عمّي لن يقدّم بلاغًا للشرطة، وأنّهم أغلقوا القضيّة بينهم، دفنوا ابن عمّي وانتهى الأمر، لا أحد غير أبي وعمّي يعرف مَن قتله. طمأنني إذ إنّه عرف في ما بعد أنّني القاتل، أنا مَن اعترف له لأنّه صديقي المقرّب، أبوه ابن عمّ أبي، يسكن في قرية

أخرى، ولم تكن العلاقات جيدة بيننا وبينهم، تصالحوا في ما بعد، لكنّ التواصل ظلّ ضعيفًا، وعلى الرغم من هذا كلّه، كان «هادي» صديقي القريب جداً، أحبه وأثق به كثيراً، لذلك أخبرته.

اشترينا داراً وكانت حياتنا تسير بشكل عاديّ، دخل «سامي» المدرسة، بعده دخلتِ أنت، لكنّني في تلك الفترة عدت إلى الشرب، حدث انقلاب عسكريّ، جاءت حكومة جديدة. اسمعي، بدأت المشاكل بسيطة لكنّها تراكمت سنة بعد سنة، اقترحت على أمّك أن ننتقل إلى الموصل إذا كان هذا يريحها، لكنّها رفضتْ، بينما المشاكل تتعبني نفسيًّا، فكنت أهرب للشرب من مشاكلها، أنت تفهمين يا «نرجس»، أصبحتِ كبيرة لتعرفي أنّ مزاج أمّك أصبح صعبًا، لا أعرف ماذا حدث لها، كانت تفكر دائمًا في أهلها، تقول إنّها وحيدة، وإنّها لم تكن على صواب في قرارها، تتوهّم أنّني سأتخلّى عنها، وأنّني على علاقة مع امرأة أخرى، أو نساء أخريات، وهذا غير صحيح. أصبحت مدمنًا الآن، وقد اتّهمتني أكثر من مرة بأنّني أريد أن أقتلها عندما تكون نائمة! أعرف أنّ حياتنا أصبحت سيّئة، ليس في يدي شيء لأفعله، فأنا بالذات أمشي في طريق مظلم. أعترف لك بأنّ قضيّة القتل القديمة بدأت تضغط على تفكيري بشكل قاسٍ، لذلك أشرب، أشرب -إضافة إلى ذلك- بسبب ضغط أمّك وحالتها التي تشبه الجنون. كانت تثيرني وتسخر منّي، صارت تراني كأنّني خنزير أو ضبع، تشتمني دون أيّ تحفّظ! أنا أيضًا أشتمها وأضربها، لكنّني لم أعد أحتمل هذا الجنون. أنتِ تعرفين أنّني مسالم، لا أعتدي على أحد. لا تقولي إنّني

مجرم، أنا مسالم جداً. اعترفت لك لأنّك سوف تفهمينني كما فهمني «هادي الحمزة»، لكنّ أمّك تجعلني أفقد أعصابي، لا أحب أن يسمع الجيران صراخها وشتائمها، أحزن كثيراً عندما تبكين في أثناء عراكنا، وفي كلّ ليلة أقرّر أن لا أشرب ثانيةً، لكنّني لا أفعل. تقودني قدماي إلى البار. زمان، كنت أقبّلك قبل أن أنام، حتى عندما أعود سكران، أفعلها دائماً رغم صراخ أمّك وطلبها أن أتركك نائمة، أذهب إلى غرفة «سامي»، هذا الولد يطحن قلبي، لا أفهمه، غامض وغريب، يعاني من شيء صعب وثقيل ربّما، ممَّ يعاني سامي! أحياناً لا أعود إلى البيت، لا أريد أن أسمع صراخها، تعتقد أنّني أنام في حضن امرأة أخرى. اسمعي «نرجس»، لقد نمت في الحدائق مرات عديدة مثل أيّ مشرّد ليس له بيت أو عائلة وزوجة! عندما أغيب عن البيت، هذا يعني أنّني أسكر وأنام في أيّ حديقة أو زاوية مظلمة!».

بدأ «حسوني» ينام في الصالة، وأنا في غرفة أمّي، كنت في عمر أفهم فيه لماذا ينفصل زوجان فلا ينامان على سرير واحد. أفهم أنّهما متخاصمان أو لم يعد لأيٍّ منهما رغبة في الآخر. خيّمت الكآبة على الدار في تلك الأيام، ولقد بدا واضحاً أنّني أنضج بسرعة، صرت -كما تقول «كلاودس»- مثل رمّانة على وشك الانفطار، ارتفع صدري، صارت شفتاي مثل حبّتي كرز شهيّتين، وهذا تعبير سمعته من مدرس اللغة العربيّة مرة، صار جسمي متناسقاً، تعرضت في تلك الفترة لغزل المراهقين والكبار أيضاً، أحببت ذلك، لكنّني في ما بعد تذكّرت قول «مريم»: «الله

يستر منج». كنت مثيرة بشكل أجبر حتى راعي الكنيسة على النظر إليّ والابتسام، حدث ذلك مرات عديدة عندما صادفته في الطريق، آخر مرة قبل أن يغيب «حسوني»، اشتعلت معركة مع «مريم»، وأول مرة يكون الحوار بينهما مكشوفًا، صريحًا وفيه كلمات شارع، قال لها: «أنت قحبة، تخونينني مع حنون (الفيترجي) الخنزير القذر، وربّما آخرين، لقد سمعت ذلك من عدة أشخاص»، صفع وجهها؛ ضربته بسيخ من الحديد؛ سال الدم من رأسه بغزارة كما سال من أنفها وفمها أيضًا، كنت أصرخ، وقف «سامي» بباب الغرفة أولاً، كانت نظرته باردة، عاد إلى الغرفة، أغلق الباب ولم نسمع له صوت بعدها، قالت «مريم» له: «حسوني، عاجز أنت منذ سنوات، لكنّني لم أفكّر في خيانتك، على الرغم من أنّك كنت تخونني، سامحتك مرات عديدة، وأنت غير مستعدّ لفعل ذلك معي، لم أخنك، والكلام كلّه غير صحيح، وحتى لو كان صحيحًا، خيانة مقابل خيانة، أنا لست عبدة عندك، من أجلك يا حقير، يا متخلّف، تركت كلّ شيء، أهلي وأقربائي ودييني وحياتي كلّها. كيف طاوعتني نفسي وفعلتها! أين كان عقلي! لماذا لم أفكّر في أنّ الخنزير الماكث خلف قناع وجهك سوف يظهر؟». كان الدم يسيل ولم تحاول حتى مسحة، أسندت ظهرها إلى الحائط وقالت: «رأسك الريفيّ محشو بالخراء». كانت هذه الجملة آخر الشتائم لأنّ «حسوني» حمل حقيبة صغيرة واختفى بسرعة، خرج ولم يقبّلني، لم ينظر إليّ ولا مرّ على «سامي» في غرفته. انتظرناه كلّنا، حتى «سامي» الذي كان غير مبالٍ. مرّت الأيام والأشهر ولم يعد هناك أمل

بعودة «حسوني». بدأت «مريم» تصف أبي الغائب بـ«حسوني ناقص الغيرة»، قالت لي يومًا بعد أن اعترضتُ على كون «حسوني» رجلاً سيّئًا: «رأسه محشوّ بأوهام مخزية، خياله مريض». كان سامي لا يسأل ولا يعترض، في العطلة الصيفيّة، في كلّ عطلة حتى قبل رحيل «حسوني»، كان يذهب إلى بيت «هادي الحمزة» في الديوانيّة، يقضي أشهراً هناك حتى موعد بداية الدوام الرسميّ. أنا لا أعرف الكثير عن أعمامي، كان «حسوني» يذهب أحيانًا إلى هناك، يسمع أخبار جدي وأعمامي دون أن يفكر في الذهاب إليهم حتى مات جدي وجدتي بعده، فلم يعد لديهم رغبة على ما يبدو في معرفة أخباره، هو أيضًا لا رغبة لديه في التواصل، اكتفى بعمله في بغداد، علاقاته، عائلته وسهره مع أصدقائه، لكنّه سمح لـ«سامي» بأن يقضي العطلة الصيفيّة في القرية، في بيت ابن عمّه الذي سيكون له في ما بعد دور مهمّ في حياتنا.

«هادي الحمزة» الراديو الذي ينقل الأخبار إلى «حسوني»، الوفيّات، الأعراس والمشاكل، كان ذلك في السنتين الأولى والثانية من زواج «حسوني» و«مريم»، وهو الذي توسّط لدى جدي وأعمامي، إذ طلب منهم التعاطف مع قضيّة زواج ابنهم «حسوني» من مسيحيّة هربت من أهلها، لكنّ جدي صرخ به، لم يترك له فرصة أن يكمل حديثه. على أيّ حال، لم يسامحوه، لا على هذا الزواج ولا على الشيء الذي لم أكن أعرف به قبل اعترافه لي في ما بعد. أعلنوا براءتهم منه، وأقنع جدي أخاه والد القتيل بأن يترك أمر «حسوني» للزمن، أن لا يطلب ثأراً، فهو مثل ابنه

في النهاية وأن لا يقدّم بلاغًا للحكومة، فلا فائدة من هذا. قال إنّ الزمن سيعاقبه، وإنّ طرده من العائلة جزء من العقاب الذي سيدفعه للتكفير عن ذنبه، وإنّه سيبقى طوال حياته يعاني من صورة القتيل، ستكون له كابوسًا وعذابًا لا ينتهي. أقفلوا القضيّة، لكنّ حسوني –كما عرفت في ما بعد– ظلّ خائفًا ومعذَّبًا. ماتت جدتي أم حسوني، وجدي وعمه أيضًا، انقطعت الأخبار، لكنّ «سامي» كان قد مدّ خيط التواصل، «حسوني» مَن فعل ذلك في الحقيقة قبل أن يختفي، ربّما كانت رغبة «حسوني» في العودة إلى جذوره السبب الذي دفعه إلى وضع «سامي» على هذه السكة. في ما بعد، تمسّك «سامي» بهذه العلاقة، ربّما لأنّه شعر بأنّه وحيد فعلاً في بغداد، وجد له أهلاً، خاصة بعد غياب «حسوني». وفي تلك القرية تشكّلت شخصيّة «سامي»، ثقافته التي تختلف عمّا عرفناه من سلوكيّات في بيتنا، وفي الحيّ أيضًا، تغيّر سلوكه، اختلفت لهجته، فلهجتنا في البيت بغداديّة مخلوطة بما تبقّى من لهجة «مريم» المصلاويّة، ممزوجة ببعض الكلمات السريانيّة. في ما بعد، توجّه «سامي» بتأثير «هادي» إلى الدين، الطفل المنعزل، الشابّ متحجِّر العواطف، لا أدري، لا أظنّه متحجِّر العواطف، بل أظنّه مجنونًا ربّما أو فيه شيء من قلّة العقل، ترك الدراسة، صار في حزب الدعوة، صار يكرهنا أنا وماما، يقضي معظم الأيام في الديوانيّة، وصار يزورنا من باب الواجب. مواعظ، نصائح، عصبيّة وتهديد، لكنّ «مريم» كانت عنيدة وعصبيّة، شتمته مرات عديدة وشتمت دينه وربّه وأباه وأسلافه. أعتقد أنّ «مريم» في السنوات الأخيرة قبل أن يأتي الطوفان كانت

مجنونة أيضًا، توجد بذرة جنون في عائلة «حسوني» أو عائلة «مريم»، لا أدري، أنا أيضًا لا أبدو متّزنة، أشعر بأنّ في داخلي اضطرابًا، وحشًا إلى جانب نعجة، لكنّني لا أريد أن أذهب باتّجاه النعجة حتى لا أرى السكين بعينيّ، أحب أن أكون بجانب الوحش حتى أشعر بالأمان، فهذا العالم ليس فيه حلّ وسط، إمّا أن تكون ذئبًا أو خروفًا، والحب نوع من المرض، ناس تشفى منه وتستعيد صحّتها، وناس يقتلها، لكنّه دائمًا يترك آثاراً مثل البقع الزرقاء على الوجه، وأخرى سوداء في القلب.

في الحقيقة، كنت أتمنّى أن نكون أغنياء، ليس أغنياء جداً، لكن في وضع ماديّ مريح، أن يكون لدينا سيارة مثلاً، كنت دائمًا أرى في الكرادة بنات في سيارات فخمة يقودها آباء تلمع صلعاتهم، أظنّ أنّ الصلعان كلّهم أغنياء، طبعًا هذا ليس صحيحًا، لكن مجرّد فكرة التصقت برأسي، على الرغم من ذلك، كانت «مريم» تعمل في مهنة (الحفافة) والمكياج، وكنّا نعيش بشكل مقبول، لكنّ عصبيّتها جعلت الحياة غير مريحة بالنسبة إليّ على الأقلّ، وضعها المريب، الإشاعات حولها، غياب «حسوني» وحالة «سامي» الذي صار من الواضح أنّه يسير في طريق الدين والسياسة (الخلطة الأسوأ من أيّ خلطة أخرى)، لا أعرف أين قرأت هذه الجملة أو سمعتها.

واصلت الدراسة، وكنت في السادسة عشرة عندما فجأنا «سامي» بأنّه سيتزوّج بنت «هادي الحمزه»! كان عمره 18 سنة ونصف تقريبًا، صادف في تلك الأيام أن أصبح «صدام حسين» رئيس الجمهوريّة. اعترضت

«مريم»، صرخت وشتمت، لم ينفع، في النهاية استأجر بيتًا في الكرادة وأكمل إجراءات الزواج، ثمّ حصل على وظيفة في الحكومة عن طريق الواسطة، وبدأت زياراته لنا تقلّ تدريجيًا. في زياراته كان يعطي «مريم» المال، لم تكن تحتاجه فعلاً، فقد كانت تعمل وتحصل على دخل جيد، لكنّها حرصًا على التواصل معه، كانت تقبل عطاياه. هذا في بداية الأمر، رغم تماديه وتوغّله في توبيخنا وتهديدنا دائمًا بأن يأخذنا للعيش هناك في القرية التي يسكن فيها «هادي الحمزة». في النهاية هو ابنها، لكنّها بدأت ترفض المال الذي يقدّمه، كانت تصاب أحيانًا بنوبة جنون، تشتمه وتشتم أصله، تشتم الأديان كلّها والناس، تشتم كلّ شيء حتى الحكومة بصوتٍ عالٍ، وكان يهرب من البيت ولا يعود إليه إلّا بعد فترة. في تلك الأيام كانت «مريم» تتأخّر عن العودة إلى البيت، تذهب إلى العمل، تزيّن عروسًا مثلاً أو تقوم بتنظيف وجوه نساء في أحد البيوت، وكنت أشعر بالوحشة لأنّني وحدي أغلب الأوقات حتى في الليل، أشعر بأنّ العالم تغيّر كثيراً، وبأنّ «مريم» أصبحت عصبيّة جداً وعدوانيّة. صار التلفاز رفيقي ولم تعد لي رغبة حتى في الدراسة. كنت أحيانًا أقرأ الكتب، كتب الشعر والقصص وأكتب أيضًا. نعم، لقد كتبت بعض الأشياء، أتذكّرها الآن فأضحك منها، ليست سخيفة تمامًا، لكنّ الحياة صارت معقَّدة وظالمة، لو كان الأمر في أيدينا لبقينا أطفالاً ندخل إلى الغرفة مع ألعابنا وخيالاتنا ولا يفتح أحد علينا الباب إلى الأبد!

بعد سنة تقريباً من زواج «سامي»، لاحظت أنّ شابّاً كان يراقبني، يتبعني من البيت إلى المدرسة، كنت أعرف، لكنّني لم أهتمّ كثيراً. أوقفني في أحد الأيّام، حاولت أن أتجاوزه، لكنّه كان مصمِّماً، أمسكني من يدي واعترف لي بأنّه يحبني: «شسمك؟» سألته بطريقة خرقاء، أو ربّما لأنّني بالفعل حين اقتربت منه أكثر ونظرت في ملامحه رأيته وسيماً، كان صوته جميلاً وفيه لهفة، وعندما قال إنّه يحبني، خرجت الكلمة من فمه بطريقة جعلت جسدي يرتجف: «وأنت؟». قال إنّ اسمه «سعد»، خرجنا معاً في اليوم التالي إلى حديقة الزوراء، في ذلك اليوم، جربت أول مرة طعم القبلة، مرت يده على نهديّ وبطني وبين فخذيّ، شعرت بأنّني سوف أموت، كان جسمي كلّه يرتعش كأنّني مصابة بالحمى. كان «سامي» بعيداً عنّي، ولا علاقة لـ«مريم» بأحد سوى نفسها، بل لا علاقة لها حتى بنفسها، أصبحت حالتها غريبة، تنام طوال النهار، تصحو عصبيّة وتصمت ساعات طويلة، وإذا تكلّمت يكون صوتها غاضباً، تشتم وتسبّ وتشك في كلّ شيء وكلّ شخص، صارت كأنّها لا تعرفني ولا أعرفها لولا بعض الذكريات الجميلة التي تجمعنا.

بعد شهر، كنت قد تعلّقت بـ«سعد»، جعلني أشعر بسعادة، أنقذني من الكآبة والظلام الذي يلفّ حياتي، أعاد إليّ رغبتي في العالم وحتى في المدرسة، دعاني مرات عديدة إلى شقته في الكرادة، كنت خائفة ليس منه ولا من «مريم»، بل من المجنون الذي اسمه «سامي»، أعرف أنّني لو أخطأت واكتشف الأمر سيقتلني، سيقوم دون تردّد بما يسمّيه الناس

«غسل العار». كثير من البنات قُتِلنَ بسبب إشاعة أو شكّ، وفحص الطبّ الشرعيّ يثبت أنّهنّ (ما مزروفات)، في الديوانيّة يغسلون دائمًا العار الذي يلحق العائلة بسبب البنات. ليس فقط في الديوانيّة، في بغداد وفي البصرة والعمارة، يعني في كلّ مكان في العراق. وافقت في أحد الأيام، قال إنّها شقته، في ما بعد عرفت أنّها ليست له، بل لصديق سافر أهله مدة شهر خارج العراق، تركها الصديق له كي ينفرد بي، وكان «سعد» طالبًا في كليّة التربية، وعدني بأنّنا سوف نتزوّج بعد سنة، أي عندما يتخرّج، فوظيفته مضمونة، سيعمل مدرسًا، ولديه شقة، وستكون حياتنا رائعة. قال إنّني أستطيع بعد الزواج إكمال دراستي، وقتها كنت في الخامس الأدبيّ، أنا أيضًا فكّرت في حياة بعيدة عن جنون ومشاكل «مريم»، فكّرت في أنّها ستكون أفضل، وأيضًا بعيداً عن سخافات وجنون «سامي» الذي صرت أكره حتى اسمه. ذهبت مع «سعد» إلى الشقة، كان ذلك بعد الظهر، دخلت وكان كلّ شيء نظيفًا ومرتّبًا. حدث كلّ شيء بسرعة كأنّه حلم خاطف أو كأنّني مخدرة أو مغفّلة، أو. . لا أدري، ربّما حالمة، فنحن ندفع الثمن دائمًا حتى بسبب الأحلام البسيطة. كان ما حدث مؤلمًا، لكنّه لذيذ في الوقت نفسه ورومانسيّ وغريب، استسلمت ثمّ صحوت على دم بين فخذيّ؛ مسحته بمنديل، كان «سعد» واقفًا بطريقة غريبة كأنّه يقول لي «هيّا، انهضي واخرجي بسرعة»، عاملني كأنّني قحبة، تذكّرت كلام «مريم»: «ستكونين قحبة!». لم يكن يبدو عليه أنّه سعيدٌ بهذا اللقاء، كانت نظراته غير مريحة، وكان منظر الدم بالنسبة إليّ مقلِقًا، شعرت

بالذعر، لكنّني خفت أكثر من نظرات «سعد» ومن موقفه غير المفهوم، ثمّ غاب وجه «سعد» وأنا أرتدي ملابسي، خطف أمامي وجه «سامي»، ثمّ بدأتُ أرى الشخص الذي يقف أمامي بملامح «سامي».

عندما عدت إلى البيت، كنت أحتاج إلى أن أقول شيئًا لشخص ما عن هذه الورطة، ولا وسيلة سوى الاعتراف لـ«مريم»، أليست أمّي! صحيح أنّ وضعها غير مريح، لكنّني لا أتوقّع أن يكون موقفها أو تصرفها قاسيًا وفيه أنانيّة وعدم الشعور بالمسؤوليّة، الإنسانيّة أو الحكمة، لن تتصرّف التصرّفات التي تفرضها العاطفة، لكنّني أسأت التقدير في النهاية، وكان صعبًا على مَن في عمري أن يفهم حالة «مريم» العقليّة والنفسيّة، بل لا يفهم وضعها أحد سوى الطبيب المختصّ. قلت لنفسي: أنا ابنتها الوحيدة، لا يمكنها أن تعرّض حياتي للخطر، تخيّلت عندما أخبرها أنّها ستضربني، تصرخ في وجهي بعض الوقت، ثمّ تبدأ بالبحث عن حلّ، ستذهب للبحث عن «سعد» مثلاً، تجرّه من شعره وتتأكّد أنّه صادق في حبه لي أم لا، تخيّلت أن تحدّثه في خصوص الزواج قبل أن يعرف «سامي»، أنّها ستقول له: «أنا أعطيك المال لكي تتزوج، وستعيشان معي». في النهاية أخفيت الأمر عنها، خفت أن يصل الخبر إلى «سامي»، الأخ الذي لم أعد أعرفه. في آخر زياراته أصدر الكثير من الأوامر، عبّر عن انزعاجه من طريقة حياتنا أنا و«مريم» وطريقة لبسنا، حدّثني بشكل خاصّ عن الصلاة، الجنة والنار، أعطاني كتابًا غريبًا، فيه تعاليم الصلاة وبعض المعلومات، هدّد مريم مرة بأنّه سيقتلها ليغسل عارها، جنّ جنونها

في ذلك اليوم، قالت له: «أنت العار. يا عار يا ابن العار، أنت وعمّك العار هادي الحمزة، يا مناويك!»، جلبت سكينًا من المطبخ وأرادت قتله، ولولا أنّه تفادى الضربة لغرست السكين في قلبه. المهمّ، خرج في ذلك اليوم بجرح في كتفه. صادفته مرة في الطريق، دعاني إلى زيارته، قلت له: «لا»، لكنّني تمشيت معه حتى باب شقته في الكرادة. في الطريق ألقى عليّ وأنا صامتة محاضرةً طويلة: «إنّ الشرف قيمة الإنسان، يجب أن يحافظ عليه، إنسان دون شرف لا يستحق الحياة، بل يجب أن يموت غسلاً لعاره». من الواضح أنّ «مريم» أصبحت تشكّل له قلقًا، وأنّه عازم بالفعل على بناء بيت في الديوانيّة، لقد كرّرها ذلك اليوم عليّ، قال: «سوف نعيش كلّنا فيه»، أضاف: « لا يغسل العار الذي يلحق بالمرأة شيء إلّا الدم». كان كلامه مخيفًا جعلني أرتجف، ثمّ تابع: «الأهم من ذلك عقاب الله، عذاب النار، يعني خزي في الدنيا والآخرة». كنت مذعورة من وصول خبر ما إليه، خبر علاقتي بـ«سعد»، سوف يقتلني حتمًا، كنت متأكّدة أنّه سيقتلني، تأخّرت دورتي الشهريّة أيّامًا على ما أظنّ، أو لا أدري، ربّما لم أحسب جيداً، عثرت على سعد بالصدفة بعد غياب، كان مع صاحب دكان كنّا نشتري منه بعض الأشياء، أخبرته بخوفي من الحمل، لم يقل شيئًا، كانت نبرة صوتي مشحونة بالغضب والخيبة، لكنّه –دون أيّ مقدمات– قال إنّني يجب أن أتأكّد من كوني حاملاً أو لا ، وإذا تأكّدت عليّ أن أتخلّص من الجنين. منذ ذلك اليوم لم أعد أراه. ذهبت إلى الشقة بعد أيام واكتشفت أنّ عائلةً تسكن فيها، قال الرجل الذي فتح لي الباب

إنّه لا يعرف شخصًا اسمه «سعد»، وإنّ هذه شقتهم منذ سنوات. سألت صاحب الدكان قال إنّ «سعد» عاد إلى البصرة، طلبت منه العنوان، ويبدو أنّ الرجل شعر بشيء غامض في سؤالي، بل شكّ في الأمر، أعطاني عنوان بيتهم في العشار. كنت وقتها صغيرة ومرتبكة، سألته في ما إذا كان طالبًا في كليّة التربية، قال إنّه لم يسمع منه شيئًا في هذا الخصوص. كان العالم وقتها في عينَيّ رحيمًا، لكنّه منذ تلك اللحظة لم يعد كذلك. في النهاية، تحت حالة الشعور باليأس، أخبرت مريم لتجد لي حلّاً. شعرت بأنّني في حلبة ملاكمة سأخرج منها منتصرة أو ميتة، لكنّ الشيء الوحيد الذي قالته «مريم» عندما أخبرتها بورطتي، وكانت قد عادت للتوّ من الخارج، ترتدي ملابس مثيرة، وكانت شفتاها ملطّختَين بأحمر الشفاه، يبدو أنّها كانت سكرانة، فقد كانت حركتها غير متّزنة، الحقيقة أنّها لم تكن تشرب إلّا في السنة الأخيرة، وعلى فترات متباعدة، قالت: «عفية، عفية[1] بنت حسوني العار، أنت قحبة وأخوج صاير رجل دين، ابن حسوني صاير إمام، أحسن شي أخلص منكم اثنينكم، القحبة والإمام، أخوج يعتبرني قحبة، وأنت همينا، راح اخلي أولاد حسوني الخنزير، واحد بالسجن وواحد جوّه التراب.. وأرتاح!».

شعرت وقتها بالضياع، الخوف والوحشة، خاصّة أنّ الأقاويل كانت قد كثرت حول سلوكيّات «مريم»، حتى إنّ الجيران لم يعد أيٌّ منهم ينظر

(1) عفية: أي (برافو، حسنًا) تهكّمية في هذا السياق.

إليّ باحترام. جاء «هادي الحمزة» في يوم من الأيام إلى بيتنا، كان ذلك قبل اعترافي لـ«مريم»، رجل مهذّب كما بدا لي، لكنّ «مريم» طردته وشتمته، شتمت «حسوني» بالطبع وأهله وعشيرته ودينه. كان الرجل قد جاء ليسأل عن الحقيقة في ما يخصّ الأقاويل التي تُشاع أنّ «مريم» وبنتها فاسدتان، وأشياء أخرى كان محرَجًا ومضطرّاً إلى قولها. قال إنّه جاء احترامًا لذكرى «حسوني»، لرابطة الدم بينهما، والصداقة العميقة التي ربطته به رغم كلّ شيء، ثمّ سمعتُ «مريم» تقول له: «والله العظيم أبلغ عليك الأمن، وأقول لهم هذا بحزب الدعوة، قشمر[1] ابني الطفل وخالّاه يصير متديّن وبالحزب مالته، وأنتم ضدّ الحكومة، ويوميّة تشتمون بالرئيس». كان هذا الكلام قبل الحرب العراقيّة بفترة قصيرة.

نامت «مريم»، جمعت بعض الملابس في حقيبة صغيرة، أوراقي الثبوتيّة وبعض المال الذي كنت أوفّره. لم أكتفِ بهذا، أخذت المال الذي كانت تخبّئه مريم في خزانة ملابسها، نظرت في المرآة بالصدفة، توقّفت وكان وجهي غريبًا كما لو أنّه قناع لوجه آخر، كان أصفر وجامداً كأنّه وجه ميت. فتحت الباب بهدوء، أغلقته خلفي ومشيت بخطىً سريعة إلى الكرادة. كنت أعرف، أو هكذا تخيّلت، أنّ «مريم» ستذهب عندما تستيقظ إلى «سامي» لتخبره بأنّني حامل، بل ستقول له إنّ أختك - شرفك- قحبة، ستطلب منه أن يقتلني بكلّ وضوح، أن يغسل عاري

(1) قشمره: خدعه أو احتال عليه.

حسب خطتها التي أعلنت عنها بكلّ جديّة كما ظهر لي وقتها. كنت طفلة وكان في رأسي شيء واحد: أنّها تريد التخلّص منّي ومن «سامي»، ليس لأنّها تكرهنا كما تصرّح بهذا، بل لأنّها مجنونة، فقد بدت لي في الفترة الأخيرة كأنّها سائرة بسرعة إلى حفرة معتِمة، وخلال السنتين الأخيرتين كانت تشكّ في كل شيء وتتخيّل أشياء غريبة، تتخيّل أنّ الجميع يريد التخلّص منها، حتى إنّها اتهمتني مرات عديدة بمحاولة ذبحها بالسكين وهي نائمة! ضربت «كلاوديس» في يوم من الأيام، قالت إنّهما –هي وزوجها– قوّادان ويريدان أن يستدرجاها إلى قريبٍ لهم، له وجه مثل وجه الحمار مقابل فلوس، قالت: «كلاوديس تريد أن تصبح قوّادة على حساب بضاعتي!»، قالت ذلك بصوتٍ عالٍ. بالطبع لم أسمع «مريم» وأنا صغيرة تتفوّه بكلمات مثل هذه، لكنّ خزينًا كان مخفيًّا –على ما يبدو– بدأت بطرحه في الفترة الأخيرة. أحيانًا كنت أعطف عليها، أشعر بأنّ «حسوني» ظلمها، أو. . لا أدري. في النهاية قرّرت أن أتخلّص منها، فهي مريضة ومجنونة، تريد قتلي والتخلّص منّي، ولم أكن متأكّدة أنّني لست حاملاً. «سامي» أيضًا لم يعد أخي، أصبح غريبًا ومجنونًا، قلت لنفسي في لحظة استيقاظ الوحش في داخلي: لأتخلّص منهما، أخرج هكذا مثل ذئب في مواجهة الغابة. وضعت الحقيبة تحت الدرج، طرقت باب شقة «سامي»، فتح مذعوراً، أعتقد أنّه كان خائفًا من مداهمة الأمن، دخلت وكان «هادي الحمزة» قد خرج من الغرفة كما لو أنه كان يستعدّ للقفز من النافذة، خرجت ابنته زوجة «سامي» من المطبخ، كان وجهها مخطوفًا

كما لو أنّها توقّعت حصول كارثة. أخبرته مباشرة ولم أجلس، قلت له: «زيارتي هذه لأمر خطير يتعلّق بشرفك، لقد انقطعتَ عنّا، تخلّيت عن مسؤوليّتك عن اثنتين من النساء، أمّك وأختك. شرفك ملطّخ بالعار يا «سامي بن حسوني»، عليك أن تغسل عارك. ترك أبوك البيت وغاب إلى الأبد لأنّ «مريم» أمّك، كانت تخونه، ليس مع شخص واحد، بل مع كثيرين. والآن جاء الوقت لتغسل العار، اذهب واسأل الجيران، اسأل أهل المنطقة، كلّ يوم في حضن رجل، لقد صبرت عليها كثيراً، تكلّمت معها، قلت لها أن تكفّ عن تلطيخ سمعتنا بالعار. اذهب، لكن خذ معك مسدّس إذا عندك، اطلب واحداً أو اشترِ، اقتلها لو كنت ابن حسوني، اقتلها، طلقة واحدة في الرأس كافية». كان «هادي الحمزة» يستمع إليّ، والخوف الذي كان قد غمر قلبي جعل الشيطان الذي في رأسي يوحي إليّ بضرورة أن يسمع «هادي الحمزة» كلامي. سوف أُشرِكه باللعبة لأنّني أعرف أنّه خائف منها، لقد هدّدته بإبلاغ الأمن عنه، هدّدته أمامي. في ما بعد، تحوّل خوفي من «سامي» إلى «هادي الحمزة»، فأنا أيضاً أعرف أنّه ضدّ الدولة، وسأكون خطراً عليه إذا تعرّضت للتحقيق، أنا طفلة ويمكن أن أقول أيّ شيء، هكذا تخيّلت ما يدور في رأسه. ما حدث في ما بعد، اجتماع بين جنون «سامي» وعقليّته العشائريّة والدينيّة، ورغبة «هادي الحمزة» في التخلص من امرأة مجنونة تهدّد حياته، ويمكنها في لحظة أن تسلّم حبلَ المشنقة رأسَه، ليس هو فقط، بل الناس الذين سيعترف عليهم في أثناء التعذيب أيضاً. وأنا، نعم، أنا، فكّرت قبل كلّ شيء أنّني سأهرب

قبل أن يقتلني «سامي» أو يقتلني «هادي الحمزة»، لأنّهم سيحققون معي بعد مقتل «مريم»، وكان يمكن أن أورّط «سامي» بقتل «مريم»، كان يمكن أن لا تموت «مريم»، كان يمكن أن لا يحدث هذا كلّه، لكنّني في تلك اللحظة فكّرت بعقل الطفلة المذعورة، أنّني إذا هربت، سأبقى طوال حياتي خائفة. كنت طفلة وقلت لنفسي إنّ شبح «سامي» سيتبعني حتى ولو كنت في آخر الدنيا. قرّرت أن أقطع الحبل، سأكون في ضفّة والآخرون في الضفّة الأخرى، وسأدفن الذكريات التي تجمعنا، سأتركها تتعفّن أو تتبخّر شيئًا فشيئًا، لتصير مثل خيال أو وهم، أو سأتركها تتعفّن في داخلي، هذا جيد، أريد أن تتعفّن الخيوط والذكريات في داخلي، لا أريد أن يقترب أحد منّي، فرائحتي ستكون كفيلة بطرد كلّ حشرة تحاول إيذائي، لأكن أنا، أنا وبس، أنا والطوفان من بعدي كما يقولون. ولم يكن في بالي أن أتحوّل إلى قحبة، كنت طفلة، طفلة مجنونة ربّما، متصدّعة وتشعر بالضياع بسبب تفتت عائلتها، طفلة ضغط عليها التفكير في الموت. فكرت فقط في الوصول إلى «سعد»، كيف أصل إليه؟ لا أدري، لذلك كانت البصرة اختياري، مدينة بعيدة، وسوف أجد فيها «سعد»، رغم أنّه رماني مثل خرقة (وسخة)، كنت أريد أن أراه لأسأله: «لماذا فعلت ذلك وأنا أحببتك؟»، على الرغم من أنّ صوتًا في داخلي يقول لي: «لن تجديه»، أردت أن أهرب من السكين والعار وحسب، لكنّ الأمور سارت في اتجاه آخر!

كنت أدافع عن نفسي في هذا الهروب، فإمّا حياتي أو حياة «مريم»! اخترت «نرجس» في النهاية. في ما بعد، عرفت عن طريق شخص من البصرة جاء إلى بغداد، كنت قد طلبت منه أن يجيئني بأخبارها، عرفت أنّها ماتت، قال لي: «إن المرأة التي تسألين عنها ماتت، ابنها هو مَن قتلها ودخل السجن. لها زوج مدمن وجدوه ميتًا في حديقة الأمة مطعونًا بسكين، يبدو أنّه من المشرّدين السكارى، ويبدو أنّه قتل بسبب شجار». عندما عدت إلى بغداد بعد سنوات طويلة، ذهبت إلى البتاوين، وصلت في الليل، وقفت أمام البيت، وقفت طويلاً، بكيت، بكيت حتى تبلّلت ملابسي كما يقولون. عرفت في ما بعد، عن طريق معارفي، هؤلاء الذين يجيئون إلينا، زوار المتعة وخزائن الأسرار والمعلومات، أنّ «سامي» حكم عليه بالسجن، وقّع على توكيل ليبيع «هادي الحمزة» البيت، «هادي» الذي غادر العراق إلى إيران بعدها. خرج «سامي» من السجن بعفو، وكانت زوجته قد طلبت منه الطلاق بعد عام واحد من القبض عليه؛ طلّقها. بعد خروجه من الحبس أمضى ثلاثة أشهر نزيلاً في فندق قريب من شارع السعدون، قريب في الحقيقة من بيتنا القديم في البتاوين. سافر إلى الأردن ولم أحصل على تفاصيل دقيقة بعد ذلك. يقولون إنّه وصل إلى ألمانيا وتزوّج بنتًا فلسطينيّة. لم يكن ما حدث لي كلّه -على كلّ حال- اختياراً. لم يكن أمامي حلّ، خفت من كلّ شيء، من العالم، من نفسي وحياتي، ثمّ أصبحت وحيدة تمامًا، لكنّني قرّرت أن أعيش وأحافظ على أنيابي الحادة لأغرسها في قلب كلّ مَن يحاول أن يؤذيني.

في الليلة التي هربت فيها، نمت في إحدى زاويا كراج (العلاوي). صباحاً ركبت الحافلة المتّجهة إلى البصرة، «إنّها بعيدة» قلت لنفسي، «ويمكن أن أبدأ حياتي بشكل أو بآخر». حرّضت نفسي على أن لا أخاف من شيء، لكنّني كنت خائفة، خائفة جداً، وكان قلبي يضطرب من أقلّ صوت مفاجئ ينبعث في جواري. ليس سهلاً أن يتخلّص الإنسان من الجميع، من كلّ شيء، لكنّني فعلتها وعشت في مكان بعيد لا يعرفني فيه أحد، عشت مثل الذي فتح عينيه على الدنيا وحيداً إلّا من ذكريات تغرق في ضباب الزمن، ضباب الزمن! أحياناً أنطق تعبيرات لا أدري أين سمعتها أو أين كانت مخفيّة! في البصرة تعرّفت على رجل في الفندق الذي نزلت فيه، اسمه «عناد أبو حلاوه»، قال إنّه راقص في فرقة شعبيّة، لم يعد قادراً على الرقص، فاشتغل في إدارة ذلك الفندق. كان الفندق صغيراً يقع في العشار، عرفت ذلك في ما بعد، أنّ «أبا حلاوة» كان يقوم بمهمّة التقاط بعض البنات الراغبات في دخول مضمار الدعارة، وكان يشغّلهنّ مقابل عمولة في منازل يعرفها. كان صاحب خبرة طويلة في معرفة الناس. في اليوم التالي، قلت له إنّني جئت لأسأل عن «سعد جاسم محمد»، ابن عمّي، يسكن في العشار، «وهذا هو العنوان» قلت له. ساعدني، لكنّ العنوان لم يكن دقيقاً، سألت عن الاسم وقد رافقني، لكنّه قال: «العشار كبيرة، وهناك ألف شخص اسمه سعد جاسم، وربّما تحتاجين إلى سنة أو سنتين من البحث دون أن تعثري عليه». لقد عرف كلّ شيء دون أن أفصّل له، كان الرجل صاحب خبرة، كما يقولون. دعاني في تلك الظهيرة إلى الغداء في مطعم محترم، اشترى لي بعض الملابس، وأخذني مساء إلى

«سميرة أم العظام»، رحّبت بي كثيراً، ولم تُخفِ إعجابها بي، قالت إنّ جمالي ساحر ونظرتي مليئة بالإغراء، وجسدي يفور رغم صغر سنّي. قالت إنّني سأكون واحدة من بناتها، وكان في البيت ثلاث شابات لا يرتدين شيئًا سوى الملابس الداخلية، انشغلت إحداهنّ بسماع أغنية لـ«عبد الحليم» بينما كانت الثانية صامتة، ابتسمت ثمّ نهضت وقبّلتني: «أهلاً أهلاً بالحلوة». وكان واضحًا أنّ الأخيرة كانت تشعر بالغيرة من وجودي، ووجود بنت صغيرة جداً، جميلة بشكل استثنائيّ. مرت فترة ليست طويلة حتى اشتعلت الحرب العراقيّة الإيرانيّة، كان الجنود في البصرة كثيرين، أعدادهم بالآلاف من المحافظات كلّها، وكان الشغل كثيراً. الشغل، هذه هي الحقيقة، شغل، (مو يقولون هي أقدم مهنة في التاريخ)! حافظت على جسدي، كنت ألعب رياضة في البيت، أمشي، ليس من أجل أحد، لكنّه جسدي الذي أقاوم به الزمن الغادر، فالعالم بالنسبة إليّ غامض، رماديّ، لم أستطع تحديد خطّ فاصل بين الفوق والتحت، بين اليمين واليسار، اللون الرماديّ هو اللون الذي أعرفه، لون الزمن بالنسبة إليّ، لون الأيام والسنوات، اللون الذي لا نملك طاقة لا ستبداله، تمامًا مثل نبتة الصبّار في الحديقة، كلّما فكّرت في أن أطلب من الحدائقيّ أن يقتلعها، أنسى الأمر، أو. . لا أدري، شيء ما يقول لي: اتركيها، فهي شاهد على وجود الشيطان كما يقولون، الشيطان الذي لا نستطيع فعل شيء لتجنّبه.

طعم الخذلان

أحكي عن تجربتي لا لأنّها مُرة أو حلوة، بل لأنّها أصبحت جزءاً من حياتي، فنحن -في النهاية- لا نستطيع أن نضع أنفسنا في قنّينة ونقفل عليها، لا نستطيع تحقيق ما نرغب فيه كلّه. نخسر؛ فنكتشف في ما بعد أنّ الأمر ليس بتلك الحالة الكارثيّة التي مررنا بها كما تخيّلنا في البداية. نخطّط، نتخيّل الصورة التي ستظهر بعد تنفيذ خططنا؛ فنُفاجأ بأنّها ليست الصورة نفسها، بل إنّها عكس ما تخيّلنا رغم أنّنا فعلنا كلّ شيء بدقّة وبحرص كاملين. يحدث هذا حتى مع الأشياء التي نظنّها تافهة ولا تستحق الفخر، لكنّنا في ما بعد نكتشف نتائج أفعالنا التي ستظهر كما لو أنّها شيئًا خارقًا وبطوليًّا. سوف أتحدّث عن بغداد وعن القصر، عن الداخل والخارج. بالنسبة إليّ، لا أنكر أنّني أحببت المدينة رغم الصورة المرعبة التي يظهر فيها الناس هناك، الحصار مرآة يظهر فيها وحش، هكذا يصفونه في بغداد، لكنّني لم أكن أشعر به بشكل حقيقيّ، بل أراه من خلال نافذة السيارة، في السوق وفي عيون الناس رغم أنّني لا أذهب إلى تلك الأحياء التي سحقها الحصار فعلاً، لم أجرب ضغط الحاجة والعوز كما يعيشونه، لكنّني أرى ما يلبس الناس من خرق بالية وأنظر إلى الأحذية المتآكلة والعيون المطفأة. كنت أحمل -عندما أذهب للتسوق- مبلغًا يعادل الرواتب الشهريّة لخمسين موظّفًا، لا أريد التحدّث عن الحصار، فهو كارثة لن أستطيع تقديم صورة وافية ومعقولة عنها، فمَن يجرّب الجوع والعوز، ليس مثل مَن ينظر إلى ملامح الجائع وهيئته من

نافذة، بل سأتحدّث عن «نرجس»، الشخصيّة الغامضة، لكنّها مكسورة أيضـاً كما ظهرت لي، المرأة التي تعذّبها الذكريات كما أظنّ، لا أريد الدفاع عنها، فكلّ شخص في النهاية يتحمّل نتائج أفعاله وخياراته، فيتلقى قدره وحده كما لو أنّه في مواجهة العالم دون أن يحصل على سند، جدار يستند إليه، جذع شجرة أو حتى كتف هزيلة. لقد تحدّثت إليّ مرتين، لماذا وثقت بي أنا تحديداً؟ ربّما لأنّني أجنبيّة، ربّما وجدت بي شيئاً يستحقّ أن يضع الناس فيه أسرارهم، ربّما لأنّني أشعر بالانسحاق وبالانكسار مثلها، ربّما لأنّني أمرّ بتجربة حب فاشلة، بخيانة أو.. لا أدري، ليست خيانة بهذا المعنى، بل تخلّي أو هجران غير مهضوم، وفي المرتين نادتني في منتصف الليل، تقول لي: «خلينا نشرب كاس وندخّن ونثرثر شويّة». الحقيقة أنّني لم أحكِ شيئاً خلال هاتين المرتين، هي مَن كانت تثرثر، وكان يظهر في حديثها شجن عميق، في صوتها غضب ويأس مخلوطان بغموض، أعترف بأنّني كنت أسمعها بشيء من الريبة وعدم التصديق والخوف، وهذا الشعور بسبب ضيوفها المخيفين، واعتقادي أنّها خزانة أسرار عظيمة. بالنسبة إليّ، لا يهمّني شيء سوى جمع المال والعودة إلى بلدي، هذا كلّ شيء.

ولم تكن «نرجس» تدير بيت دعارة عندما وصلتُ إلى القصر، كانت متزوجة من رجل مهمّ في الدولة، قريب للرئيس، تناديه «الحاج رافع»، هذا ما أعرفه عنه. تغيّر الحال بشكل مفاجئ، هجرها بعد أشهر ولم تعد تراه، ثمّ تحول القصر إلى بيت للمتعة، لكنّني لست قحبة، ولا أقبل في داخلي أن أحاسَب على ممارسة عمل غير قانونيّ وغير شريف، أنا الطباخة في ذلك

القصر وحدودي المطبخ والصالة، لا علاقة لي بالحفلات التي كانت تقيمها إلّا في حدود تجهيز الطعام والطاولة في الطابق الأول، ولم يحدث أن صعدت إلى الطابق الثاني إلّا في حالات خاصة ونادرة، لم أكن مهتمّة بالمضاجعات التي تحدث في الغرف هناك، صحيح أنّني أشعر بالوحدة، لكنّني صمّمت على إهمال جسدي، أردت أن أعاقبة على غفلته ورخصه عندما قدّمته زمناً لـ«فادي» الذي زهد به في النهاية كما لو أنّه أصبح غير صالح للاستعمال، قطعة ملابس بالية يجب رميها في حاوية النفايات أو التخلّص منها بطريقة ما. أهملت جسدي عقوبةً له، ربّما لأنّني فضّلت المال على احترام خصوصيّته، ورغم ذلك يوجد إحساس شهوانيّ لا يغادرني، شيء مرتبط بالحيوان الذي في داخلي دفعني كي أتعلّق نوعاً ما أو أتوهّم التعلّق بـ«سعيد» السائق المتعجرف صاحب النظرات الثعلبيّة، ليس تعلّقاً بهذا المعنى العاطفيّ الذي نراه في الأفلام، نسمع به من خلال الحكايات ونقرأه في قصص الحب، لكنّه مجرد شهوة ليس فيها روحانيّة، أنا طبّاخة ولست قحبة، لا أشعر بتأنيب الضمير ولا بالخزي لأنّها تجربة عمل في بلد آخر فقط، لكنّ سفري إلى بغداد وضعني في قلب تجربة لا تشكّل في داخلي شعوراً بالفخر أو الرضا رغم ذلك، بل كشفت لي كم أنا طمّاعة، وسوف يرافقني هذا الخزي طويلاً، حتى عندما أعود إلى بيروت لن أسامح نفسي على الجشع الذي جرّني إلى الموافقة على السفر وترك بيروت، هذا ليس كلاماً وطنيّاً حماسيّاً، بل إنّه كلام يجيء من شعور سوف يحثّني حتماً على الندم، لقد تركت المطعم الذي أعمل فيه وكان يوفّر لي راتباً معقولاً، وهجرت «فادي» طبعاً، وضعت

في كفة الميزان حلماً لم يكن ناضجاً وواضحاً مقابل الرجل الذي يبدو أنّه كان ينتظر هذا الخطأ منّي، ربّما لكي يقنع نفسه بأنّه على حقّ، وأنّه محقّ في تَرْكي، كي يقنع نفسه بأنّ الهجران كان بسببي وليس بسبب الشعور الذي في داخله، الشيء الذي كان ينتظر فرصة كي يصرّح به بكلّ طمأنينة. هل كان ينتظر منّي تصرّفاً مثل هذا؟ أن أسافر حتى يجد ذريعة للتصريح بزهده بي!

بداية التجربة هذه كانت في ليلة صيفيّة عام 2000، حين تعرّفت على «نرجس» وكانت وقتها في بيروت، دخلت ذات ليلة إلى المطعم الذي كنت أعمل فيه، برفقتها رجل يبدو عليه الثراء والعنجهيّة، تتوفّر سمتان مثل هاتين السمتين في العديد من الناس، أعرفهم من نظرة واحدة، فقد قابلت في ذلك المطعم العديد منهم وسمعت أيضاً عن آخرين. كان ذا شارب وكرش كبيرة، تصرّف بغرور وعنجهيّة كما لو أنّه في مطعم شعبيّ، في ما بعد عرفت أنّه من رجال الدولة العراقيّة، جلسا إلى طاولة كنتُ مسؤولة عن العناية بها، في تلك الفترة كنت أقوم بمهمّة مراقبة المطبخ بالإضافة إلى عملي مشرفةً على خدمة عدد من الطاولات في الصالة. تقدّمت إليهما في يدي الـ(مينو menu)، رحّبت بهما كما أرحّب بأيّ زبون من روّاد المطعم، والحقيقة أنّ هؤلاء الذين يتناولون طعامهم هنا، كلّهم من الطبقة الغنيّة التي بدأت تستعيد تقاليدها بعد سنوات من توقّف الحرب وبدء الإعمار والحياة البيروتيّة الراقية. على أيّ حال، كان ترحابي بهما خاصّاً لأنّني أعرف من خلال خبرتي مقدار البقشيش الذي سوف أحصل عليه من كلّ زبون يأتي. سألني الرجل المنفوح مثل البالون، الضخم ذو الشارب الأشقر عن أنواع الطعام التي

نقدّمها، على الرغم من أنّني -في أثناء ذلك- وضعت القائمة بين يديه، كانت نظراته جامدة تخلو من أيّ تهذيب، نوع من تلك التي تعبّر عن تعالٍ وشعور بالتفوّق. ، أمّا «نرجس» فقد كانت خجولة، أو مرتبكة كما بدت لي، وفسّرتُ الأمر بأنّها تدخل أول مرة إلى مطعم فخم وهادئ، الموسيقى فيه رومانسيّة كأنّها تجيء من آخر العالم، والإضاءة مريحة منحت الصالة جواً حميميّاً. ابتسمتُ قبل أن أنسحب لأترك لهما وقتاً لاختيار الطعام قبل العودة إليهما ثانية. بعد خمس دقائق عدت، وضعت أقداحاً متنوّعة، وكنت أبتسم وأكرّر: «أهلا وسهلا، شرّفتونا». كانت «نرجس» تردّ بكلمة واحدة: «شكراً». غطس الرجل في تقليب صفحات الـ(مينو)، أشار صاحب المطعم إليّ، ذهبت بسرعة: «كان يجب أن تأخذي قائمة الطعام العربيّة! ربّما لا يعرفان الفرنسيّة والإنجليزيّة، شعرت بالورطة، احمرّ خدّاي، فلم يكن جائزاً أن يحصل خطأ مثل هذا، أن أعرّض الزبون للحرج وأجعله غارقاً في لوحة غامضة مثل خريطة لأكلات بعضها غريب ومكتوب بحروف لاتينيّة، قال: «لا عليكِ، هذه القائمة، اهتمّي بهما، إنّك تجيدين الحديث مع زبائن مثلهما». كان واضحاً في كلامه أنّه قرأ وضعهما من خلال نوع الملابس، أو أنّه يعرف طبيعة الزبون من قبل، كانت الملابس غالية حقاً. عدت بسرعة، اعتذرت وأنا أضع القائمتين وأسحب بخفّة الـ(مينو) قلت: «كان يجب أن أجلب النسخة العربيّة أيضاً، أنا أعتذر ثانيةً». ابتسم الرجل وظهر متفهّماً، ربّما لأنّني أنقذته من الحرج بعدما حصل على الثقة التي تجعله يطلب طعاماً ويأكل قبل أن تُفسِدَ السهرة بعض الكلمات الفرنسيّة والأطعمة ذات

المسمّيات الغريبة، لكنّه فجأني: «ولا يهمك، نفس الشي، قائمة بالعربي أو الإنجليزي أو الفرنسي، المهمّ أنّنا اخترنا طعامنا».

تناولا عشاءهما وشربا نبيذاً بشكل معقول، كان واضحاً أنّهما مسروران، تبادلا في أثناء ذلك الحديث الهامس، فظهرا لي كما لو أنّهما عاشقان رائعان، اختفت لديّ الصورة غير المريحة تجاههما، وحين تقدّمت لهما لأسألهما إن كانا يحتاجان إلى شيء، شكراني بشدّة وظهر لي الرجل لطيفاً، تورّد خدّا نرجس الممتلئين بالعافية وبرقت عيناها، كانتا جريئتين، فلم تبدُ كما تخيّلتها في البداية امرأةً خجولة، عروساً جديدة أو.. لا أدري، ربّما كانت علاقة حب في بدايتها. رأيتهما ينهضان؛ تحركت في اتجاههما، وحسب تعليمات مدير المطعم رافقتهما إلى الباب، تبادلنا حديثاً عابراً حول إعجابهما بالمكان، الخدمة الرائعة والطعام. كانت هناك سيارة من النوع الفخم في انتظارهما، نزل منها شابّ عندما رآهما على الباب. ودّعاني وتحرّكا بينما كان الشابّ يفتح لهما الباب. في الأيام التالية، كانا يجيئان برفقة امرأة ورجل لبنانيّين، وفي آخر مرة طلبت منّي «نرجس» أن أعمل في منزلها في بغداد، كان عرضاً مفاجئاً لم أفكّر فيه من قبل، إذ لم أفكر في السفر خارج بيروت أصلاً، لم أفكّر في ترك عائلتي، ثمّ إنّني أعمل بشكل جيد، لكنّني في النهاية وافقت، إذ كان العرض مغرياً، بل خياليّاً! سوف أقضي عامين هناك لأعود بثروة لن أحتاج بعدها إلى شيء أبداً. قلت لـ«فادي»: «سنتان فقط، في إجازتي الأولى سوف نتزوج، هذه فرصتنا التي يجب أن لا نضيّعها، سأعود بالمال الكافي لشراء شقة خاصة بنا وسيارة، سنفتح مشروعاً خاصاً بنا». عرضت عليه

تفاصيل المرتب والمزايا الأخرى، وعلى مدى ثلاثة أيام حاولت أن أقنعه، لكنّه رفض تماماً، سافرت ولم يودّعني، لكنّني فكّرت فعلاً في العودة بعد شهر من وصولي إلى بغداد، لكنّ القرار لم يكن سهلاً، فالأجر الذي تدفعه «نرجس» لي كان خياليّاً، وقد قلت لنفسي إنّني عندما أعود سأعتذر من «فادي»، سوف يتفهّم ونتزوّج وننجب ولداً وبنتاً، ويكون لنا مطعماً صغيراً نديره معاً، لكنّه -كما أظنّ- كان يعلم أنّني سوف أسافر رغم رفضه، وهذا السفر سيكون ذريعة لتركي، ولكن لماذا لم يفعلها دون لفّ ودوران؟ لماذا لم يقل لي إنّه لم يعد يرغب فيّ؟!

لم تكن بغداد مثلما تخيّلتها اعتماداً على الصور والحكايات، إنّها مدينة سيّئة في كلّ شيء، الغبار، النفايات في الشوارع، المناخ ووجوه الناس الكالحة المتعبة، الشحاذين، النسوة المتّشحات بالسواد، المجانين الذين يدورون في الشوارع، السيارات القديمة المتهالكة والبنايات المتواضعة حائلة اللون. كانت صدمة بالنسبة إليّ، لم أتوقّع أنّها المدينة التي غنّت لها فيروز «بغداد والشعراء والصور. . . »، أيّ زمن سيّئ هذا! كانت في حالة مأساويّة موحشة، قلت لنفسي إنّني سأقضي هنا سنة واحدة وليس سنتين، وأعود إلى بيروت بشكل نهائيّ، أجمع المال وأترك هذه المدينة البائسة التي تكسر القلب.

في البداية لم يكن أحد يأتي إلى بيت «نرجس» سوى «الحاج رافع»، كان يبات فيه مرتين في الأسبوع، قالت لي «نرجس» إنّه مشغول دائماً ومنصبه رفيع، لم أسأل كثيراً، خاصّة أنّ أهمّ شرط في العقد الشفويّ بيني وبينها أنّ عملي عندها يتطلّب أن أكون خرساء وطرشاء وعمياء، بمعنى أنّ لهذا البيت

أسراراً لا يجب أن يعرفها أحد. اتصلت بـ«فادي» مرات عديدة، لم يكن يتفهّم رؤيتي. بعد شهرين، في مساء ليلة باردة، كان البيت هادئ جداً، كان «الحاج رافع» و«نرجس» في الطابق الثاني، اتّصلت بـ«فادي» وقلت له سأعود بعد شهر أو شهرين، أرجوك أن تتفهّم الأمر، قال لي إنّه لم يعد يرغب في حياة مشتركة معي، قال إنّني حرة من أيّ التزام بيننا، قلت له: «سأعود حالاً!»، ضحك من لهفتي عليه، لقد اتخذ قراره المتوحّش، قال: «لم أعد أحبك»، وأقفل الخط!

في نهاية الشهر الرابع لم يعد «الحاج رافع» يأتي إلى الدار، تجرّأت مرة وسألت «نرجس» عنه، قالت إنّه لم يعد زوجها، لقد انفصلا، لكنّني أعرف أنّها تلتقيه خارج القصر، إذ حكى «سعيد» السائق لي كلّ شيء. على كلّ حال، حصل أن تعرّفت «نرجس» على رجل ظلّ يتردّد إلى الدار، يسهر معها وينام عندها أحياناً، لم يكن مريحاً بالنسبة إليّ، ولم يحصل أن جرى بيننا أيّ حديث، ثمّ بدأت مرحلة الضيوف. في البداية كانت على فترات متباعدة، ثمّ ازدادت الزيارات، تنوّعت الوجوه واحتاج الأمر إلى تنظيم وطبخ أكثر وفترات تسوّق أطول. قالت «نرجس» إنّها ستضاعف راتبي لأنّها لا تفضّل أن تجلب مساعدة لي، فهي لا تحبّ أن يكون في المنزل الكثير من الموظّفين، لذلك كنت أقضي ساعات طويلة في المطبخ يوميّاً ولا أنام وقتاً كافياً، لكنّ الأجر لم يكن كبيراً وحسب، بل كان يساوي مرتّب وزير في لبنان! بالإضافة إلى الإكراميّات والملابس والهدايا والمساعدات التي كنت أختلق الأسباب الوهميّة للحصول عليها. نعم، كنت طمّاعة!

سافرت مرة واحدة إلى بيروت، وكان فادي قد تزوج قريبةً له أجمل منّي وأصغر سنّاً أيضاً، وحين عدت إلى بغداد بعد عشرة أيام، كان طموحي يتركّز في أن يكون لي مشروع مهمّ. نعم، ربّما كان ذلك محاولة منّي لتعويض الإحباط، ليس إحباطاً، إنّها سكين الهجران التي غرسها «فادي» في قلبي، تحايلت مرات عديدة على «نرجس» كي تعطيني مبالغ أكبر. قلت لها مرة إنّ أبي يحتاج إلى مبلغ لإصلاح بيتنا الذي كان على وشك الانهيار، ومرة أخرى إنّ أمّي تريد السفر إلى فرنسا لأنّ لا علاج لها في لبنان، اخترعت أكاذيب كثيرة ولم تكن «نرجس» ترفض أن تعطيني إطلاقاً. كنت أجمع المال وأرسله عن طريق شابّ يعمل في السفارة اللبنانيّة إلى أمّي كي تخبّئه. في القصر، لم أكن أعرف شيئاً غير المطبخ، وكنت أذهب للتسوّق وأقضي وقتاً مع «سعيد» الشوفير المتعجرف الذي تمنّيت في لحظات اليأس والوحدة والجسد المشتعل أن يكون لي، حتى ولو على فترات متباعدة، كان يشبه «فادي» قليلاً. أعتقد أنّني أردت رغم الجرح استعادة لحظات مسرة قديمة، لقطات تلاشت كأنّها حلم حاولت إنعاشه مع «سعيد». أعرف -طبعاً- أن لا عاطفة عندي تجاهه، لكنّه كان متكبّراً وطمّاعاً، يخطط للفوز بقلب «نرجس»، كان غبيّاً أعمى الطمع عينيه. أعرف أنّه لن يمانع في الأحوال العاديّة أن ينام معي، أنا متأكّدة، لكنّه يخاف أن يصل الخبر إلى «نرجس»، وكنت في أثناء حديثي معه أحاول أن أوقظه من أوهامه التي لن تجلب له شيئاً سوى الإحباط، أن أسخِّف خطّته في الاستحواذ على «نرجس» ليعيد مجده الأرستقراطيّ الذي مسحته يد الزمن: «أيّها الغبي!»، هكذا أخاطبه في

نفسي لأنّه لا يعرف أنّ «نرجس» ذكيّة جداً وتفهم الألاعيب كلّها، لا يعرف أنّها بعينَي ثعلب وقلب جمَل، لا يعرف أنّها مستعدّة لسحق الجميع من أجل مصلحتها. أعرفها جيداً، أعرف أنّها مكسورة من الداخل، لكنّها تحاول أن تعيش بطريقة لا تضطرّ فيها إلى تجنّب دعس الأقدام، وهي تظهر بصورة المرأة القويّة، لكنّها -كما أدركت خلال حديثنا- متصدِّعة القلب ويغمرها الشعور بالغربة! ومنذ وصوله قبل سنة كان «سعيد» يخطّط لعلاقة معها، سافر السائق القديم مع عائلته وجاء بدلاً منه، حاول تمرير بعض الحركات التي تناسب المراهقين أكثر من كونها رسائل رجل ناضج، ثمّ توقّف لأنّها لم تكن مهتمّة، لم تكن تتحدّث -كما قالت لي- معه في الطريق في أثناء تجوالهم إلّا بحدود محسوبة. وهو يحاول أن يظهر لها بصورة العاشق المهذّب والحريص، لكنّها تعرف كلّ شيء، ولا تسمح لأحد باختراق حياتها السرّيّة، أنا الوحيدة التي حصلت على فرصة الدخول إلى حياتها، فتحت لي خزائن أسرارها، أسرارها كلّها التي سأدوّنها في هذا الدفتر، ربّما كانت أكاذيب وقصصاً غير حقيقيّة. على كلّ حال، اعترفت لي في واحدة من المكاشفات أنّها كانت متزوّجة من رجل اسمه «سالم» أحبها بشكل مجنون، أراد أن يخنقها بغيرته عليها، وكانا يتشاجران ولا يضبط لسانه، يذكّرها دائماً بأنّه أخرجها من بيت الدعارة وأنّه يريدها أن تكون مثل البشر، مطيعة محتشمة وشريفة، يذكّرها دائماً بأنّه ترك أهله من أجلها، تغيّر كلّ شيء فيه من أجل أن يعيش معها مثل الناس، ووضعها في كفّة وسمعته في كفّة ثانية، لكنّها كرهته، ليس لأنّه حاول أن يخنق حرّيّتها ويصنع منها دمية أو تمثالاً من

طين يعيد تشكيله كما يحب، بل لأنّ «نرجس» فارغة القلب ولا تعرف الحب، قبولها الزواج منه كان مجرّد هدنة، استراحة من حياتها المملّة المليئة بالروائح العفنة كما وصفتها لي، أرادت فقط أن تجرّب وضعاً آخر. وصلت علاقتها بسالم إلى مستوى لا يمكن تحمّله، في أثناء ذلك تعرّفت على ضابط في جهاز الاستخبارات العسكريّة أو المخابرات، لم أعد أذكر بالضبط. رآها «سالم» معه في سوق العشار، اشتعلت مشادة بينهما في السوق، ولم يعرف أنّ هذا الرجل ضابط كبير في الأمن. المهمّ، وجدوا جثة «سالم» مرميّة في مكان في منطقة الحيانيّة بعد فترة قصيرة. تقول «نرجس» إنّ الضابط مَن قتله، لم يعترف لها، لكنّه هو مَن فعلها، الغريب أنّها تزوجت القاتل نفسه! هذه المرأة غريبة فعلاً، ليس عندها أيّ عاطفة، حتّى إنّني -عندما كانت تحكي لي- كنت أشعر بالخوف. حكت لي حكايتين متناقضتين عن عائلة «سالم» وأخيه «عباس»، يفصل بين الحكايتين سبعة أشهر أو ثمانية، يبدو أنّها تنسى، وسردها القصص مرتبط بشروط عاطفيّة ونفسيّة. على كلّ حال، تقول إنّهما -بعد انتهاء حرب العراق وإيران بفترة- انتقلا إلى بغداد، انتهى عمل الضابط في البصرة واستأجر لها قبل دخول الجيش العراقيّ إلى الكويت بيتاً في بغداد، لكنّه لم يبق معها كثيراً. في البداية كان يزورها كلّ أسبوع، ثمّ تباعدت زياراته حتى انقطعت، تركها ولم ترغب في العودة إلى البصرة، المدينة التي عاشت فيها أكثر من عشر سنوات، باعت كلّ شيء هناك، باعت منزلين وأربعة محلّات. تركت المدينة التي تعرف أزقتها وأسرارها كلّها، وكان لها فيها علاقاتها الواسعة. اشترت في بغداد منزلاً كبيراً في منطقة الكرادة وكانت

تستقبل فيه زوّاراً خاصّين جداً، ثمّ بدأت شبكة علاقاتها تتّسع حتى عام 2000 حين تعرفت بالصدفة على «الحاج رافع»، رجل في الستين اعترف لها في أحد الأيام بغرامه وقال إنّها سلبت عقله وإنّه يشعر كما لو أنّه مراهق، قال لها إنّه سوف يذهب في مهمّة إلى الهند مدة سنة واحدة، وحين يعود سيعيشان معاً. عاد وتزوجها وكان من الممكن أن يكتفي بعلاقة، لكنّه أحبها حقاً كما تقول. ورغم أنّها لم تشعر بشيء تجاهه، وافقت لأنّها أولاً: لا تستطيع رفض رجل مثله، بالحسنى أو بالقوة، وثانياً: سيكون قوة وسنداً لها، ثمّ وعدها بمنزل، هذا القصر. المهمّ أنّهما أمضيا وقتاً في بيروت قبل أن يعودا إلى بغداد، لقد تغيّرت الدنيا، لكنّها كانت تتذكّر «سالم» دائماً كما تقول، تذكر تلك العلاقة التي انتهت بجريمة، وهي تعرف أنّ «عباس» سيواصل البحث عنها لأخذ الثأر لأنّه لم يقتنع بأنّ لا علاقة لها بالجريمة! قالت إنّ دماء ناس كثيرة تُراق ما دام الأمر يتعلّق بضباط كبار في أجهزة الأمن، الوزراء أو حتى التجار الكبار.

المثير أنّ سعيد كان قد حدّثني مرة، ولا أدري لماذا فعل ذلك رغم القيود كلّها على نشر أسرار العمل، خاصة في ما يتعلق بـ«نرجس» والقصر والضيوف، قال إنّه مرات عديدة، بل بما يشبه الانتظام، كان يقود «نرجس» إلى مناطق شعبيّة في بغداد، تذهب مباشرة إلى بيوت في أزقة بائسة، تطرق الباب، تخرج امرأة أو رجل، تسلّمه ظرفًا فيه مال على الأغلب وتعود. تفعل ذلك وأشياء أخرى، منها –مثلاً– إخراج بعض المسجونين من الحبس، أو بعض المعتقلين. دخلت مرة إلى مديريّة أمن «صدام»، انتظرها ربع ساعة قبل

أن تخرج مع شابّ يبدو أنّه تعرض للتعذيب، كان حافيـاً، على الباب أعطته مالاً واستأجرت له تاكسي قبل أن تطلب من «سعيد» التحرك بها إلى مكان آخر. يومها حدّثني «سعيد» عن تدخّل «نرجس» حتى في قرارات سياسيّة، كان يبقى صامتـًا، لكنّه يعرف، أحيانـاً يرافقها إلى الداخل، يسمع بعض أحاديثها مع ناس مهمّين، يقول إنّها تتمتّع بشخصيّة وحضور واهتمام في جميع اللقاءات. قال إنّه دخل معها مرة إلى القصر الجمهوريّ ولم يفتشها أحد! لقد سألها أحد الضباط عن «سعيد»، فردّت عليه بنبرة حادّة مخلوطة بغنج: «السايق مالتي، والي يشتغل ميتفتش عيني!».

لقد عشت سنتين في جوّ من الريبة، الصمت، بعض الخوف والكثير من الشعور بالعار، لكن ما جعلني أستمرّ شعوري بأنّني في مهمّة لها وقت محدَّد، كنت أعدّ الأيام يومـاً بعد يوم كي أنتهي منها، لم تكن هناك ثمة علاقات وأحاديث بيني وبين أحد من موظّفي القصر سوى «سعيد»، لأنّني كنت أخرج معه مرة أو مرتين في الأسبوع. لم نكن -أنا وخلود- نتبادل الكلام، كلمات قليلة فقط خلال النهار. «جبار» والحدائقي لا علاقة لي بهما، تقدم خلود لهما الطعام دون أيّ كلام كما أعرف، الكلّ يحتفظ بأسراره وصمته. شاهدت مرة «خلود» في غرفة «جبار»، لم أقل لـ«نرجس» ولم ألمّح بشيء لـ«خلود»، ولم أُشعِرْ «جبار» بأنّني رأيت كلّ شيء. يبدو أنّ المشهد كان قد حدث مرات وليست المرة التي شاهدتهما فيها الأولى أو الوحيدة فقط. في ذلك الصباح كنت قد صحوت مبكراً على غير العادة، إذ أستيقظ عادةً قبل نصف ساعة من استيقاظ «نرجس»، وكان لـ«خلود» مفتاحها، تدخل عند

الثامنة في العادة، تقوم ببعض الأعمال ولا تصدر صوتاً عند تنفيذها حفاظاً على الهدوء، ولا تبدأ شغلها العاديّ إلّا بعد إفطار «نرجس». على كلّ حال، تناولت قهوتي وأردت في أثناء ذلك التدخين، كانت علبة السجائر فارغة وفكّرت في أن أنتظر حتى تصحو «نرجس»، نظرت من النافذة؛ فارتفعت في وجهي نبتة الصبّار، كلّما تحدّثت مع «نرجس» في خصوص اقتلاعها، تقول نعم ولا تفعل. على كلّ حال، صارت حاجتي إلى التدخين مُلِحّة، فكّرت في الخروج إلى «جبار»، لكنّني ظننته نائماً، فهو يسهر حتى الرابعة صباحاً للحراسة؛ خرجت إلى الصالة وكان الهدوء التام يغمرها، «ولكن أين خلود؟ المفروض أن تكون هنا!» سألت نفسي، إذ لم أجدها في غرفة الملابس ولا في الصالة الصغيرة ولا في صالة الطعام، تأخّرت كثيراً ولم تقل شيئاً البارحة عن التأخير، ولم يحدث أنّها فعلتها من قبل إطلاقاً. لا حلّ الآن أمامي سوى الذهاب إلى «جبار»، فتحت الباب وتمشّيت إلى غرفته التي تقع مقابل البوّابة الخارجيّة، كنت محرَجة قليلاً لأنّه سيكون نائماً في هذا الوقت، لكنّ حاجتي إلى السيجارة تضخّمت، صارت أكبر من الاهتمام باللباقة والتهذيب، بل كانت حاجة تساوي في حجمها أعلى درجات قلّة الذوق. كان باب الغرفة مغلقاً، لكنّني عندما رفعت يدي لكي أطرقه سمعت صوتاً غريباً، صوت لهاث يشبه ما يصدر عن مضاجعة، ظننت في البداية أنّ «جبار» يمارس العادة السرّيّة، ولكن لماذا يفعلها الآن؟ من المعقول أن يفعلها الناس قبل النوم لا في الصباح، توقّفت فترة وجيزة قبل أن يوسوس لي الشيطان، خاصّة أنّني سمعت شيئاً آخر، كان الصوت مزيجاً من لهاث أنثى ورجل. قلت لنفسي:

«اذهبي يا سونا وانظري من الشباك!»، تحرّكت بخطوات حذرة جداً وألقيت نظرة خاطفة، كانت الغرفة مضاءة، ظهر «جبار» عارياً وتحت جسده الضخم «خلود» التي كانت عارية تماماً، لقد عرفتها من جوربيها اللذين كانت ترتديهما في اليوم السابق، كانت تشبك ساقيها فوق ظهره، شاهدت ارتجاج مؤخّرته وهو يقوم برهزاته الأخيرة قبل لحظات من إخراج عضوه، أخرجه وأفرغ سوائله على بطنها. انسحبتُ بهدوء، دخلت إلى البيت، أقفلت الباب وسمعت بعدها باب غرفة «جبار» يُفتَح ثمّ يُقفَل. دخلت مباشرة إلى الحمام، سمعت صوت خطوات «خلود» في الصالة، وفي تلك اللحظات تحوّلت حاجتي إلى تدخين سيجارة إلى شيء آخر، أغلقت الباب وفعلت الشيء الذي كرّرته مراراً، أطفأت جسدي وسمعت بعدها خطوات تتحرّك في اتجاه الحمام.

الراوي العليم يجمع خيوط الواقعة

اعتمد مبنى هذا العمل السرديُّ -في الأساس- على تدوينات «نرجس» و«سونا»، على حديث «جبار» واللقاء في ما بعد بـ«أمّ سعيد»، وأيضاً على أرشيف صحافيّ وأمنيّ ومعطيات تاريخيّة ووثائق، لكنّ الحكاية كانت تحتاج -خاصة في هذا الفصل- إلى بعض المعطيات البسيطة التي وجدتها ضروريّة رغم ذلك، لهذا أضفت خيطاً من الخيال إلى الحكاية، خيطاً -في النهاية- مستلّاً من التدوينات نفسها وليس من خارجها. وسوف أبدأ من يوم الحادثة، من اللحظة التي وصلت فيها «نرجس» إلى القصر بعد انتهاء جولتها في الخارج، إذ دخلت مباشرة إلى الصالة ورمت العباءة ثمّ جلست على الكرسيّ الصغير المصنوع بمهارة وصبر صنّاع الأرابيسك، الكرسيّ الذي شكّل القطعة الأصغر بين ثلاث قطع، اثنتان بطول ثلاثة أمتار لكلٍّ منهما، تشكّلان حرف (L)، تنتصب أمامهما طاولة منخفضة من الخشب المحفور والمطعَّم بالأحجار، وُضِعَت عليها مزهريّة تغرق في مائها سيقان زهور التوليب الصفراء والحمراء. بحركة تبدو آليّة، مدّت يدها إلى رأسها فانزلق الحجاب الحريريّ ليكشف شعراً قصيراً ناعماً تحت ضوء آخر النهار، الأشعّة التي عبرت شبابيك الأرابيسك المتحاورة جماليّاً مع حزام النقوش المغربيّة المحيط بالسقف، حيث ظهرت الحقيقة الفنيّة في هذا التماسك الذي خلقه تناغم الأشياء في الصالة. انسحبت «خلود» إلى صالة الطعام التي لها

باب يُفتَح على الصالة الرئيسيّة من الجهة الشماليّة، وباب آخر من الجهة الجنوبيّة يقود عبر رواق صغير إلى المطبخ. اثنا عشر كرسيًّا من الأرابيسك المطعّم بأحجار اليـاقوت، أحاطوا بطاولة الطعام المصنوعة من أغلى أنواع الخشب، مرّرت «خلود» قطعة القماش عليها، حلّت عقد الستائر الحريريّة ذات اللون الورديّ الفاتح، ضغطتْ زر الضوء فاشتعلت الثريّات الثلاثة الكبيرة التي كانت أكبرهنّ تتدلّى فوق الطاولة مباشرة، بينما احتلّت الأخريان الجزءَ الشماليّ والجنوبيّ من القاعة المدهونة بالأبيض الناصع. مرّرت المكنسة الكهربائيّة بشكل سريع على السجادة التي تغطّي معظم مساحة الصالة، خرجتْ وأقفلت الباب مطمئنّة لأنّها أنهت تنظيف كلّ شيء في الطابق الثاني أيضًا، في الغرف التي انتصبت فيها أسرّة مزدوجة، غيّرت الشراشف والوسائد، وضعت الأزهار في الفازات الكريستاليّة، عطّرت المكان، أسدلت الستائر وأشعلت الأضواء، ولم يكن يشغل بالها شيء سوى تأخّرها في العمل رغم أنّها اضطرّت في بعض الأيام إلى قضاء ساعات إضافيّة بسبب كثرة التحضيرات، لكنّ المشكلة أنّ صحّة زوجها ساءت في الفترة الأخيرة، أصبح مزاجه لا يطاق، نظراته حادّة وقاسية، خاصة عند دخولها البيت بعد حلول الظلام، صحيح أنّه لا يقول شيئًا في خصوص أيّ شيء، لكنّ صمته ونظرته في الحقيقة ينطويان على أفكار تبدو أكثر وضوحًا من التعبير عنها لغةً، الصمت بليغ و«خلود» تعرف أنّ سلوك «ماجد» لا يعني عدم المبالاة، بل الشعور بعدم الجدوى والتلاشي عن ميدان الحياة، فهو واقف خلف الأسوار ولا رغبة

لديه حتى في معرفة ما يجري من صراع، هزائم وانتصارات، فرح وحزن، كأنّ كآبته وعزلته الصوتان الشرعيّان الوحيدان في هذه الحفلة التي يزيّف الجميع فيها ذواتهم، فيظهرون كأنّهم منسجمون مع العالم، بيد أنّ الحقيقة أنّهم يستهلكونه.

أحضرت «سونا» طعاماً خفيفاً لـ«نرجس»، وكانت قبل ذلك قد أنهت الجزء الأكبر من الوجبات المُعَدّة للضيوف، السلطات اللبنانيّة والفرنسيّة واليونانيّة، بالإضافة طبعاً إلى السلطة العراقيّة التي تصفها بـ«الفقيرة» أو «الريفيّة». دخلت «نرجس» إلى الحمام، حمامها الخاص الذي لا يحقّ لأحد أن يستخدمه، لا الموظفون ولا أيّ أحد من الضيوف أو البنات اللواتي يجئن في أثناء الحفلات للخدمة. بدأت «خلود» بنقل الصحون إلى الطاولة، قالت لها «سونا»: «اسمعي خلود، انتبهي، ومثل كلّ مرة أكرّر، قبل ما تحطي الشرشف على الطاولة، لازم تحطي الغطاء البلاستيكيّ ويكون يتناسب مع حجم الطاولة. لازم ينزل عن الطاولة أربعين سنتيمتر مش أكتر أو حطي المنديل على شمال الصحن مش على اليمين، الكاس والسكين على اليمين والشوكة على اليسار». وكانت «خلود» قد حفظت -بالطبع- كلّ شيء منذ فترة طويلة، حتى الحركات المعقّدة التي تتعلّق بالتنظيف وإعداد المائدة، لكنّ «سونا» -في كلّ مرة- تكرر كلّ شيء تفاديًا لأيّ خطأ. خرجت «نرجس» وقد ارتدت روب الحمّام الأحمر أو الـ(بينوار) كما تسمّيه «سونا». دخلت إلى غرفتها وذهبت خلود لتنظّف الـ(تواليت) قبل أن تدخل لتجفيف ما تساقط من ماء الحمام، أو جمع

الملابس المتّسخة ونقلها إلى غرفة الغسالة، أحسّت بالقلق بسبب تأخّرها، رغم أنها كانت في الأحوال كلّها تأخذ تاكسي من رأس الشارع الذي لا يبعد إلّا سبع دقائق، على الأقدام، فالمنطقة آمنة، تقطن في منازلها عوائل ضباط كبار وسياسيّين وتجّار، محروسة بسيارة شرطة من جميع الجهات، ولا يتحرّك الناس فيها إلّا بسيارات حديثة، ولا يسمع فيها صخب، لا صوت سوى صوت موسيقى الحفلات مساءً، فيبدو الحيّ - مع اشتعال الأضواء في الليل- فضاءً خارج الواقع، فضاءً متخيَّلاً في رأس شخص حالم، أو أنّه حلم داخل حلم، المستيقظ منه لا يصدّق أنّه زقاق في أحد أحياء بغداد فعلاً وليس في مكان من نسج الخيال.

أقفل «جبار» جهاز الراديو وبدأ جولة جديدة حول البناء قبل حضور الضيوف، لم يكن ثمة أحد في الصالة عندما ألقى نظرة خاطفة. خرجت «خلود» وكانت ترتدي عباءتها وفي يدها كيس كبير، ألقت التحيّة عليه ورافقها حتى الباب، أقفله وتحرّك في اتجاه الباب الخلفيّ الذي تدخل منه السيارات. رنّ جرس التلفون في الداخل أكثر من مرة وكان شبّاك الصالة الثالث من جهة الشمال مفتوحاً، سمع «نرجس» تتحدث، وقبل أن يشعل سيجارة أخرى سمع صوت منبّه السيارة؛ فتح الباب لتدخل، انحرف السائق مباشرة إلى جهة اليمين وكانت السيارة (سوبير) بيضاء ونظيفة جداً، فُتِحَت الأبواب ونزلت منها أربع بنات لا يتجاوز عمر الواحدة منهنّ السادسة عشر، كانت واحدة منهنّ فقط تبدو أكبر قليلاً، كنّ يرتدين فساتين سهرة سوداء وحمراء وزرقاء، بكعوب عالية، شعر طويل ومكياج

مبالغ فيه خاصة على الشفتين، لم يُثِر الأمر «جبار»، فقد تعوّد على رؤية هذا الحضور الأنثويّ اللامع، ضغط جرس باب الصالة الخلفيّ، فتحت «سونا» وانسحب مفسِحاً الطريق للبنات، رفع السائق يده تحيّة وعاد إلى الوراء، خرج وأقفل «جبار» البوابة ثانيةً، ثمّ مضت فترة وجيزة وسمع منبه سيارة أخرى، فتح الباب ودخلت سيارتان غريبتا الشكل، لم ير مثلهما من قبل، انحرفت واحدة إلى جهة اليمين والأخرى إلى جهة اليسار على ممرّ الكراج الرخاميّ. أُطفِئَت المحرّكات ونزل أربعة رجال بـ(دشاديش) و(يشاميغ) حمر، لم يُلقِ أيٌّ منهم التحيّة وهذا طبيعيّ أيضاً، تعوّد «جبار» أن يكون في موضع احتقار من قِبَل ضيوف «نرجس» باعتباره قوّاداً وليس مجرّد حارس فقط. أحد الرجال الأربعة أكثر أهميّة كما يبدو، كان يرتدي (دشداشة) بيضاء مخلوطة بصفار وحذاء أسود لامع، وعلى رأسه (يشماغ) أحمر و(عقال)، حليق اللحية بشارب كثيف، ملامحه قاسية ومرعبة ونظراته حادة. فسح الآخرون له المجال ليتقدّمهم ويدخل، وكانت «نرجس» نفسها واقفةً لاستقباله، وهذا لا يحدث دائماً: «أهلاً ومرحباً، أهلاً ومرحباً»، كان صوت «نرجس» قد انبعث بنبرة مليئة بالبهجة. سمع «جبار» صوت سيارة أخرى، فتح الباب، دخلت ونزل منها ثلاثة شبان والسائق، أخرَجوا من الصندوق آلات موسيقيّة، كانوا يرتدون بدلات سوداء وقمصاناً بيضاء وكانت أحذيتهم تلمع. بعدهم مباشرة وصلت سيارة فيها بنتان كانتا في العشرين تقريباً، يعرف «جبار» أنّهما ستقومان بخدمة الضيوف والمساعدة في تقديم الطعام وصبّ الشراب

والعناية في المكان في أثناء الحفلة وما بعدها. لبستا تنورتين قصيرتين وقميصين ضيقين مفتوحين، ظهر ثديا كلٍّ منهما بشكل مبالغ فيه، تقدّموا جميعًا بعد إطفاء محرك السيارة، سلّم الشاب الطويل الذي تقدّمهما بتهذيب، أطلّت «سونا» بابتسامة عريضة، دخلوا وأغلقت الباب. عندما تحرّك «جبار» في اتجاه الباب الأماميّ، كان يعرف أنّ الجميع قد حضروا، ولن يخرج أحد حتى انتهاء السهرة فجراً، إلّا إذا حدث ما يقطع السهرة. على كلّ حال، هو يقوم بجولاته طوال الليل حول السور. أُسدِلَت ستائر الطابق الأول ثمّ الطابق الثاني، وانبعثت موسيقى هادئة.

عاد «جبار» إلى غرفته، أَعدّ شايًا وجلس على الكرسيّ أمام البوّابة الأماميّة، شعر بانقباض في القلب لا يعرف سببه. أشياء مثل هذه تحدث بالطبع لكلّ الناس دون أن يكون هناك سبب محدّد لها. نهض وأشعل الأضواء، توهّجت المصابيح المثبّتة على جدران السور الداخليّ من جميع الجهات، ثمّ أضيئت المصابيح الملوّنة التي ثُبِّتت في أغصان وجذوع الأشجار المنتشرة في الحديقة، الأزرق لأشجار البرتقال والأحمر لأشجار الرمان، ولأشجار النخيل البنفسجيّ المفضّل بالنسبة إلى «نرجس». دار «جبار» حول القصر، بندقيّته معلّقة على كتفيه، سمع صوت غناء خفيف يجيء من جهة منزل يقع داخل البستان الذي في الجهة الخلفيّة من قصر «نرجس»، عاد ثانيةً إلى الجزء الأماميّ الذي يواجه الشارع العريض الساكن إلّا ممّا يثيره مرور سيارة في أوقات متباعدة، وفيه مركبات معظمها لسكّان الشارع المضاء بقوّة بواسطة المصابيح التي

عُلِّقت على أسوار البيوت. وضع البندقيّة جانبًا وأشعل سيجارة، استمع إلى الأخبار وتذكّر في تلك اللحظة تحديداً عملَه في قسم الصباغة في شركة الصناعات الخفيفة، العمل الذي تركه بسبب ضآلة الراتب الذي لم يكن يكفي معيشة عائلته يومين حتى. كانت زوجته تلحّ عليه أن يجد عملاً أفضل؛ فاستأجر محلّاً لتصليح الثلّاجات، أقفله بعد فترة قصيرة لعدم توفّر الموادّ الاحتياطيّة ولغلاء غاز الفريون الضروريّ لتصليح الثلّاجات، لملءِ الماطور بالتحديد، شارك بعدها في العديد من المشاريع الفاشلة، لكنّ قضيّة علاقته بزوجته «هناء» شكّلت له قلقًا مضافًا إلى سوء الحال، والحقيقة أنّها لم تكن تمانع، هي لا تهتمّ كما يبدو له، تقول إنّها ستعتني بأولادها وإنّها كبرت بما يكفي لكي تتخلّى عن مشاعر المراهقات، لكنّها فرحت كثيراً بعمله مع «نرجس» رغم أنّه يغيب عن البيت طوال أيام الأسبوع. لقد حدث الأمر بالصدفة، التقى بموظف كان زميلاً له عندما كان يعمل في الشركة، رجلٌ يبدو عليه أنّه ذو منصب ما، ملابسه نظيفة وغالية كما يبدو وعلى وجهه علامات العافية والترف، ليس مثل وجوه الآخرين الذي كانت ملامحهم -كما يرى جبار- مخطوطة برماد السنوات، شاهد مسدّسه تحت سترته، وقبل أن يذهب الرجل قال لـ«جبار» بعد أن عرف منه أنّه عاطل عن العمل: «أكو مَرَة محتاجة لحارس في منزلها». أَخرج من جيبه ورقة وقلمًا، كتب رقم هاتفها وأوصاه بأن يخبرها عندما يتصل بأنّه من طرف «الحاج». اتصل في اليوم التالي، وأجابته امرأة قال إنّ صوتها جميل وفخم. اتّفقا وذهب إلى

العنوان الذي حدّدته، وصل وطرق الباب، فتحت له امرأة كانت ترتدي ملابس فيها إشارة إلى أنّها ليست سيدة البيت، سروالاً وقميصاً رماديَّين، عرّفها بنفسه؛ فردّت عليه بملامح محايدة: «الحاجّة تنتظرك في الصالة، تفضّل». أغلقت الباب وتبعها، دخلت من الباب الخشبيّ المزخرف وكانت «نرجس» تجلس على (القنفة) الضخمة ذات الحواشي المذهّبة، بحجابها وعباءتها التي هبطت على كتفيها وأمامها كوب شاي. رحّبت به وأخبرته بعد حديث قصير أنّه منذ اللحظة سيكون موظّفاً هنا، حارساً، لكنّه يجب أن يحفظ الشروط، وعليه أن يفهم أوّلاً أنّ ما يحدث في هذا البيت –حتى (الكحّة)– يجب أن يكون سرّاً في بئر عميقة جداً، وأنّ كلّ حركة وكلّ همسة يجب أن لا يسمعها أيّ أحد خارج السور، وأنّ كلّ شيء يحدث هنا، يموت هنا، لا زوجته ولا غيرها، لا أبوه ولا أخوه ولا صديقه يعرف بشيء، وأنّه إذا أخطأ لن يشفع له أيّ وضع فيه، كأن يكون في حالة سكر أو بسبب زلّة لسان، لأنّ خسارته في الأحوال كلّها ستكون كبيرة وقاسية أكثر ممّا يتخيّل، وأنّ مختصر الكلام هو أن لا يسمع، لا يرى إلّا ما يستوجبه عمله ولا يتكلّم إلّا بالقدر الذي يتطلّبه السؤال.

نهض ضيوف الحاجّة «نرجس» من الصالة الرئيسيّة إلى صالة الطعام بعد أن أشارت بيدها وابتسمت ابتسامة واسعة: «تفضلوا على العشا». تناول الشبّان الثلاثة عشاءهم في الطابق الأعلى، في صالة صغيرة بجانب صالة الحفلات قبل أن يبدأوا بتحضير آلاتهم لبدء الحفلة، وكانت البنتان

تعملان حسب أوامر «سونا»، تتحرّكان بخفّة ومرح بين صالة الطعام والمطبخ، تقدّمان الأطباق وتسكبان النبيذ في الكؤوس.

كانت الطاولة الكبيرة ممتلئة بأطباق من كلّ لون ونوع، وقفت «سونا» في طرف الصالة ثمّ انسحبت بعد أن اطمأنّت أنّ كلّ شيء على ما يرام، تاركةً للشابّتَين مهمّة تنفيذ أيّ طلب مفاجئ. كانت «نرجس» بفستان عاري الكتفين تضع عقداً ذهبيّاً مطعّماً بالأحجار الثمينة، تجلس بجانب رجل ذي شارب عريض، كان يتكلّم ويضحك غير مهتمّ لبقايا الطعام التي كانت تتناثر على (دشداشته)، لم يستخدم المنديل الذي حرصت «سونا» على وضعه بجانب الصحن، بينما كانت البنات يأكلن بتهذيب، بخوف أو اضطراب، يشربن بعد كلّ لقمة قصيرة النبيذ من الكؤوس الكرستاليّة.

بدأ الموسيقيّون بضبط الآلات الموسيقيّة، عازف الكمان، عزف العود وعازف الأورغ الذي كان يحتاج إلى وقت أطول لضبط أزرار آلته. قال المطرب قال إنّه يرغب في سؤال الحاجة عمّا يحبّون سماعه. جلست «سونا» في المطبخ متعبة وأحست بالوحدة، والواقع أنّ شعوراً كهذا غالباً ما يغمرها في أثناء الدعوات، الوقت الذي يأكل فيه الجميع بينما يترك الفراغ الذي يحيط بالمطبخ الواسع نوعاً من الانقباض في قلبها، تستعيد سيرتها كلّها، كيف جاءت إلى بغداد، كيف تركت عائلتها والمطعم: «الآن أنا لا شيء!»، هكذا تردّد في نفسها أو تجلد ذاتها وتصف نفسها بالمرأة السمينة المحبوسة في قصر وحدها مثل حمار. كانت حياتها -كما تدّعي- باردة، تضاءلت رغبتها في أن يكون لها حبيب أو زوج، وكان من السهل أن

تتـزوّج «فـادي»، أن تنجـب أطفـالاً وأن لا تـترك جسـدها يترهّـل بهـذه الطريقة، ثمّ تعيد في نفسها القصة نفسها والأسئلة نفسها: «هـل كـان فـادي يحبّني فعـلاً؟ لمـاذا انتظـر أن قـرّرت السـفر لـيعلن بصـراحة تخلّيـه عنّي؟ لماذا لم يفعلها قبل ذلك؟ لن أقتله أو أحبسه! أيّ سخرية هـذه!». فتحـت النافـذة المطلّـة علـى الحديقـة، صـبّت كـأس نبيـذ وأشـعلت سـيجارتها، شغّلت مسجّل صغير إلى جانبها فانطلقت منه أغنية لـ«فيروز» بصوت منخفض، كانت تفعل ذلك كلّما أحسّت بالضيق، وكانت «نرجس» عندما تـدخل إلـى المطـبخ تقـول لهـا: «لا تضـوجين ولا تحـزنين، فـادي مـا يستحقك، مَن يملك قلبك المفروض يكون رجل أفضل منّه!».

انتقـل الضـيوف إلـى طاولـة الفاكهـة والحلويـات، سـارعت «سـونا» والبنتان في نقل الأطباق من المائدة الكبيرة إلى المطبخ، وبعد مرور وقت قصير انتقل الجميع إلى صـالة الحفـلات في الطـابق الثـاني، قاعـة مفروشـة بجلسة مغربيّة وثيرة بمساند كبيرة عليها وسـائد محشـوة بـالريش ومغلّفـة بقماش ناعم بلون أخضر فـاتح. تـدلّت ثريّـا ضـخمة مـن السـقف العـالي، ونُصبت طاولات صغيرة واطئة أمام المقاعـد، عليهـا كـؤوس وقنـاني نبيـذ وويسكي وكونياك، صحون الزيتون، مكعبات الجبنة المطبوخة، قطع من الليمون المملَّح وشرائح الخيار مع أنواع مختلفة من المكسّرات، ثـمّ بـدأ الموسيقيّون العزف واستعدّ المغني.

رنّ جرس البوّابة الأماميّة المطلّة على الشـارع الهـادئ، نهـض «جبـار» مستغربـًا وكانت حركته سريعة ومضطربة حتى إنّه وضع يده مباشرة علـى

حاضن بندقيّته، توقّع أن يكون الطارق قد جاء مشياً من أول الشارع لأنّه لم يسمع صوت عجلات سيارة أو صوت محرّك، تمشّى إلى البوّابة وهو يحاول أن يفسّر طبيعة هذه الزيارة ويخمّن شخصيّة الزائر، قال لنفسه إنّ القادم ليس ضيفاً متأخّراً، لقد مر وقت طويل على بداية السهرة، هذا أوّلاً. ثانياً، لم يحدث أمر مثل هذا الأمر من قبل. ثالثاً، سيارات الضيوف تتوقّف عند البوّابة الخلفيّة، ولا ضيف يأتي راجلاً.

لقد كانت سيرته العمليّة في هذا المكان مثل خطّ مستقيم، لم يحدث انحراف في طبيعة اليوميّات ولم يتغيّر الإيقاع، لذلك كان قلقه مبرَّراً، بمعنى أنّ الأشياء كلّها كانت واضحة دائماً والكلام واضح دون لفّ أو دوران. يمضي اليوم مثلما مضى اليوم الذي قبله دون أيّ محاولة منه أو من الموظّفين الآخرين للاستخفاف بهذا الإيقاع، لا توجد حوادث فيها تضييع وقت أو كذب، لا يتعلّق الأمر بصبغة أخلاقيّة، لكنّ شروط العمل واضحة للجميع، وأيّ محاولة للكذب أو تمرير شيء غير عاديّ ستكون مكشوفةً. صحيح أنّ شيئاً من الغموض يلفّ المكان بتفاصيله كلّها، غموض سيدة البيت بالتحديد وغموض الضيوف، لكنّ شروط العمل هنا فرضت معرفة نصف الحقيقة فقط أو ربعها، أو عدم معرفة أيّ شيء منها مطلقاً! فالسعي إلى فكّ جزء من هذا الغموض أقصر الطرق للخسارة، وما دام الربح متوفّراً فعلى «جبار» -نفسه- أن يحافظ على هذه الوفرة، أن لا يمسك معولاً ويجرب عمليّة الهدم، أن يحرص على وضع القدم في محلّها، يبحث قبل النطق بالكلمة عن محلّها ويحسب ردّ فعل الآخر

ليسدّد النظرة فتكون في محلّها، حتى رغبته في «نرجس» ينبغي لها أن تظلّ محبوسة في منطقة الرغبة وحسب، رغبة داخليّة لا يجب أن تتجلّى على شكل كلمة غزل مثلاً أو حركة تدلّ على الشغف، عليه أيضاً أن يكون يقظاً في عمله وأن لا يتذمّر، لأنّ التذمّر طريق المأساة، بل الفخّ الذي يقود إلى الطرد خارج حدود هذه المملكة، عليه أن لا يتكاسل، لأنّ الكسل جنوحاً نحو المنطقة التي يتعرّض فيها الحارس إلى مجرّد فزاعة، عليه أن يحافظ على إيقاع واحد في كلّ شيء، إيقاع يضمن له تجنّب المشاكل التي تكلّفه مزيداً من التوبيخات وأن لا ينسى حساب المصادفات، يضع لها الخطط قدر الإمكان، فهي -في النهاية- وقائع رغم خروجها عن المألوف، لكنّها تقلق إيقاع القصر وساكنيه. تلك الأمور كلّها يجب أن لا تحدث.

وصل إلى البوّابة وكان قد جعل بندقيّته في وضع يسمح له باستخدامها بسرعة. الحقيقة أنّ «جبار» لا تنقصه المهارة في استخدام السلاح، يشهد له بذلك الضباط في أيام خدمته العسكريّة في أثناء الحرب، كما يشهد له رفاقه الجنود في فوج المشاة الذي كانت سراياه تتوزّع على ساتر في قاطع البصرة في أيام حرب الثمانينيّات. فتح الباب وتراجع خطوتين إلى الخلف ويده على الزناد، لكنّه استرخى عندما وجد أمامه شابّاً نحيلاً في نهاية الثلاثين من عمره، يبدو متعَباً وملابسه توحي بأنّه فقير جدًا مثل الملايين الذين غيّر الحصار أحوالهم. لا يعرف «جبار» أنّ هذا الشابّ هو «عباس» أخو «سالم» زوج «نرجس» القديم الذي قُتِل، «عباس» الذي ظلّ طوال

السنوات يتّهم «نرجس» بمشاركة القاتل في الجريمة. ألقى عباس التحيّة بطريقة خجِلة ومشبَعة بانكسار يعرفه «جبار» جيداً، انكسار الناس الذين طحنهم الحصار، وعلى الرغم من ذلك ردّ عليه باقتضاب ونبرة شخص مستعجِل على السؤال، سأله عن شخصيّته واسمه وسبب تواجده هنا، لم يذكر «عباس» اسمه، قال إنّه من طرف «سميرة البصراويّة» وهي من أقرباء صاحبة البيت وصديقتها جداً، لهما تاريخ مشترك من المحبة والأوقات الطيّبة، وقال إنّه جاء من البصرة ووصل الآن إلى بغداد وليس لديه مكان يذهب إليه، ولا مال لديه لكي يستأجر غرفة في فندق، وإنّ مهمته مستعجلة، لا يريد أن يبات أصلاً، بل جاء لأنّ «سميرة البصراويّة» أرسلته إلى صاحبة هذا البيت ليخبرها بأنّ «سميرة» بين الموت والحياة، يحتاج إلى المال والعودة بسرعة هذه الليلة لإنقاذها، لأنّ المستشفى لن تجري لها العمليّة دون تسليم المال. لم يفقد «جبار» شعور الارتياب في قلبه، لم يتخلّ عن مسك البندقيّة بالطريقة التي تجعله قادراً على التصرّف بسرعة، بل كان خائفاً من مباغتة الشابّ له رغم ذلك، فوظيفته تستدعي أن لا يثق بأحد وأن يكون صارماً أمام كلّ حدث مهما كان تافهاً. قال لـ«عباس» أن يعود إلى هنا في اليوم التالي الساعة العاشرة صباحاً، وهو الوقت الذي تستيقظ فيه الحاجّة، لكنّ «عباس» ألحّ كثيراً، قبّل يد «جبار» وكان مستعدّاً لتقبيل حذائه، فبدا كما لو أنّه رجل لا خوف منه، مضطَرّ لفعل أيّ شيء للحصول على مال ينقذ به «سميرة البصراويّة» من الموت. صمت «جبار» فترة وجيزة، ثمّ -بتصرّف غير واثق من صحّته- أدخله وأغلق الباب. كان

هناك نوعان من المشاعر قد تصارعا داخل رأسه، يتعلّق الأوّل بالواجب، وهذا التصرف ينطوي -بالطبع- على كسر شروط العمل، والآخر يتعلّق بتعاطف إنسانيّ، بحياة امرأة ربّما كانت أمّ الشابّ نفسه، أو أنّها فعلاً صديقة «نرجس»، وعلى أيّ حال، لا يعرف طبيعة العلاقة حقـًا بينهما. كانت الأسئلة تدور في رأسه وتحضر الإجابات، يمكنها أن تكون بالفعل كما وصفها الشابّ، ويمكن أن يكون تصرّفه هذا سبب إنقاذ إنسان من الموت، قال لنفسه إنّ الشاب جاء من طرف امرأة من أقرباء «نرجس»، صديقتها جداً وبينهما ذكريات مشتركة! التفت إلى «عباس» وقال إنّه لا يضمن له مقابلة الحاجّة، ومن الممكن جداً أن ينتظر حتى الفجر، أو ربّما حتى الغد عند العاشرة، لا يستطيع على كلّ حال إبلاغها بوجوده في هذا الوقت، إلّا إذا كان حظّه جيداً. خرج أحد الضيوف مبكراً، ورافقته «نرجس» إلى الباب الخلفيّ. لقد تصرّف «جبار» -في النهاية- بما يناسب انتماءَه إلى طبقة الفقراء، لم يخضع للقانون لأنّ الشابّ الذي جلس على كرسي أمامه ينتمي إليه وليس إلى الضيوف، ولا حتى إلى «نرجس». «إنّهم يرقصون!» قال لنفسه، آلمه الأمر، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يمر فيها بتجربة الألم. إنّ هؤلاء الذي يرهزون في الداخل وينثرون الدولارات، كلّ رزمة منها تكفي مئة عائلة للعيش شهراً كاملاً في هذا الوقت الصعب، لقد انحاز إلى نفسه في النهاية، إلى المكان الآخر الذي تهيمن عليه المأساة، الجوع، الخوف، المرض والنقص الكبير في الخدمات.

كانت «سونا» في المطبخ، شعرت بالتعب الشديد فأرادت أن تذهب إلى غرفتها وتنام، لكنّ ذلك مستحيل، فطلبات الضيوف لا تنتهي حتى انتهاء السهرة، وعليها أن تجهّز كلّ شيء أوّل بأوّل. خرجت من المطبخ رغم ذلك وذهبت إلى غرفتها، رمت حذاءها كيفما اتفق، استلقت على السرير وأغمضت عينيها، شعرت بأنّ جسدها كلّه ينهار، مرت خمس دقائق وكادت تغفو، نهضت وشعرت بدوار، ارتدت حذاءها، ثمّ أمام مرآة الـ(الخزانة)، ألقت نظرة على جسدها، فحصت تلك الكتل الشحميّة التي كبرت عند الأرداف والخاصرة، أحزنها هذا الترهل على الرغم من تناولها الطعام بشكل معقول وصحّيّ في الغالب، خرجت إلى المطبخ وهيمن عليها شعور بالإحباط، وصفت نفسها بأنّها مثل حيوان يعمل، يأكل وينام، وشعرت بأنّها محتاجة فعلاً إلى نشاط آخر، نزهات أسبوعيّة على الأقلّ، لكنّ الحقيقة أن لا فائدة من التخطيط للنزهات، فالبلد -كما تقول- متهالك ولا يوجد فيه ما يغري بالخروج في نزهة. نظرت إلى الحديقة المضاءة من خلال الشباك وهي تنفثت دخان سيجارتها، تناولت جرعة من كأس النبيذ وفكّرت كم هي محتاجة إلى رجل يطفئ فيها ذكرى «فادي»، يجمع قلبها المتصدّع وينسيها جرحها. أشعلت سجارة أخرى وفكّرت في «سعيد» مرة أخرى، أحزنها أن تنحدر إلى مستوى سيّئ: «سعيد سعيد سعيد!»، هكذا كان الاسم يتردّد في داخلها مثيراً لديها شعوراً بالأسى لأنّها محبوسة وليس أمامها غير هذا الثعلب المتعجرف. نعم، ثعلب كما تصفه دائمًا، على الرغم من كونه الشخص الذي يقضي

معها وقتاً طويلاً تتخلّله أحاديث متنوّعة واعترافات حتى. وجّهت اللوم إلى نفسها، قالت إنّها سخيفة ومبتذَلة عندما سمحت لنفسها بأن تحاول إغواءه في أثناء جولات التسوّق، وإنّها كانت غبيّة عندما حاولت بطريقة مواربة لفت انتباهه إلى أنّ مخططه سيقوده إلى الهاوية، سوف يكتشف الوهم في الوقت الذي يتلقّى فيه الصفعة، وكم هو غبيّ وأحمق وتافه وطمّاع عندما يتحدّث كلّ يوم كأنّه يقرأ نشيداً عن تاريخه الأرستقراطيّ، يتحدّث عن وسامته دون خجل أو شعور بالرزانة، غبيّ لأنّه يظنّ أنّ تاريخه ووسامته كافيان لكي يصل إلى قلب «نرجس». لقد هيمنت عليها -مثل كلّ مرة- فكرة العودة إلى بيروت، كانت فكرة السفر تضغط عليها في الأشهر الأخيرة، خاصة أنها قد جمعت ما يكفي من المال لكي تبدأ حياة جديدة في بيروت. خرجت من المطبخ إلى الصالة، فتحت الباب ونادت «جبار»، نهض وفي يده بندقيّته، سألته عن القادم لمعرفة ما إذا كان ضيفاً متأخّراً لتحسب حسابه في تجهيز الطعام والأشياء الأخرى، قال إنّ الأمر لا يتعلّق بضيف، إنّه شابّ يقول إنّه من طرف امرأة من البصرة، قريبة الحاجّة «نرجس»، وإنّه يريد أن يراها لأمر مستعجل. سألته عن حاجة الرجل على وجه الدقة، ردّ عليها بأنّه لا يعرف، لكنّه يريد رؤية السيدة لأمر مهمّ لا يحتمل التأجيل. ظهر في ملامح «سونا» الضيق وعدم الرضا، قالت إنّه غير ممكن، بل مستحيل في هذا الوقت، سألت «جبار» مستنكرةً كيف فعلها وأدخله، فهذا يخالف القوانين، قالت له إنّ السيدة سوف تغضب حتماً، لذلك ينبغي عليه التصرّف وإصلاح الخطأ. أقفلت

الباب وعاد «جبار» إلى مكانه بشعور مضاعف بالذنب دون أن يفقد في الوقت نفسه تعاطفه مع الرجل. طلب من «عباس» أن يذهب في الوقت الحاضر ويعود عند أول النهار التالي. أدخل يده في جيبه، قدّم له رزمة من الأوراق الماليّة دون أن يعدّها واقترح عليه أن يستأجر غرفة في فندق، فالمال كافٍ لذلك ولبعض المصاريف لشراء السجائر والإفطار، واقترح أن يشتري حذاء مثلاً وقميصاً، فهو يحتاج إلى أشياء مثل هذه ليقابل السيدة غداً، فليس من المروءة بالنسبة إلى جبار كما أوضح له أن يراه أمام امرأة بهذا الحال، لكنّ «عباس» رفض المال، أعاد الحركات نفسها هذه المرة حتى وصل إلى حذاء «جبار» فعلاً، قبّله وكرّر قول إنّ الحاجّة «سميرة» على وشك الموت، المرأة التي ربّته بعد موت والديه، وقال إنّه يريد أن يفعل شيئًا قبل أن يخسرها فيندم، بل إنّ السيدة «نرجس» نفسها سوف تندم لأنّ «سميرة البصراويّة» تموت بسبب عدم اهتمامها، وحتى لو لم تمت فإنّ «سميرة» سوف تزعل، وهو متيقّن أنّ السيدة «نرجس» لا تتحمّل زعل صديقتها، بل أختها، فقد عاشا معًا في بيت واحد سنوات طويلة. عرف «جبار» بالضبط طبيعة العلاقة بينهما، لكنّه لا يستطيع أن يجزم أنّ «نرجس» بالفعل قريبة من «سميرة البصراويّة» بالمسافة نفسها التي وصفها الشابّ، ثمّ أعاد «عباس» قسمَه أنّ السيدة «نرجس» عندما تسمع أنّه هنا سوف تفرح، سوف تُدخِله بكلّ محبة وتمنحه المال الذي يطلبه ليدفع عند أول النهار تكلفة عمليّة «سميرة»، بل إنّ الحاجّة «نرجس» -على الأغلب- ستذهب معه لرؤيتها. شعر «جبار» بأنّه

محشور في موقف محيّر، صبّ لـ«عباس» شايًا وأعطاه علبة سجائر، تناولها وشكره بشكل مبالغ فيه، كانت عيناه حمراوين ولم ينقطع عن مديح «جبار» الذي ناوله منديلاً ورقيًّا ليمسح أنفه. شرب الشاي ونظراته موجَّهة إلى الأرض. «تعال وياي!»، قال «جبار» ونهض «عباس»، رافقه بجولة حول القصر وكانت خطواتهما بطيئة، لم يتحدّث «جبار»، كان يفكر في هذه الورطة، بينما كان «عباس» يواصل الثرثرة حول كلّ شيء، الحديقة والأضواء والقصر والحيّ، يسأل و«جبار» صامت أو منشغل بحوار داخليّ يريد من خلاله فضّ الاشتباك بين موقفين يتصارعان في المساحة بين رأسه وقلبه. دارا حول البيت وقبل أن يعودا إلى غرفة «جبار» رنّ جرس البوّابة الأماميّة، تحرّك «جبار» بطريقة من ظنّ أنّ هناك مؤامرة، لأنّ مصادفات مثل هذه لم تحدث من قبل، فكّر في أشياء كثيرة، منها أنّ هذا الغريب متّفق مع آخرين، وأنّ عليه التصرّف بحكمة وشجاعة حتى لا يحدث ما يجعله نادمًا طوال حياته. قال لـ«عباس» أن يتقدّمه إلى الباب، سحب أقسام بندقيّته ووضع يده على الزناد موجِّهًا فوّهة البندقيّة إلى ظهر «عباس»، طلب منه أن يفتح الباب. استفسر «جبار» عن الطارق فوصل إليه صوت «سعيد»، كان واضحًا أنّه ثمل، لكنّ القضيّة لا تتعلّق بكونه ثملاً أو لا، بل بسرّ زيارته الغريبة هذه، إذ إنّه لم يفعلها إلّا مرة واحدة حين استدعته «نرجس» نفسها لنقل «سونا» إلى المستشفى. ثمّ ما تلك المصادفات التي تجعل أمراً مستحيلاً أو نادراً يحدث مرتين في الليلة نفسها! تقدّم «جبار» بعد أن طلب من «عباس» أن يعود إلى مكانه، فتح

الباب وسأل «سعيد» عن سبب مجيئه في هذا الوقت، استفسر منه إذا ما كان حدث طارئ قد حدث في الداخل والحاجّة هي مَن استدعته، لم يجبه، دخل مترنّحاً وعبرَ الممر في طريقه إلى باب الصالة. أقفل «جبار» الباب وسار خلفه بخطوات واسعة، بينما لم يستطع «سعيد» بسبب السُّكر أن ينسج جملة متّزنة واحدة، لكنّه ظهر أيضاً غير مهتمّ بسؤال «جبار»، تصرّف بعنجهيّة عندما رفع يده في إشارة إلى «جبار» أن يصمت، وقبل أن يصل إلى الباب أمسك «جبار» يده، حذّره من الخطأ الكبير الذي يقترفه، قال له إنّ الحاجّة ستغضب، بل سيكون الأمر في غاية السوء إذا علمت بمجيئه ثِملاً في هذا الوقت الذي يسهر فيه ضيوفها، طلب منه أن يذهب معه إلى غرفته ويرقد في سريره، لكنّ «سعيد» أفلت يده من يد «جبار»، خطا عدة خطوات وضغط على الجرس وكان «عباس» يرصد المشهد بارتياب، فضّل أن يراقب وحسب وأن لا يقوم بحركة حمقاء، خاف أن يُفسِدَ تصرّفٌ منه غير محسوب المهمّةَ التي جاء من أجلها، و«جبار» سحبَ «سعيد»، والحقيقة أنّه لم يكن قلقاً في شأنه، فهو زميله في العمل ولا يتوقّع منه رغم ثمالته خطراً، ولا يتوقّع ردّ فعل عنيف من «نرجس»، بل كان قلقه الحقيقيّ بسبب هذا الغريب الذي يجلس على كرسيّ أمام غرفته. فتحت «سونا» الباب وكانت مستغربة من وجود «سعيد» الذي قال لها مباشرة إنّه جائع! لم تفهم ماذا يعني هذا، أن يطرق الباب بعد منتصف الليل لأنّه جائع، ولأنّها لا تريد أن تطيل الحديث معه خاصة أنّه ثمل، طلبت منه أن ينتظر في غرفة «جبار» لكي تجلب له الطعام. كانت تريد أن

تقفل الباب عندما ظهر على «سعيد» ما يثبت أنّه أحمق فعلاً وليس ثملاً فقط. شتم «سونا» التي لم تصدّق ما سمعت، لكنّها سرعان ما تفهّمت أنّ السكارى يمكن أن يخرج منهم الكلام كما يخرج القيء، لم يتكلّم «جبار»، ظهر شعور الغضب والتوتر على وجهه، رفع «سعيد» يديه ودفع «سونا»، تراجعت؛ فسحبه «جبار» إلى الخلف وصار واضحاً بالنسبة إلى «سونا» أنّ عراكاً سوف ينشب، معركة من المؤكّد أنّ «جبار» سيحسمها بسهولة، لكنّها تصرّفت بحكمة، أشارت إلى «جبار» أن يتركه، أدخلته ثمّ أغلقت الباب.

في المطبخ، حاولت «سونا» تهدئة «سعيد»، قال لها إنّه يريد التحدّث مع الحاجّة، أخبرته أنّه يعرف تماماً أنّ الحاجّة تكون مشغولة في وقت مثل هذا، مشغولة جداً ولا يمكنها سماعه. قالت له إنّ وظيفتها في المطبخ فقط ولا يحقّ لها الصعود إلّا إذا طُلب منها ذلك، وإنّه لا يعرف أنّ الضيوف أكثر أهميّة هذه الليلة من أيّ ليلة أخرى. قال لها إنّه هو الآخر ليس عاديّاً، وأنّه أهمّ من هؤلاء البدو المتخلّفين، شرح لها -بكلام سمعته مراراً- أنّ أباه كان أكبر شأناً من هؤلاء كلّهم، وأنّ قصرهم في الوزيريّة قصر حقيقيّ أكبر من هذا المنزل المتواضع. قدّمت له كأس نبيذ، رفضه. اقترحت عليه بعض القهوة فقط لكي يهدأ، حتى تتدبّر وسيلة لسحب الحاجّة إلى الأسفل أو تجعله يصحو على نفسه، يخرج أو ينام، هدأ قليلاً وجلس على الكرسيّ، صنعت له القهوة وفي أثناء ذلك بدأت عيناه تنغلقان، لكنّه كلّما أحسّ بثقل جفنيه، قام؛ فاحتضنته ليجلس. تكرّر

المشهد ثلاث مرات، كلّما قام طوّقته «سونا» بذراعيها وأجبرته على الجلوس، رشف من القهوة وحين فعلتها في المرة الثالثة شعرت بشيء ما يتحرك في داخلها، تحرّرت من فكرة أنّ وجوده سوف يحدث مشكلة، لسعتها حرارة جسده الملتصق على نهديها، اشتعلت مشاعر غريبة في جزئها السفليّ وانفجرت الخيالات في رأسها حتى انتشرت حبيبات صغيرة من العرق على جبينها. صار جسدها في حالة تشبه مَن يتعرّض لقشعريرة مفاجئة. كانت الموسيقى تنبعث من الطابق الأعلى تتخلّلها ضحكات أنثويّة بين فترة وأخرى. وضعت يدها حول خصره ويده فوق كتفها وطلبت منه أن يأتي معها إلى غرفتها كي يرتاح بعض الوقت حتى تختلق عذراً لنزول الحاجّة. قادته إلى غرفتها بينما كان جسده ثقيلاً وعيناه شبه مغمضتين. أجلسته على سريرها، لكنّ جسدها في تلك اللحظة كان قد اشتعل وصارت رغبتها خارج كلّ حذر. فتحت أزرار قميصه وساعدته في الاستلقاء، حرّرت قدميه من الحذاء، لكنّه نهض فجأةً، أعاد إقفال قميصه وخرج إلى الصالة. كان الموسيقيّون قد توقّفوا عن العزف فترة استراحة، جرّ أحدّ الضيوف البنت التي كانت إلى جانبه إلى غرفة بجانب الصالة، رافقتهم «نرجس» إلى الباب، دخلا إلى الغرفة وعادت «نرجس» لتشرب من كأسها، تبادلت نكتة جنسيّة مع رجل ذي شارب عريض، قال مشيراً إلى الرجل الذي دخل الغرفة مع البنت: «خصيّ، لكنّه يريد أن يفهمنا أنّه قادر على فعلها!»، ابتسمت «نرجس» هذه المرة لأنّها لا تريد أن تكون طرفاً في مشاكل الكبار، إذ تتلخّص مهمّتها في توفير المتعة

للجميع ليرافقهم الرضا حين يغادرون، والرضا لا يعني فقط استمرار علاقتها مع هؤلاء الناس وحسب، بل يعني تدفّق رزم الدولارات المتروكة في يدها. كان الرجل ما زال يثرثر عندما سمعت «نرجس» في الأسفل حواراً بصوت عالٍ، تجاهلته فترة، خاصة أنّها تناولت كأسين من النبيذ الجيد. كانت السهرة في نصفها الأوّل ممتازة وكان الارتياح واضحاً على وجوه الضيوف الذين تقترب مناصبهم من الطابق الأعلى في بناية السلطة، الطابق الأسفل ينتصب فيه عرش الرئيس. أعطى عازف الأورغ إشارة للبدء بأغنية جديدة، قالت إحدى البنات -وكانت شبه عارية- إنّها تريد الغناء، أمسكت المايكرفون وبدأت تغنّي بصوت مترنّح:

صفه رسمك بعنيني من الصبا لليوم..

وطيوفك ضيوفي بصحوتي والنوم..

ولك ما ظنيت، ما ظنيت، عشك عشك ليله ويوم

ليله ليله ليله، ليله ويوم ليله ويوم.

كان «سعيد» يقف في وسط الصالة عندما سألته «سونا» عمّا يريده من «نرجس»، فعلت ذلك بطريقة مَن يعرف كلّ شيء ولا يبحث عن إجابة أصلاً، قال إنّه يحبها، وإنّه في تلك الليلة قرّر الاعتراف لها بحبه. مسحت حبات العرق عن وجهها وابتسمت بحزن مخلوط بتعاطف وربّما غضب وسخرية، قالت له: «أنت تحلم، أنت ما بتلبق لها، أنا بعرف شو بدها، والله بعرف، هي ما بدها حدا، وما بتحب حدا وقلبها مثل الحجر، ولك فُوق، ما بتقدر توصل للّي بدك ياه! أصغر واحد من ضيوفها مدير أمن،

منهم أقارب الرئيس، لو كان بدها تتزوج، كان اختارت حدا أحسن منك بكثير، ولو كانت بتعرف شو الحب، كان من زمان، ولك أنت ما بتعرفها، أنت بالنسبة إلها شوفير، شوفير وبس، وممكن بأيّ لحظة تقلك: أوريفوار!».

نزلت «نرجس» وتركت ضيوفها منسجمين مع الموسيقى وهزّ الأجساد والأحضان والقبل، سألت عمّا يحدث، أخبرتها «سونا» إنّ سعيد....

لم تكمل «سونا» جملتها، وكان واضحاً أنّ «نرجس» في غاية الاستغراب لوجوده، كانت تلبس فستاناً عاري الكتفين بصدر مفتوح، وقد صفّفت شعرها بطريقة جعلتها تبدو أصغر من عمرها بكثير. كان «سعيد» يحدّق فيها بذهول لأنّه لم يرها قبل ذلك بهذه الهيئة التي كانت مثيرة له، لم يرَها في حياته إلّا بالعباءة والحجاب، الآن هي أنثى وليست حاجّة، حافظت عيناها -رغم السهر- على تألقهما، وبدت شفتاها شهيّتَين له، وصدرها كما لو أنّه لامرأة شابّة جداً. كانت طويلة، ممتلئة الفخذين وقد تجلّى بياضهما من خلف الثوب القصير الشفّاف. وجّهت إليه كلامها بنبرة عصبيّة، لكن بصوت منخفِض: «شجابك؟ وجبار شلون خلاك تطب؟ شغلك ينتهي بعد الظهر، ومالك حق تدخل البيت إلّا إذا آني طلبتك، افتهمت؟».

تحركت «سونا» في اتجاه المطبخ وكانت تسمع خلفها «سعيد» وهو يحاول بصعوبة تجميع الكلمات لتحرير جملة، قال إنّه جاء من أجلها!

لكنّها لم تفهم، أو مثّلت دور الذي لم يعرف معنى الجملة، استفسرت بنفاد صبر عن حاجته، وهل الأمر بهذه الخطورة التي تجعله لا يقدر على الانتظار حتى الغد! قال لها إنّه يحبها، وفي هذه الليلة تحديداً شعر بأنّه لو لم يعترف لها سيصيب قلبَه شيءٌ خطير، أو أنّه سيفقد عقله، وإنّها فعلاً أفقدته عقله، يشتاق لها حتى وهي معه في السيارة، أمّا هذه الليلة فهي ليلة الأشواق ووجودها إلى جانبه حلم بالنسبة إليه، وهو مستعدّ لفعل أيّ شيء من أجل هذا الحلم. ابتسمت «نرجس» ولم يفهم ماذا تعني هذه الابستامة، وما الكلام الذي يختفي خلف شفتيها، شرح لها كيف أنّ حياته دونها لا تساوي درهمًا، لكنّها فجأته بطريقة لم يتوقّعها: «شوف ولك، أنت ما تسوى عندي درهم. اطلع برّه جربوع، لا تخاف ما راح أبطلك من الشغل لأنك سكران، وراح أنسى كلّ شي، يلله برّا».

شعر بأنّ شيئًا ثقيلاً هبط على رأسه، اهتزّ جسده وازدادت ضربات قلبه، حاول في تلك اللحظات أن يمسك جسده أوّلاً، وأن لا يترك هذا الفراغ الذي أعقب جملة «نرجس» يأخذ حيزاً واسعًا في الزمن فيضيع فيه كأنّه شخص ترك الميناء وهو يرى بعينه سفينته تغرق وقد وضع فيها أمواله كلّها. كانت سيرة العائلة تشكّل في تلك اللحظة ضغطًا، إذ لم يقتنع بأنّ ثمّة قوادة تعامله بهذا الشكل، بينما كانت نبرة صوتها مليئة بالثقة والاعتداد بالنفس، تضاعف شعوره بالخسارة مئات المرات وتخيّل نفسه يغوص في الأرض مثلما كان يتخيّل نفسه دائمًا وهو يهبط من البرج العالي إلى الأرض، كان ممتلئًا بالحزن لأنّ هؤلاء الذين طالما كان

يسمّيهم «مجرد فلاحين متخلّفين وجرابيع»، هاجروا من القرى ليحتلّوا بغداد، عاشوا في المدينة، لكنّهم (زبالة)، وبعضهم بدوٌ احتلّوا المراكز المهمّة في الدولة، لكنّه في تلك اللحظات ظهر لنفسه فارساً محاطاً بالأعداء، اعتدّ بنفسه ولم يستطع تقدير قوة خصمه، لم يُبقِ شعورُه بالإهانة والخسارة أمامَه حلّاً سوى أن يقوم بالحركة الأخيرة، أن يستعيد نفسه المهزومة باقتحام يشبه الانتحار، الموت هو الحلّ ربّما! لقد كان - قبل أن تنزل «نرجس» - مثل البالون، لكنّ جملتها كانت الدبوس الذي غرزته فيه، ولم يَبقَ لديه شيء سوى أن يطلق الصوت الذي يشبه ما يصدر عن عود مفرقعات صغيرة، إنّه صوت الهواء المحبوس في الداخل، ثمّ أطلق صوتاً آخر مضحكاً يرافق تحوّل مادّته إلى جلدة على الأرض، استجمع غضبه مسنوداً بشعور عدم العدالة الذي غمره وقال: «وأنت؟ شنو أنت؟ أنت امرأة شبعت من الرجال، بعدين صرت كوّاده، شنو خاف صدكتي أنت سيدة راقيّة! صدكتي أنت من الذوات وصاحبة قصر؟ تاريخج شنو؟ ومن يا عائلة؟ كلّ شي غامض بحياتج، والحقيقة أنت زبالة. مثل الناس الزبالة الي صاروا أسياد، لج الناس الراقين مو فلوس، تاريخ، أنت وين تاريخج يا زباله؟».

خرج أهم ضيوف «نرجس» في تلك الليلة من غرفة ترك بابها مفتوحاً، وقف على صحن الدرج بين الطابق الأول والطابق السفليّ، كان يرتدي دشداشة، حاول استيعاب ما يحدث، في يده مسدس وكانت عيناه حمراوين، ولم يكن قادراً على حفظ تماسك جسده. خرجت بنت عارية

إلى الحمام من الغرفة التي كان فيها الضيف، سأل «نرجس» عمّا يحدث ومَنْ هذا الصعلوك، طمأنته أنّ الأمر بسيط، وطلبت منه أن لا يشغل باله، عليه أن يرتاح، وقالت إنّها قادمة حالاً، فالأمر يتعلّق بسائقها الخاص وهو سكران. كان الأمل كبيراً في قلب «نرجس» بأن ينتهي الموضوع إلى هذا الحدّ حتى تجد حلّاً لنفسها مع «سعيد» لاحقًا، هكذا كانت تفكّر وحاولت أن لا تُظهِر الغضب الذي غمرها، لكنّ «سعيد» تمادى في تعزيز يأسه ودفع الوقائع إلى منطقة النهايات السريعة أو الخاطفة، ربّما بسبب السكر أو الشعور بالإهانة، وجّه كلامه إلى الضيف الذي ما زال واقفًا ممسكًا بمسدسه: «وأنت شنو دخلك؟ روح لكحبتك!». كان الحدث يتطوّر بسرعة على النحو الذي وجدت فيه «نرجس» صعوبةً في السيطرة عليه، وشعرت بأنّ شيئًا مزعجًا سوف يحدث وتبقى آثارة فترة، لكن عليها -رغم ذلك- تداركه بما تبقّى لديها من أمل بمرور الليلة على خير، تراءت لها صورة كارثة لن تعرف ماذا ستخلف وراءها، اقتربت بسرعة من «سعيد» وكان في بالها شيء واحد، أن تدفعه إلى الخارج، ليس من أجل نجاته، بل لدفع ما يحدث بسببه، إلى منطقة خلف الأسوار، أو بعيداً عن الحيّ، لاعتقاله أو حتى قتله، لكن ليس هنا، طوّقتْه بجسدها لكي تدفعه في اتجاه الباب، سمعت جرس الباب يرنّ بشكل متواصل، ركضت «سونا» لفتح الباب، لكنّ الرجل الضيف شعر بالإهانة حتى ارتجفت شواربه الكثيفة، نزل درجتين عندما التفتت «نرجس» إليه، وبصيغة مشبعة بالتوسّل قالت له: «حجي، الله يخليك، هذا سكران، احسبها عليّ!

لخاطري آني!». تأخرت «سونا» في فتح الباب عدة ثوانٍ وكانت تريد أن ينتهي الأمر بخروج «سعيد»، ثمّ يقوم «جبار» بالتصرف معه في الحديقة قبل طرده، ردّ «سعيد» مرة أخرى موجِّهاً كلامه إلى الرجل الذي سحب أقسام مسدسه: «أنت الأجرب ابن الأجرب!». فقدت «نرجس» في تلك اللحظة قدرتها على إيقاف الكارثة، استسلمت عندما دفعها «سعيد»، سقطت على الأرض بينما سدّد الضيف أربع رصاصات متتابعة إلى صدر سعيد الذي سقط عندما فُتِح باب الصالة. دخل «جبار» ورأى «سعيد» يتخبّط غارقاً بدمه. استغلّ «عباس» الفرصة، إذ كان خلف جبار مباشرةً، أخرج مسدّسه مستغِلاً الصدمة التي صعقت الحارس لمشهد جسد «سعيد» الغارق بالدم، إنّها مفاجأة لم تمرّ في باله أبداً. تراجع «عباس» إلى الخلف وصوّب فوّهة سلاحه في اتجاه «نرجس» التي كانت تصرخ وقتها وكانت «سونا» تصرخ أيضاً، لكنّ «نرجس» صمتت فجأة في اللحظة التي التقت فيها عيناها بعينَي «عباس»، عرفته مباشرةً رغم مرور سنين طويلة، لم يتغيّر شكله أبداً كما لو أنّها رأته آخر مرة قبل سنة وليس قبل عشر سنوات أو أكثر، اشتغل في رأسها شريط، تتابعت فيه الصور بجنون، انعقد لسانها، كتمت صرختها التي كانت تدور كالعاصفة في الداخل، لقد تأكّدت أنّه هو، كيف دخل؟ وهل ثمّة مؤامرة؟ وكيف يسمح «جبار» لغريب بالدخول؟ شعرت برأسها يدور ولم تعد الأشياء واضحة كما لو أنّها في غيمة من ضباب، هبطت من شريط الذاكرة لقطة العراك الذي نشب بين زوجها والضابط، ثمّ لقطة أخرى وهي تجلس لاستقبال

المعزّيات وصوت الشيخ «عبد الباسط عبد الصمد» يتلو الآيات القصار، صوّب «عباس» الواقف أمامها فوهة مسدّسه في اتجاهها، غابت عن الوعي لحظة وراودها الحلم نفسه، ذلك الذي تظهر فيه «مريم» وكأنّها خرجت من القبر للتوّ، الحلم نفسه، لكنّه «سالم» هذه المرة، شاحب الوجه وفي يده سكين، أرادت أن تفتح فمها لتقول إنّها لم تقتله وإنّها بريئة من دمه، لكنّها سمعت فحيح الحيّة ينبعث من حنجرته ورأت السكاكين تخرج من كلّ اتجاه، تهبط من فوق وتخرج من الأرض، صارت محاطة بجدران من المعدن يرافقه صوت كالصوت الذي يصدر عن السلاسل الحديديّة: «قومي يا بنت الحرام، قومي جاء يوم الحساب»، صوتان يتداخلان، ثلاثة أصوات، صوت «مريم» و«سالم» وآخرين: «قومي، قومي». ضغط «عباس» الزناد وانطلقت منه رصاصات كثيرة، أصابت رصاصتان منها «نرجس»، وذهبت الأخريات إلى رأس الرجل الذي كان أهمّ ضيوف تلك الليلة؛ سقط مباشرة عن السلّم، تدحرج مسدّسه على السلّم حتى وصل إلى أرضيّة الصالة، تبعه الجسد الضخم الذي يفور منه الدم، صارت قدماه داخل الصالة ورأسه على العتبة الرخاميّة الأولى ساكنًا، استبدّت رغبة متوحّشة في عقل «عباس»، أراد أن يصوب في اتجاه شخص آخر كان قد ظهر بعد إطلاق النار ووقف على الدرج وفي يده مسدّس، لكنّ «جبار» خرج من جوّ الصدمة، نطح «عباس» مثلما يفعل ثور هائج، ملقيًا جسده على الأرض، في أثناء ذلك أطلق الرجل الذي يقف على الدرج رصاصات من مسدسه في اتجاه «عباس» قبل أن ينهض،

قتله في الحال وصرخت «سونا» مرة أخرى. ظهر الذين كانوا في الطابق الأعلى كلّهم، البنات أوّلاً وهنّ شبه عاريات ترافقهنّ صرخات مدويّة وهنّ ينظرن إلى برك الدم التي تتّسع على الأرض، نزل رجل وهو يحاول ارتداء دشداشته باضطراب وفي يده مسدسه، تاركًا غترته وعقاله يسقطان على الدرج ويتلطّخان بدم الضيف المقتول. نزل أحد الموسيقيّين يتبعه الرجل الرابع من الضيوف بدشداشته، تبعه عازف الأورغ يحمل آلته، ثمّ موسيقيّ آخر يحمل بعض الآلات تتبعه البنتان اللتان كانتا مسؤولتين عن تقديم الشراب وخدمة المدعوّين. نزل المغنّي قبل أن يسمع «جبار» أصوات محركات السيارات، كان واقفًا بذهول عندما فُتِح باب القصر الخلفيّ، اقترب من جسد «نرجس» المضرّج بالدماء وكانت تصرخ من الألم، عيناها الجميلتان مغمضتان وفي صوتها نبرة الفاجعة، رمى بندقيّته التي لم يعد لها أيّ أهميّة، فالكارثة قد حدثت بالفعل وانتهى كلّ شيء، ركع إلى جانبها واضعًا يده موضعَ الرصاصة، محاوِلاً إيقاف تدفّق الدم من نافورة في بطنها المغطّى بفستانها الحريريّ، لكنّه انتبه إلى نافورة أخرى ينبعث منها الدم في فخذها المكشوف حتى نهايته، اختفى البياض الذي كان يصفه بـ(الحليبيّ) وحلّ مكانه اللون الأحمر، غمر الهدوء في أثناء ذلك المكان، هدوء لم يكسره صوت سوى صوت نحيب «سونا» المتكسِّر بعد أن غابت «نرجس» عن الوعي. كان طقسًا جنائزيًّا موحشًا يشبه الوقت الذي يعقب عاصفة تمرّ فتخرب مدينة، وبنظرات مضطربة التفت «جبار» إلى «سونا» التي كانت ترتعش في باب المطبخ، ترتعش

وتنتحب لأنّها في قلب المعركة، ليست هذه المعركة التي خلفت ثلاثة قتلى و«نرجس» ربّما، بل المعركة التي ستضع مصيرها على كفّ عفريت مجنون. طلب منها أن تساعده، أن تضع يدها على جرح البطن، نزع قميصه ووضعه موضع الجرح في الفخذ. غمر الدم غمر لباس «نرجس» الداخليّ، وكان ذلك المشهد يمثّل لـ«جبار» اللحظة الإجراميّة التي يتشوّه فيها السحر، الفتنة والجمال الذي توهّج في رأسه خلال عامين باعتباره استثنائيّاً، وباعتبار «نرجس» ينبوع الأحلام الذي لا ينضب. طلب من «سونا» أن تضع يدها الأخرى على الفخذ، نهض وكان الدم قد لطخ فانيلته الداخليّة ويديه، توجّه إلى جسد «سعيد» وحرّكه، كان هامداً، وضع يده على صدره، لم يشعر بأيّ نبض، كان وجهه يحتفظ بوسامته وعيناه مفتوحتين، لكنّهما حزينتان، شعره يلمع رغم الكارثة، فظهر كما لو أنّه نائم، لكنّ الحقيقة أنّ «سعيد» صار جثة. ثمّ انتقل «جبار» إلى جسد «عباس»، كان هو الآخر قد فارق الحياة بوجهه الأسمر النحيل وعينيه المغمضتين كما لو أنّه فعل الشيء الذي يجب أن يفعله ونام مطمئنّاً، نظر إليه «جبار» وفي رأسه سؤال محيّر وغامض عن سبب هذا كلّه، لماذا قام هذا الشاب الغريب بالتصويب في اتجاه «نرجس»؟ مَن يكون حقاً! سأل وكان يدرك أنّ الجواب عند «نرجس» نفسها التي لا يعرف إذا كانت ستموت أم تنجو. عاد إليها وطلب من «سونا» أن تجلب الثلج، نهضت بصعوبة، صرخ بها أن تركض، لكنّها لم تكن قادرة على فعل ذلك، سقطت ثمّ نهضت ويداها ملطّختان بالدم، طبعت في أثناء ذهابها ومجيئها

أثر الدم على قدميها في كلّ مكان من الصالة، كان شعور «جبار» خليطاً من الخوف والحزن، لم يكن يتوقّع أن يمرّ بتجربة مُرة مثل هذه، طلب من «سونا» أن تتصل بالشرطة والإسعاف، قال ذلك بصوت مضطرب ونبرة عصبيّة، فكّر في «هناء»، ماذا سيقول لها؟ فكّر في خزيه عندما يكبر ابنه وبنته ويعرفان الحكاية:

هل انتهى دور الأب الشريف الذي يقوم به؟ هل سقط القناع ليعرف الجميع أنّه كان يعمل في بيت دعارة؟ مَن سيصدّقه؟ مَن سيهتمّ بدفاعه عن نفسه؟ مَن سيتفهّم أنّ الاضطرار تفسير ما فعله، أنّ الحياة أصبحت مثل فم وحش وأنّه وافق على هذا العمل من أجل عائلته، من أجل زوجته رغم شعوره بالظلم في علاقته بها ومن أجل طفليه الذين يستحقّان أن ينموا بشكل طبيعيّ على الأقلّ! ستأتي الشرطة ولن يكون ثمة مفرّ من مواجهة الحقيقة. لكن ماذا لو ترك البيت وهرب؟ هل سينتهي كلّ شيء؟ «لا طبعاً» قال في نفسه، «إنّهم يعرفون كلّ شيء وسيكون موقفي أكثر سوءاً، سوف يسحبونني حتى لو اختبأت في أعماق الأرض، وسوف تثبت عليَّ جريمة لم أرتكبها، لقد هرب مَن هرب ومات مَن مات، ولم يبق غيري وهذه اللبنانيّة، هل تساعدني بشهادتها؟ كيف تساعدني! لتساعد نفسها أوّلاً، سوف يجلبون حتى «خلود» من بيتها، وربّما يعتقلون زوجتي «هناء» أيضاً، الموسيقيّين والمغنّي والبنات كلّهنّ، العاهرات الصغيرات والنادلات!».

وضع الثلج على الجرحين، بينما استمرّت «سونا» بالضغط عليهما بقطع قماش جلبتها من المطبخ، يبدو أنّها -خلال تلك اللحظات- كانت تستعيد بعض توازنها. كانت البندقيّة مرميّة بالقرب من جثّة «عباس»، التفت «جبار» إلى «سونا» وقال لها: «هرب الضيوف خوفًا من الفضيحة ومن زوجاتهم، خوفًا على مناصبهم، أحدهم قتل الغريب الذي ادّعى أنّه من طرف سميرة البصراويّة قريبة نرجس، والآخر -هذا الميت المرمي هنا- قتل «سعيد»! لن يمسّ أحد البقيّة، لن تُذكَر أسماؤهم أبداً في القضيّة، فهم في النهاية ذوو مناصب عالية ولديهم السلطة والمال. أمّا أنا وأنت سوف تدهسنا الأقدام، سنكون ضحيَّتين لفداء الآخرين!».

نهضت سونا وهي ترتجف، مسحت يدها بقطعة قماش، وبيد مرتعشة رفعت سماعة الهاتف الموجود على طاولة في الصالة، كانت تضرب بأصبعها الأرقام باضطراب، قالت: «ألو، ألو، ألو» قبل أن يرنّ الخط حتى، تحدّثت في النهاية بصوت متهدِّج واستطاعت أن تعطي لهم العنوان، حاولت أن تعيد السماعة، لكنّها سقطت، تركتها. مرّت دقائق وسمعت أصوات سيارات تتوقّف عند الباب، ركضت، فتحت الباب الداخليّ، ثمّ الخارجيّ، كانت هناك أربع سيارات شرطة، دخل اثنان من الضباط وعدد من عناصر الشرطة، يبدو أنّهم يعرفون ما حدث، كانت تصرفاتهم توحي بأنّهم تلقّوا بلاغًا مفصَّلاً، رغم ذلك ظهر عليهم التوتر والإرباك. دخلوا إلى الصالة، سحب الضابط أقسام مسدّسه بطريقة مَن يقوم بحركة يعرف أنّه لن يحتاجها، مجرّد اعتياد، إذ كان المشهد واضحًا

أمامه: امرأة ورجل على قيد الحياة بين أربعة قتلى، كان عناصر الشرطة الذين معه يقبضون على بندقيّاتهم في وضعيّة الرمي، صاح الضابط الآخر على «جبار» أن لا يتحرك وأن يضع يديه على رأسه، دخلت «سونا»؛ فدفعها الضابط إلى الحائط، طلب منها أن تبقى دون حركة، ثمّ طلب من العناصر أن يفتّشوا المنزل. صعد أربعة منهم الدرجات الرخاميّة الملطّخة بالدم إلى الطابق الأعلى، وفتّش ثلاثة آخرين الغرف في الطابق الأول، المطبخ، الحمّام والأماكن الأخرى، بينما ظلّ أربعة يوجّهون بندقيّاتهم في اتجاه رأسَي «سونا» و«جبار». لم يمرّ من الوقت سوى خمس دقائق حتى كان عناصر الشرطة جميعهم في الصالة، أمسكوا «جبار» ورفعوه من ذراعيه، لم يقل شيئًا سوى إنّه لم يقتل أحداً، قال إنّ أحد الضيوف قتل «سعيد» وإنّ هذا القتيل -مشيراً إلى «عباس»- قتل الرجل الذي يرتدي الدشداشة، وهناك رجل هرب بعد أن قتل هذا الذي أصاب السيّدة الملقاة هناك! اقتادوه ومشى معهم باستسلام، لكنّه قال لهم إنّ السيّدة لم تمت، ما زالت حيّة! «سونا» أيضًا، أحسّت بأنّها تسير إلى منصّة الإعدام، كانت تبكي عندما اقتادوها: «والله أنا ما عملت شي، دخيل الله وين ماخديني!». كان جسدها الثقيل متهالكًا، والشرطيان يجرّانها جرّاً مثل بقرة إلى المسلخ، كانت حافية بقميص أبيض مبقَّع بالدم وسروال جينز ضيّق، يداها ملطّختان أيضًا ولا تعرف كيف أصبحت حافية، شعرها منكوش وعيناها متورّمتان، اختلط في أماكن متعدّدة من وجها الدمع بالمخاط، حشر الشرطيّان «جبار» في السيارة الصغيرة، قبل أن تتبعه «سونا» يجرّها

شرطيّان إلى السيارة الثانية، كانت سيارة الإسعاف قد حضرت، أضواء الحديقة مشتعلة والهدوء يعمّ المكان، وكان الشارع فارغاً تماماً كأنّ لا شيء حدث قبل دقائق!

وضع أربعة من رجال الكادر الطبيّ جسدَ «نرجس» على مِحفّة وحملوه عبر الكراج إلى سيارة الإسعاف التي انطلقت في اتجاه المستشفى، حضرت سيارة صغيرة ونزل منها رجل بلباس مدنيّ يرتدي قفّازات خلفه رجل يحمل كاميرا، التقطا صوراً للجثث من زوايا مختلفة، وضعا مسدّس «عباس» الذي كان قد تلطخ بدمه في كيس، أخذا صوراً عامّة للمكان، جمعا أغلفة الرصاص بأكياس صغيرة منفردة، وضعا بندقيّة «جبار أبو شامة» في كيس نايلون ومسدّس القتيل المتكوم على حافّة الدرج أيضاً، ثمّ نُقِلَت الأسلحة إلى السيارة. وصلت سيارة مارسيدس سوداء، نزل منها أربعة شبّان، لم يكلّما أحداً، قال الضابط شيئاً، فردّا عليه باقتضاب، حملا جثّة الضيف ورحلا، حضرت سيارة إسعاف وأعطى الضابط الشابّ أوامره بنقل جثّتَي «عباس» و«سعيد»، تحرّك بعدها الجميع تاركين بيت «نرجس» تحت حراسة رجلين من الشرطة عند الباب الأماميّ، وآخرَين عند الباب الخلفيّ.

من زجاج نافذة السيارة كان «جبار» يشاهد المدينة كما لو أنّه يشاهدها آخر مرة، تكسّرت في صدره كلّ ذكرى بينما كانت الأضواء القليلة التي تلمع هنا وهناك، تُشعِره بأنّه مسافر، إلى أين؟ لا يعرف، لكنّه متأكّد أنّها النظرة الأخيرة التي عليه أن يمتصّ كلّ شيء فيها ليحتفظ بصورة المدينة

أطول وقت ممكن ويملأ بها عتمة الأيام القادمة. كان يفكّر في طفليه وفي «هناء»، شعر بالظلم بشكل مضاعف عشرات المرات، تمنّى أن يموت في تلك اللحظة، سيموت ويذهب كلّ شيء إلى حفرة النسيان. «سونا» كذلك، كانت تنشج طوال الطريق مذعورةً ممّا سيحدث لها، لكنّ أملاً وحيداً في قلبها يتعلّق بالربّ الذي سيقف إلى جانبها وينجيها من هذه الورطة. أقسمت أن تعود إلى بيروت وتتصرّف مثل أيّ شخص تعلّم الدرس جيداً، ستحفظ الدرس ولن تنساه حتى تموت، أقسمت أنّها ستواظب على الذهاب إلى الكنيسة وتلتزم بالصلوات.

في المخفر أُودِع «جبار أبو شامة» في غرفة التوقيف قبل أن تُأخَذ إفادته، كذلك «سونا» التي وصلت بعده بدقائق، لكنّهم وضعوها في غرفة مجاورة. وقف «جبار» لحظة وجيزة وهو يمسك رأسه، كان يشعر بالدوار والصداع، اتّكأ أوّلاً على الجدار، ثمّ هبط بشكل متهالك حتى أقعى على مؤخّرته.

وقف أربعة ضبّاط برتب مختلفة يحيطون بمكتب مدير المخفر، أدخلوا «سونا» وكانت الدموع قد تيبّست على خدَّيها، عيناها حمراوين ويدها على قلبها الذي كان يرفرف مثل حمامة يطاردها نسر. سألوها عن اسمها، وعن أشياء عاديّة أخرى، جنسيّتها، إقامتها، شغلها، علاقتها بصاحبة البيت وحالتها الاجتماعيّة، لم تكن إجاباتها واضحة تماماً، كانت الكلمات تتعثّر في حلقها، ثمّ طلب منها مأمور المخفر أن تحكي كلّ شيء باختصار، وقبل هذا أن تهدأ قليلاً، قال إنّها شاهدة وليست متهمة، لكنّهم يجب أن يعرفوا كلّ شيء، لكنّها في تلك اللحظات لم تكن

قادرة على التركيز، كان صدرها يرتفع وينخفض كما لو أنّها قطعت مسافةً بين مدينة وأخرى جريـًا، ظهرت أول جملة لها مضطربة، بكت، وفي أثناء ذلك رنّ الهاتف، أجاب ضابط برتبة نقيب، ثمّ أعطى العقيد السماعة، بدأت نبرة صوته تنخفض وتضطرب وهو يردّد: «نعم سيّدي، نعم سيّدي، نعم، نعم نعم، حاضر سيّدي، تأمر سيّدي، نعم سيّدي». أعاد السماعة إلى الضابط القريب منه، قال: «أرجِعوها للتوقيف، شدّدوا الحراسة عليها وعلى الموقوف الآخر أيضـًا، لا أحد يتكلّم معهما، لا سؤال ولا جواب، هل فهمتم؟». ركض أحد الضباط مع الحرّاس، اقتادوا «جبار أبو شامة» إلى الغرفة التي وضعوا فيها «سونا». قال لها «جبار»:

- شو راح يعملو فينا؟
- تنيناتنا رح نروح بين الرِّجْلِين.
- شو يعني؟
- . . . . . .

تكوّرت «سونا» على نفسها، فكّر «جبار» في أن يطلب سيجارة من الحارس، لكنّه تخلّى عن الفكرة خوفـًا من شتائم سوف يطلقها هذا الوجه العابس في وجهه، سمع ما يشبه الفوضى في الممرّات، حركة مضطربة، والضابط الكبير نفسه كان يعطي تعليمات سمعها «جبار» بوضوح، كان صوته مرتبكـًا وغاضبـًا يأمر بضرورة الانتباه. لم يمرّ من الوقت سوى عشر دقائق حتى فتح العقيد بنفسه باب الغرفة، جرّ ثلاثة رجال بملابس مدنيّة «سونا» إلى الجهة الخلفيّة من المركز، وضعوا عصابة على عينيها وكان جسدها متهالكـًا

على النحو الذي اضطرّوا فيه إلى حملها كما لو أنّها جثة، ثـمّ جاء ثلاثة رجال آخرين يرتدون قمصان بألوان مختلفة، أحمر وأسود وأبيض، يرافقهم العقيد الذي كان صامتاً بملابسه العسكريّة الخضراء، وضعوا عصابة على عينَي «جبار» واقتادوه عبر باب المخفر الأماميّ. كانت هناك سيارة حديثة تقف أمام الباب مباشرة، وكان السائق قد شغّل المحرك قبل أن يُخرِجوا «جبار»، دفعوه إلى المقعد الخلفيّ وكان إلى جواره من جهة اليمين والشمال رجُلان، وركب الآخر جانب السائق. انطلقت السيارة بسرعة وكان الظلام قد حلّ قبل هذا على حياة «جبار»، كان صامتاً، لكنّ أشرطة ذكرياته تجري بأقصى سرعة، والأسئلة تتلاحق كما لو أنّها خيول بريّة هاربة، شقّت السيارة شوارع المدينة شبه المعتمة، بينما كان الهواء البارد يدخل من زجاج النافذة الذي لم يكن مرفوعاً تماماً، شعر «جبار» ببرد عجيب، كما لو أنّها المرة الأولى التي تنخفض فيها درجات الحرارة إلى هذا المستوى، ساروا به والظلام يغمر روحه، ظلام، لكنّ النجوم كانت تلمع في السماء، ونجمة بضوء خافت، نجمة بعيدة تلمع في قلب الحارس الذي لم يتخلّ عن النظر إليها. أدار السائق الراديو، انبعثت أغنية بصوت منخفض كأنّه يأتي من آخر العالم، أنصت «جبار» إلى الأغنية التي كان قد سمعها عشرات المرات من قَبل، لكنّه في تلك اللحظة شعر بأنّه يسمعها أول مرة، وأنّها تخصّه وحده، لم يستطع أن يمسك نفسه؛ فبكى!